aljadeedmagazine.com
فكر حر وإبداع جديد

الجديد
AL JADEED

ثقافية عربية جامعة تصدر من لندن
أكتوبر/تشرين الأول 2017، العدد 33

قصص من المغرب العربي

الثقافة والعنف

الانفلات الديني والهيمنة الأبوية والنكوص الاجتماعي

ISSN 2057-6005

تانيا الكيالي

الجديد
aljadeedmagazine.com

مؤسسها وناشرها
هيثم الزبيدي

رئيس التحرير
نوري الجراح

مستشارو التحرير
أزراج عمر، أحمد برقاوي
عبد الرحمن بسيسو، خلدون الشمعة،
خطار أبو دياب، أبو بكر العيادي
ابراهيم الجبين، رشيد الخيون
تحسين الخطيب، مفيد نجم

التصميم والإخراج والتنفيذ
ناصر بخيت

رسامو العدد:
سعد يكن، محمد خياطة
نصر ورور، أحمد المرضي، إسماعيل قلين
رشوان عبدلكي، بكري بلال، نور بهجت المصري
علاء شرابي، تانيا الكيالي، عمر نصيرات
عبدالله بولك، معتوق أبو راوي، خالد تكريتي
جميل ملاعب، علاء شرابي، mazen boukai

التدقيق اللغوي:
عمارة محمد الرحيلي

الموقع على الإنترنت:
www.aljadeedmagazine.com

الكتابات التي ترسل إلى «الجديد» تكتب خصيصاً لها
لا تدخل المجلة في مراسلات حول ما تعتذر عن نشره.

تصدر عن
Al Arab Publishing Centre
المكتب الرئيسي (لندن) UK
1st Floor
The Quadrant
177 - 179 Hammersmith Road
London
W6 8BS
Dalia Dergham
Al-Arab Media Group
للاعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk
لمراسلة التحرير
editor@aljadeedmagazine.com
الاشتراك السنوي
للافراد: 60 دولارا. للمؤسسات: 120 أو ما يعادلها
تضاف إليها أجور البريد.
ISSN 2057- 6005

هذا العدد

في هذا العدد تواصل الجديد خطتها في استقطاب الأقلام العربية الجريئة والمعبّرة عن تطلّعات الأجيال الجديدة في الأدب والفكر وتنشر مقالات تناقش القضايا المختلفة التي تطرح نفسها وإشكالياتها على العقل العربي.

في العدد مقالات حول قضايا الثقافة والعنف السياسي والديني والمجتمعي، وما اصطلح على تسميته بالإرهاب في الخطابات المعاصرة.

في العدد أيضا إلى جانب ذلك نصوص أدبية ومراجعات للكتب ومقالات نقدية، على جانب ملفين أساسيين الأول أدبي ويضم 26 قصة قصيرة من المغرب العربي أو الشمال الأفريقي (الجزائر والمغرب وتونس)، بينها قصص بأقلام ثماني كاتبات، ما يعكس تطوّراً ملحوظاً في إقبال المرأة على كتابة هذا الجنس الأدبي. وتشترك قصص الملف في بينها في الموضوعات والاهتمامات الجمالية والتعبيرية وطرائق السرد والتعبير، وقد تعددت وتنوعت وباتت تشكل إرثا أدبيا حديثاً لا بد للنقاد من النظر فيه قراءة وبحثا ونقداً لاستكشاف طبيعة المغامرة القصصية العربية اليوم.

ولئن كنا كرسنا عدداً كاملا من «الجديد» في سنتها الأولى لهذا الجنس الأدبي فإننا في هذا الملف وفي ملفات مقبلة عازمون على مواصلة الاحتفاء به وتسليط الضوء على الإبداعات القصصية في جغرافيات عربية مختلفة لعل قيما تعبيرية وجمالية وموضوعات مشتركة يمكن الاستدلال عليها من خلال تلك الملفات المخصصة لكتابة القصص في الثقافة العربية.

الملف الثاني المنشور في هذا العدد «حوار في الأنوثة المقموعة» يحتوي على أربع مقالات تنطلق في طروحات أصحابها من مضمون مقال عزيز العظمة المنشور في العدد الماضي تحت عنوان «الأنوثة المقموعة» لكل من موسى برهومة (الأردن)، مفيد نجم (سوريا)، إسماعيل نوري الربيعي (العراق)، منى برنس (مصر)، تشترك في ما بينها بصدورها عن نسق فكري يؤمن باستقلالية المرأة ويناصر مطالبتها بحقوقها في إطار عملية تغيير مجتمعي أوسع، وذلك انطلاقا من رؤى جديدة تريد أن تقطع مع تاريخ من الأبوية الطاغية التي هيمنت بقيم الذكورة المستبدة على مساحة المؤنث وجعلت منه حيزاً اجتماعياً وثقافياً مهمشاً وغير قادر على تحقيق حضور بارز في خطابات الثقافة والمجتمع العربيين.

مقالات العددين الماضي والحالي بمثابة خطوة في المسافة الطويلة لاستئناف حوار ثقافي عميق وخلاق بين النصوص والأفكار■

المحرر

سعد يكن

■ لوحة الغلاف للفنان سعد يكن

كلمة

4 عقدة قتل الإبن
المتنبي الحديث والشعراء المراهقون وعزلة الشعر
نوري الجراح

مقالات

8 حيوية النسق الظلامي وضعف التنوير المقاوم
علوان الجيلاني

16 الإصلاح الديني والتنمية الاقتصادية
ناجح العبيدي

24 الأصالة والمثاقفة
عامر عبدزيد الوائلي

30 الثقافة ومأزق المثقف الجديد
السيد نجم

38 السرد والهيمنة الأبوية
هشام الماحوزي

132 جدل السيد والخادم أم الشرق والغرب
محمد سيد عيد

136 سبعون بيضة ودجاجة واحدة
فاروق يوسف

أصوات

62 روح لأجل الكتابة
مريم الساعدي

140 أجمل فكرة في العالم
محمد الفخراني

سجال/ الأنوثة والمؤنث في الثقافة والاجتماع

51

52 تحرير الجسد الأنثوي من أصفاد الخيال النمطي
موسى برهومة

54 ذكورة وأنوثة
مفيد نجم

56 الفحولة بوصفها رأسمالا رمزيا
إسماعيل نوري الربيعي

60 الذي عنده عنزة فليربطها
منى برنس

64 ملف/ 26 قصة من المغرب العربي

66 ثلاث قصص
إبراهيم أبويه

68 شجرة الزّقّوم
أبو بكر العيادي

70 ريشة الغراب
إسماعيل غزالي

74 شرفة الضجر
أمينة شيخ

78 مينوش
أنيس الرافعي

82 صحفة من الملح
بنميمون أحمد

84 على حافة الجحيم
حميد ركاطة

85 سرقات صغيرة
فاطمة الزهراء الرغيوي

86 مغلق أو خارج نطاق التغطية
الخير شوار

88 تهاويم ليلة باردة
زهرة زيراوي

90 ميت عائد من الحرب بسفرجلة
سعيد منتسب

92 أحلام مؤجلة
فدوى البشيري

94 انتظار
عبدالرزاق بادي

96 جناح لثغاء الأبجدية
عبدالرزاق بوكبة

98 اللحن
عبداللطيف النيلة

104 مثل تفاحة مقضومة
عبدالهادي الفحيلي

108 اليوم السابع
عيسى بن محمود

110 علبّة الرّسائل الصّفراء
غادة الأغزاوي

112 عدوى الحب
فاتحة مرشيد

114 لم أعد طفلة
فريدة العاطفي

116 الوقائع الغامضة لاختفاء المواطن أحمد البهجة
لحسن باكور

120 الحذاء الأسود
مبارك حسني

122 فاكهة الممشى
محمد الشايب

124 الجسر
مصطفى لغتيري

126 غافية على ركبة الزمن
هيام الفرشيشي

128 طيّارة الريح
يوسف بوذن

سجال

142 اعتراف لا يريد أن يظل متأخراً
أمين الزاوي

شعر

42 شامندة
عبد الرحمن بسيسو

كتب

144 ثقافة الانحطاط من الهامش إلى المركز
محمد الحمامصي

148 المؤرخ أحمد بن أبي الضياف مصلحا مناهضا للاستبداد الشرقي
حسونة المصباحي

150 شاكر لعيبي يقدم مقاربة عربية لشعرية الأمثال الصينية
عبدالله مكسور

المختصر

154 كمال بستاني

157 رسالة باريس جذور الإرهاب في الشرق الأوسط
أبو بكر العيادي

الأخيرة

160 هل نملك غير الثقافة ردّا على العنف؟
هيثم الزبيدي

فكر حر وإبداع جديد
ثقافية عربية جامعة

المحتويات

العدد 33 - أكتوبر/ تشرين الأول 2017

غلاف العدد الماضي سبتمبر/أيلول 2017

عقدة قتل الإبن

المتنبي الحديث والشعراء المراهقون وعزلة الشعر

تسود الثقافة العربية، اليوم، حيرة كبيرة سببها السؤال العبثي عن جدوى البحث في الفرق بين فكرتين مختلفتين تماما هما: «تطوير» الشعر و«تغيير» الشعر. ويمكن مقابلة هاتين الفكرتين مع فكرتين أخريين لا بد من التمييز بينهما، هما «الحداثة» و«الحداثية». فالحداثة كما نعرف هي مصطلح تاريخي لمنجز غربي في الثقافة والاجتماع. بينما الحداثية أو الحداثوية هي عملية أيديولوجية قادت إلى تحويل الحداثة إلى دين ثقافي يريد، وبكل طريقة، تثبيت نموذج شعري بوصفه الأفضل، ومن ثم نقل هذا النموذج من حيّز اللغة لتتحقق له هيمنة اجتماعية تتيح تعميمه.

ولقد برز في هذا السياق من التعارض الشاعر الحداثوي المهووس بفكرة النموذج إلى حدود العقدة المرضية، كاشفاً عن فهم نخبوي قمعي للشعر يتسلّح بدوافع سلطوية أبوية مهجوسة بضرورة تسييد نفسها على الثقافة والاجتماع، بدعاوى فكرية شتى منها: حماية الهامش من المتن، والمتحول من الثابت، والأقليات من الأكثرية، وذلك عبر وعي يرى في طرفي العلاقة بين هذا وذاك تناقضا أبدياً تغيب عنه جدلية التاريخ.

فالشاعر المتفكّر في الشعر والمجتمع، ينطلق، هنا، من منظور جوهراني ثابت لا يرى في الأكثرية أو المتن سوى أصولية مطبقة بامتياز وسلطة غاشمة لا بد من مواجهتها وقمعها والانتصار عليها حتى لو كان الثمن تحطيمها تماماً لتثبيت النموذج الحداثوي، وبدهي أن هذا الفهم وهذه الدعاوى يستدعيان وعياً لا يكترث بحقيقة التطورات الخاصة لثقافة الأكثرية المجتمعية. وهو سلوك يفتقر إلى الموضوعية والضمير معا.

***

من وقت إلى آخر يخرج إلى واجهة النقاش الثقافي السؤال: هل نجح الشعر العربي بعد نحو قرن من سؤال التجديد والحداثة في أن يتجدّد ويجدّد معه مفهوم الناس للشعر. وما هي أبرز التحديات الجمالية والفكرية التي تواجهه اليوم؟

هذا سؤال يحتاج نقاداً يملكون مناهج قرائية حديثة ويتحلون بموضوعية عالية، وبالأريحية، ليمكّنهم أن يزنوا الشعر بميزان ذهب. لكن من منظور شاعر له نظرة وطريقة وخيارات لغوية وجمالية، أرى أن الشعر العربي الحديث أنجز مع بعض الشعراء المجددين أعمالا تحولت إلى لبنات أساسية في فكرة التجديد الشعري والفكري. حدث هذا خصوصا منذ منتصف القرن الماضي، وتواصل حتى اليوم وإن بوتائر متفاوتة. على أن حركة التجديد الشعري العربية لم تواكبها حركة نقدية نشطة ومتطوّرة يمكنها أن تستوعب التحولات التي طرأت على القصيدة العربية، وهذا شيء غريب ومؤسف حقاً. لم يتطوّر فهم يقوم على استيعاب ما حدث جماليا وتعبيرياً من تطوّرات عميقة حدثت في الشعر بجهود عدد من الشعراء المجددين. ولعل هذا القصور أحد الأسباب في الخلل القائم اليوم في علاقة الشعراء بالشعر، وعلاقة الشعراء بالشعراء، وعلاقة مجتمع القراءة بالشعرية العربية الحديثة.

***

من ناحية أخرى كشفت الممارسة الشعرية العربية الحديثة عن علل وركاكات فكرية ورواسب ذهنية ونزعات أبوية لم يفلح «الشعراء النجوم» في التخلص منها وتظهر هذه المثالب خصوصا في خطاباتهم حول الشعر. وقد شوّشت هذه الميول على شعر البعض منهم فبدت علاقتهم بالأجيال الشعرية الجديدة متناقضة كثيراً مع لافتات التجديد والحداثة التي ظهروا في ظلها. في نظري أن هذه النزعات عكست على نحو ما، حقيقة أن هؤلاء الشعراء لم تفلح علاقتهم باللغة، الموصوفة بأنها حديثة، في تحرير وعيهم الشعري وتوجّهاتهم الفكرية لتملك الوهج نفسه والجدة نفسها التي تطلعت إليها قصائدهم.

بل إن تلك النزعة الأبوية المهيمنة التي أسرت سلوكهم بإزاء الأجيال الشعرية اللاحقة وتجلّت في حواراتهم وخطاباتهم حول الشعر، وفي جوانب أساسية من توجّهاتهم الثقافية، إنما عاكست التطلعات الجمالية لشعرهم، وفي بعض الأحيان هددت تجاربهم الشعرية ووضعتها في مأزق من التناقض بين حداثة الإبداع وقدامة الوعي به.

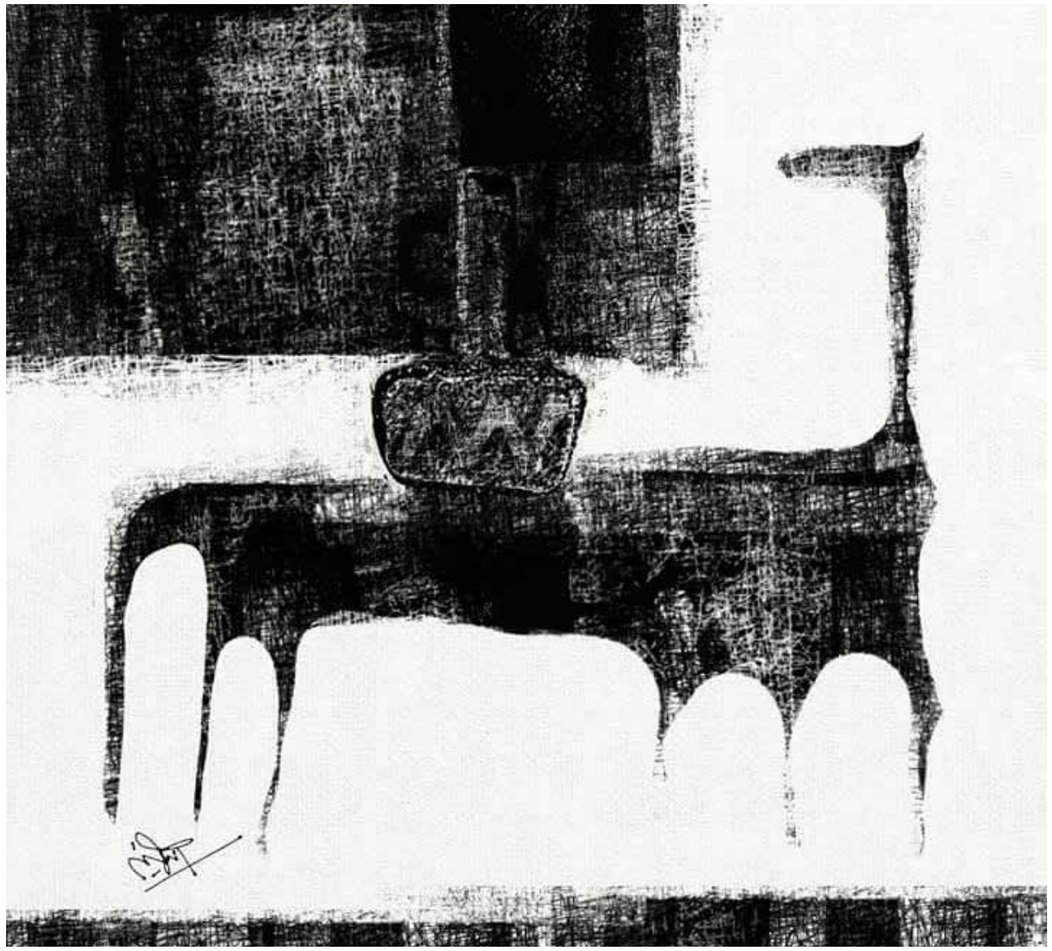

إسماعيل فايق

ويمكننا هنا أن نستعرض أسماء بارزة شكلت علامات فارقة في التجربة الشعرية العربية الحديثة ولعبت تجاربها أدوارا متفاوتة في صناعة الذائقة لدى جمهور الشعر كنزار قباني وعبدالوهاب البياتي وأدونيس ومحمود درويش، وهناك غيرهم. فقد هيمنت على شعر هؤلاء وسلوكهم في مجتمع الشعر فكرة مدمرة تتناقض في جوهرها مع جوهر الحداثة ومغامرة التجديد، وأعني بها القصيدة النموذج والشعر النموذج والشاعر النموذج.

***

أتحدث عن نموذج، وليس عن أسماء. ولقد أحاط هذا النموذج للشاعر العربي الحديث نفسه على نحو غير مفهوم بهالة رسالية بوصفه نبي الشعر والحداثة والثورة، ورسم لنفسه صورة الأب الشعري الذي تليق به حلقة من الأبناء والنقاد المريدين يدورون في فلكه معظّمين منجزه، وبالتفافهم من حوله يغيظون منافسيه من الشعراء الأقران، ويبهجونه. فمادام الشاعر النجم صاحب طريقة ويريد لها أن تسود وتغلب، فلا بد له أن يظهر كقطب جاذب، وإلا كيف سيحقق لنفسه حضوراً طاغيا خالباً لألباب الأبناء والمريدين من الشعراء ونقاد الشعر وجمهوره ومحبيه، وكيف له من دون ذلك أن يتفوّق ويتسامى كنجم، وتكون له مكانة منظورة لا تخطئها العين! لا بد له إذن من أن يظهر كقطب عارف، فهو شاعر وراءٍ ومفكر.

***

هذا التطلب الغريب على الحياة الحديثة القائمة على التنوع، كرّس في الثقافة العربية فهما للشعر لم يبتعد كثيراً عن ماضيه البعيد يوم كان الشاعر فم القبيلة ولسان القوم، ويمكن له حتى أن يتطلع إلى مصاف الأنبياء فيتنبأ وينادونه «المتنبي». ولئن كان ذلك متاحاً ومفهوماً في ماضي الثقافة العربية، فإن استعادة هذا الماضي بلباس حداثي هو ضرب من البؤس. أما التنظير له فهو ضرب من الهرطقة الفكاهية. فلا يعقل في زمن السفر في أعماق الكون بتكنولوجيا بشرية أن يواصل الشاعر العربي شعوره بأنه الرسول الغريب

لدى بني قومه، اليوسفي المحسود (من يوسف الذي قطعت النساء أيديهن انبهارا بجماله). وهو حارس الشعر الحديث ببلاغته ومعانيه ورؤاه التي لم تقطع تماما (إلا بالأزياء الفنية) مع البلاغة التقليدية ومعانيها العليا.

***

لقد اكتفى -الشاعر النموذج- من مغامرة التجديد بما كان الشعر قد حققه مع انطلاقة حركة التجديد الشعري في أواسط القرن الماضي، وها هو لا يكف عن إبداء خوفه على هذا المنجز الشعري من أن يتحطّم على أيدي شعراء جدد رأى فيهم مراهقين متطرّفين يهدّدون بطموحاتهم الشعرية فرادته ونجوميته. في وقت توحي له هواجسه البطرياركية بأن الرسول لا يشاركه آخرون في رسالته، وهو ما يختطف من ضوء حضوره ويهدد بتقليص هيمنة الاسم وظلّه الأبوي على أجيال لاحقة من الشعراء لا يرى الشاعر النجم أنها امتلكت، أو حتى قد تمتلك قدرات إبداعية خلاقة أو وعيا نقدياً كاشفا.

وبالتالي فإن الشاعر النجم صاحب النموذج المهدّد بفعل مغامرات شعرية بدت له مراهقة أفصح على مدار الربع الأخير من القرن العشرين في خطاباته حول الشعر عن قلق على الشعرية العربية وجزع على دوره الرسالي المركزي فيها، متهما «الشعراء الشباب» (بعض هؤلاء وخط الشيب شعره) غالباً بتبديد الإرث الشعري، والانحدار بالشعر عبر الإفراط في العصيان والتجريب إلى أرض اللامعنى، بينما يقف هو حارسا للمعنى. ولم يعدم الشاعر النجم نقاداً يفكرون بطريقته ويشتغلون كفلاحين في تراب نموذجه الشعري.

***

والآن، لنتأمل في التالي: إذا كان الطاغية يسدّ بوجوده القمعي طريق المستقبل ويمارس قتل المتطلعين إلى الغد، فإن الشاعر الحداثوي بطبعته البطرياريكة الشرقية يسدّ بجسده المنهك طريق المستقبل، منقلبا، بصورة مأساوية، على فكرة التجديد الشعري التي اعتنقها في شبابه، وبدلا من أن يقبل من الأبناء والمريدين الذهاب شعرياً أبعد مما ذهب، بل وإعطاءهم حق التمرد عليه، وهم بذلك يكونون امتدادا خلاقا لدوره المجدد؛ إذا به ينتفض خوفاً على نموذجه الشعري، ويقوم بتنفيذ عملية قتل رمزي لا تتوقف لكل ما يعتبره تهديداً لنموذجه، مفصحاً عن عقدة مستحكمة بالشاعر البطريرك هي بجلاء، ومن دون أي مواربة، عقدة قتل الابن. أي قتل المستقبل، وهنا تتجلى الشراكة بين الشاعر والديكتاتور.

***

إن نموذج الشاعر الحداثي صاحب النموذج الشعري ذي الطبعة الواحدة ذات الصفات الخالدة، يجرّم ثقافة الأكثرية، بوصفها تارة ثقافة شعبية، وأخرى ثقافة سلطوية، ما دامت تنتمي إلى المتن التاريخي للمركز، بإزاء هامش يمثله هو، وهذا التفكير يظهر بفعل الإفراط الحداثوي في اعتناق فكرة النموذج الموصوف؛ فهكذا تكون الحداثة أو لا تكون، وهكذا يكون الشعر أو لا يكون! وهكذا تكون الثورة أو لا تكون.

ولعل هذا المرض الذي ضرب التجربة الشعرية العربية الحديثة هو ما جعل من الحداثة خرافة أيديولوجية، ومن الحداثية قيداً على الشعر، وجعل من الانحدار سمة عامة للتطور الشعري، لم تخرق قاعدتها تجارب مختلفة، إلا نادرا.

المؤلم أن الشعراء الجدد اللاحقين على الشاعر النموذج أصابت كثرة منهم لوثة منه، ولم تنج من شرك إجلال النموذج المتعالي إلا قلة من الشعراء الجدد. ولهذا حديث آخر.

***

أخيراً لا بد أن أشير إلى أن هذا التوصيف للشاعر النموذج وتحولاته، لا يتقصّد الانتقاص من الأدوار التي لعبها الشعراء المشار إليهم وآخرون معاصرون لهم، فقد اشتركوا جميعا، كل بمقدار، في نقل القصيدة العربية من طور إلى طور، وكان لكل منهم سهم في تطوير الشعر العربي وتثبيت قيم التجديد. لكن أكثر هؤلاء انقلبوا على تطلعاتهم الشعرية، كل بطريقة. وقد أفصحت الوقائع التي عرفتها الحياة الشعرية العربية عن أن درجات وعي التحولات ووعي أدوار الشعراء في المجتمعات هي ما ظلّ قاصراً في الثقافة العربية. فقد ظلت المغامرة الشعرية الحديثة متقدمة طوال الوقت والوعي النقدي بها متأخراً طوال الوقت، وهو بعض ما ساهم في عزلة الشعر■

نوري الجراح

لندن أيلول/سبتمبر 2017

إسماعيل قاين

حيوية النسق الظلامي وضعف التنوير المقاوم

الثقافة في مواجهة الإرهاب في اليمن

علوان الجيلاني

خلال أربعة عشر قرناً مضت راكمت الثقافة العربية تجربة إنسانية كبيرة اتسمت في كثير من مفاصلها بالحس الكوني والقدرة على التماهي مع الآخر، سواء كان ذلك الآخر نسبياً «داخلياً» أو شبه كلي «خارجي» وقد كان هذا المنحى ناتجاً عن عدم قدرة الحضارة العربية الإسلامية على الاكتفاء الذاتي -إن جاز التعبير- ذلك الاكتفاء الذي ظلت تصرّ عليه بعض التيارات وعلى رأسها أهل الحديث وهم السلف الأقدم للتيارات الدينية الناشطة اليوم بمختلف مسمياتها، وكما راكمت الحضارة العربية الإسلامية في مسيرتها الطويلة مجموعة كبيرة من الأعراف والتقاليد التي يتشكل منها الجانب التفاعلي من هذه الحضارة المتمثل في الاحتكاك المستمر بالحضارات الأخرى والترجمات والتضمينات الثقافية المختلفة الحاضّة على الانفتاح والاستقبال والحاضنة للتلاقح والتوالج الإنساني والمعرفي، فقد احتفظت أيضاً في داخلها بجيوب مغلقة راكمت فيها صنوفاً من التقوقع على الذات والرفض المطلق للآخر والتوجّس فيه، بدأ ذلك بتبنّي تفسيرات وتأويلات تنطلق من فهم عربي بدوي للنص منذ الجيل الأول للحنابلة ثم تطور ليصل إلى عصرنا الحاضر وقد صار نظاماً غير قابل للاختراق حتى بعد أن هبطت على حواضنه الثروة وتفتحت شهيته لابتلاع العالم.

وعلى مدار قرون لم تستطع تلك الجيوب تقديم أيّ نوع من الامتثال للعناصر الثقافية والمعرفية القادمة من الحواضن الإسلامية والمتداخلة بالنسق المعرفي العربي العام، والتي كان يمتثل لها معظم النسق الحضاري الإسلامي بوصفها نتاج تطور مطّرد وتلاقح فهوم وأمزجة من حضارات مختلفة اختارت الإسلام دينا.

وحين احتاجت تلك الجيوب إلى منطق الآخر ومناهجه لتقديم مشروعها وتوضيحه وتبريره والدفاع عنه كما في حالة ابن تيمية وزملائه وتلاميذه، فإن الاستفادة من الآخر كانت تقف عند حدود الغرض الحجاجي مع اشتباكات جزئية فيما يتعلق بالألفاظ والمعاني، أما تبدّل نسق الوعي ومراجعة التأويلات والقدرة على اجتراح تصوّر جديد للعالم فكان شديد الصعوبة دائماً بل كان يزداد رغبة في الانغلاق والتقوقع على الذات ورفض الآخر خاصة ذلك الآخر المتمثل في التوجهات العقلية للمعتزلة والفلاسفة وتجارب التدين والإبداع عند المتصوفة ناهيك عن المذاهب غير السنية. حتى الكوّة التي كانت مفتوحة باستمرار على المذاهب السنية مالكية وشافعية وحنفية فقد أغلقها التوجس تجاه بدعية الأشاعرة والماتريدية التي التحف بها أبناء هذه المذاهب، وقد ظلّ الانفتاح على الآخر السني بسيطاً جداً مقارنة بتلك القرون الطويلة من تاريخ التزاحم في المكان وداخل الإسلام الجامع للجميع.

ولكن النسق المعرفي المتمثل في المذهب الحنبلي أساساً وإضافات ابن تيمية عليه لاحقا ثم ما تراكم عليه من موجهات مفاهيمه خلال القرون السالفة كان موعوداً منذ مطلع القرنين الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي بتبدلات كثيرة سئت حرابه وأعادت تخليقه فتبدل ذلك النسق تزامناً مع انزياحات غير قليلة أصابت بنيته الأيديولوجية التقليدية وغيرت آليات عمله ليصبح جاذباً عتيداً لجميع التيارات الدينية الراديكالية حتى تلك التي تشكلت في حواضن مختلفة ولأسباب لا علاقة لها بالمرجعية التاريخية هنا.

وقبل أن نرى ما إذا كان علينا أن نعترف أنه منذ ثلاثة قرون تقريبا كنّا على موعد مع تخلّق نسق مضاف يشكل البؤرة التي تشكل مجموعة تطورات في النسق ذاته وفي نشأة أو تحور تيارات لاحقة تجذبها إمكاناته المادية وتأويلاته ويجمعها معه الجنوح لممارسة الإرهاب.

ولكي يتضح ما نرمي إليه سنقف قليلاً عند مادة نسق قبل أن نستأنف. فإذا كانت المعاجم تعرف النسق من كل شيء: بأنه ما كان على طريقة نِظامٍ واحد عامّ في الأشياء (لسان العرب، مادة نسق) فإن النسق المعرفي أو المرجعي الذي تقوقعت فيه التيارات النابذة للآخر قديماً لم يعد كما كان وفق موجّهاته ومفاهيمه الأولى، فقد مرّ هذا النسق بتحولات متباينة عبر تاريخ الإسلام الطويل، لكنه مع الأسف كان يتطور عكسياً بمعنى أنه كان في كل مرحلة يزداد انغلاقاً على نفسه وتزداد رغبته العنيفة في نبذ الآخر وكراهيته.

كمثال على ذلك فقد مرّ موقف هذا التيار «المرجعية» من التصوف بثلاث مراحل أو ثلاثة أطوار كلها تؤشر على تبدل النسق وتحوره أكثر تجاه العنف.

الطور الأول امتد من القرن الثالث إلى القرن السابع، وفي هذه الفترة كانت مناوأته للتصوف والمتصوفة جزئية تلتبس بالتعصب المذهبي والخلافات الكلامية والجدل الفكري أو الاصطدام الذي يسببه الجديد المحدث للمتوجس خلقة في كل جديد، ولم يكن في تلك الفترة ما يلفت عدا ما فعله ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» ولكن ما فعله ابن الجوزي كان مجرد إنكارات لمظاهر عند المتصوفة وغيرهم لم يأبه بها أحد بل أنكرها عليه كثير، فقبل زمن ابن الجوزي كانت علاقة الإمام أحمد بن حنبل بالصوفية جيدة، وكان أبوحمزة الصوفي (ت269هـ) يجالسه ويستفيد منه وكثيراً ما كانت تعرض عليه مسائل «فليتفت إلى أبي حمزة يسأله ما تقول فيها يا صوفي؟».

الطور الثاني من أطوار مناوأة الحنابلة للمتصوفة هو طور مدرسة ابن تيمية، وفي هذا الطور ازدادت المناوأة وعكست صراعات ابن تيمية مع المذاهب والأعلام المنافسين في عصره نفسها على الصراع حدة ونقداً ولم تكن بريئة من الأغراض والطموحات السياسية. فقد كان ابن تيمية يترضى على الجيلاني والهروي والواسطي وغيرهم، ولكنه كان حاداً أشد ما تكون الحدة مع معاصريه أو من سبقوه بزمن وجيز خاصة إذا كانوا ممن يخالفونه مذهباً واعتقاداً.

وفي هذا الإطار كان الحنابلة يرضون تمام الرضى عن المتصوف الحنبلي ويغضون من غير الحنبلي تبعاً لمناوأتهم لمذهبه.. فكان عبد القادر الجيلاني والهروي ويوسف بن الحسين الرازي، وأبو حمزة الصوفي، وابن الحيواني وأبوالجود الفارسي عندهم في محل عالٍ لأنهم من الحنابلة مذهباً واعتقاداً، وقد ذكّرهم بكل الخير كبار رجالهم، مثل ابن تيمية وابن الجوزي والذهبي وابن القيم وغيرهم، ولكنهم كانوا يتحفظون على الصوفية من غير الحنابلة الذين ظهروا بعد القرن الرابع بشكل خاص، أي

نور بهجت المصري

بعد انتشار العقيدة الأشعرية وانتساب مجموعة كبيرة من الصوفية إليها، وقد انعكس هذا على موقف الحنابلة من مجموعة من الكبار في عالم التصوف مثل الغزالي والعز بن عبدالسلام والسهروردي والقشيري وأمثالهم.

وقد كان ابن تيمية صريحاً وأميناً في ذكر أسباب الخلاف الحقيقية وهي أسباب اعتقادية كما أسلفنا، فهو مثلاً يرى أن ما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته المشهورة (يقصد الرسالة القشيرية) من اعتقاد مشائخ الصوفية فإنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به على أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشاعرة وذلك هو اعتقاد أبي القاسم الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني.

وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة لكنه مقصر عن ذلك (حسب رأي ابن تيمية) ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه وزيادة تخالف ما كانوا عليه، والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر.

لكن المتغيّر الأكثر لفتاً للأنظار هو الهجوم الشرس لابن تيمية على أصحاب التصوف الفلسفي خاصة ابن عربي وهو هجوم بلغ حد التكفير، مع أن هذا لم ينفرد به ابن تيمية ولا انفرد به أتباعه فقد شاركهم فيه بعض أتباع المذاهب الأخرى. غير أن ابن تيمية لم يقدم على حرق كتاب ولا تدمير مزار أو تخريب أثر عدا حادثة نسبت إليه بعد موته ولم يعرض لها هو في كتبه.

الطور الثالث هو طور المدرسة الوهابية وما بعدها إلى اليوم. وفي هذه المرحلة لم يعد الوهابيون يفرّقون بين المنتسبين للتصوف من الحنابلة وغيرهم، ولا بين التصوف في عمومه والتصوف الفلسفي ولم يعد هناك مجال حتى للنقاش أو الحوار، فالتصوف كله في نظرهم واحد وكله مرفوض وملعون وشرير. وقد التبست حربهم على التصوف بأسباب متداخلة وتسببت في إتلاف تراث واسع من الآثار والكتب والشواهد الثقافية.

هذا النسق المتبدل سيغدو أكثر راديكالية منذ مطلع القرن العشرين ومنذ ثلاثينيات ذلك القرن سيغدو نسقاً تختلط فيه عناصر كثيرة ضاعفت قوة الموجهات السابقة لغيريته، وساهم اجتذابه لتيارات أخرى مثل الإخوان المسلمين في تخليق تضمينات وموجهات ومفاهيم أكثر

أعدت المؤسسات التعليمية التي تمتلكها هذه التيارات وسيول المطبوعات والخطب والأشرطة والأقراص المدمجة ثم الشبكة العنكبوتية وغيرها من وسائل المعرفة المختلفة على تخليق الإرهاب بشكله الذي نواجهه من نسق معرفي تم انتقاؤه من عدة مصادر ومن مستويات نصية متباينة تتداخل وتتعاضد ومنها تتشكل هويته

تعالياً وفوقية وازدراءً للآخر ورغبة في استئصاله.

إن الإرهاب في صلبه هو ركام هذا النسق المرجعي التاريخي، أما صورته التي نعرفها اليوم فقد ساعدت على تخليقها مجموعة عوامل منها:

-1 دعم الأنظمة: لقد وجد هذا النسق المرجعي نفسه مسنوداً بأنظمة نافذة تنتمي لهذه الحواضن وتقدم نفسها بوصفها حامية النسق والمتبنية لنشره.

-2 السيولة المالية: وهي سيولة مذهلة يصعب على العناصر المستهدفة بالتنظيم والأدلجة والاحتواء والتفريخ مقاومتها.

-3 الانفجار المعرفي: لقد ساعدت المؤسسات التعليمية التي تمتلكها هذه التيارات وسيول المطبوعات والخطب والأشرطة والأقراص المدمجة ثم الشبكة العنكبوتية وغيرها من وسائل المعرفة المختلفة على تخليق الإرهاب بشكله الذي نواجهه من نسق معرفي تم انتقاؤه من عدة مصادر ومن مستويات نصية متباينة تتداخل وتتعاضد ومنها تتشكل هويته.

-4 المنابر الإعلامية: الإرهاب كيان منظم يمتلك كماً هائلاً من المنابر الإعلامية وخطابه التعبوي يصيب الهدف بسهولة كونه خطابا دينيا موجها لأمة تغلب عليها الأمية والتخلف وتعيش عقدة الماضي بشكل مرضي.

كل ذلك أرسى مجموعة من المفاهيم والأعراف الثقافية القديمة الجديدة، ولقد ترتبت على تلك المفاهيم مجموعة من الإجراءات أهمها تبدل أصول اللعبة تماماً وفيما كانت اللعبة تتبدل مرّ الشكل المتخلّق للإرهاب بتجارب ساهمت في بلورته مثل استفزاز الثورة الإيرانية وحادثة الحرم المكي المعرفة بحادثة جهيمان، مروراً بتجارب الجهاد الأفغاني والبوسني والشيشاني والتجربة الجزائرية وتأسيس القاعدة وظهور حركة طالبان وأحداث الـ11 من سبتمبر والغزو الأميركي للعراق وهيجانات الشوارع عام 2011 وصولا إلى التمظهرات الكبرى المتمثلة في داعش وأخواته.

ولعل أهم خصائص النسق المعرفي الإرهابي كما نراه اليوم يتمثل في مجموعة من النقاط قدمها حسين حماد في كتابه «ذهنية التكفير.. الأصوليات الدينية والعنف المقدس» منها أنه « يميل إلى اختزال الحقائق المتنوّعة والمتعددة للأشياء في حقيقة واحدة ونمط واحد من أنماط التفكير، بالإضافة إلى أنه ينتج أساسا عن تفكير محدود. وعادة ما يوظف لخدمة المسلمات الدينية ونادرا ما يترك لنفسه حرية الانطلاق والجنوح في آفاق التخيلات والتأملات العقلية، فهو يفرض على نفسه قيودا وأسوارا لا يتجاوزها ولا يتخطاها». كما أنه «نكوصي ماضوي يقدس الماضي ويتحرق شوقا للعودة للأرحام المرجعية في الفقه واللغة والأفكار، لأن هذه الأرحام تبدو له وكأنها ملاذ آمن وطريق سهل للارتواء من منابع التدين النقي، ومن هنا يتسم بهذا الحنين الجارف لاستعادة الماضي التاريخي للأسلاف، والعودة إلى العصر الذهبي للسلف الصالح، ومن ثم يتمّ نفي الحاضر والمستقبل لحساب هذا الزمن المطهر من كل الخطايا». وهو «يعاني من أحادية البعد، ويعجز عن إدراك أنّ للحقيقة عدة أوجه وليس وجها واحدا، فهو يعجز عن التفكير بشكل جدلي من خلال الـ'معا' والـ'ضد' والـ'شيء' ونقيضه، حيث أنه يُعطي لنفسه الحق في الامتلاك المطلق للحقيقة، وهذا الزعم يعطيه الحق في نفي الآخر ورفضه ثم تكفيره تمهيدا لسحقه وتصفيته».

ثم هو«عقل دوغمائي، والدوغمائية هي نوع من الاعتقاد المطلق في امتلاك الحقيقة التي تعلو فوق النقد والشك، وكل الأصوليات الدينية المعاصرة تزعم لنفسها امتلاك الحقيقة المطلقة وتنزع في تفكيرها نزوعا دوغمائيا. ووفق هذه الركائز مجتمعة يتشكّل المنطق الأصولي، الذي يتنافى مع منطق الثنائيات المعرفية ومع طبيعة البشر وطبيعة الحقائق وطبيعة هذا الوجود، والتي تشبه جميعها ثراء وتنوع ألوان الطيف، حيث أن اختزال الإنسان والعالم والأشياء وفق منطق «أما-أو»، وفق ما يذهب إليه حماد، هو نوع من التفكير المرضي الذي يمنح أصحابه تبريرا سهلا لممارسة الإرهاب» (ابن تيمية، تقي الدين، الاستقامة، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الطبعة الأولى 1983).

ولكن مفهوم النسق المعرفي في هذا السياق لا يمكن أن تكون له الفعالية المرتجاة، فهو لا يعمل بكفاءة عالية ولا يكون منضبطاً إلا إذا قرأناه في ضوء

الوجه القبيح في تاريخنا وتراثنا قد استولى على كل شيء إلا أن الهزات الكبيرة التي شهدتها المجتمعات العربية خلال العقود الأربعة الأخيرة وما نتج عن تلك الهزات من عوامل الخوف والتصدعات المجتمعية والثقافية كان يؤدي إلى انتقال القيم باتجاه مقترب التخلف والتشوه وإلى مفزع الشك والارتياب وإلى النكوص المفجع عن التطور والحداثة والتخطي والمغايرة

غيره من المفاهيم مثل مفهوم الأفق المعرفي الذي يعني أن في كل حقبة من تاريخ البشرية توجد مجموعة من الأفكار والقيم والحقائق المعرفية السائدة تتحدّد في ضوئها مفاهيم الإبداع، والعلم، ومناهج البحث العلمي، ومعايير الحكم على جدة وجدية هذا الخطاب الفردي أو الجماعي وذاك.

وحينما نقول إن الأفق المعرفي الذي سبق ورافق ظهور كابوس الإرهاب كان يتجه بقوة لصالح مفاهيم العنف والقتل والتدمير واحتكار الحقيقة والدين ونبذ كل ما يعرفه ويألفه المجتمع ورفض كل شروط الحضارة المعاصرة بوجهها الكوني وأفقها الإنساني فهذا يعني أن هذا الأفق المعرفي يقوم بإضافة فعالة ومخيفة تتخطى النسق المعرفي القديم دون أن تعارضه بما يعنيه ذلك النسق من جمود واجترار وركون إلى المألوف والسائد، وهو إذ يعيد تقديمه مشحوناً بانفعالات أشدّ هيجاناً وحقد أكثر تأججاً يستهدف الداخل أنظمة ومؤسسات ومجتمعات وأفراداً ومذاهب وأحزابا وتيارات تغايره ويستهدف العالم كله بوصفه أغياراً يصعب القبول بهم.

دور الثقافة في مواجهة الإرهاب

ما هو إذن الدور الذي يمكن أن تضطلع به الثقافة في مواجهة الإرهاب؟ بالرغم من أننا لا نستطيع أن نقول إن الموضوع قد حسم تماماً وإن الوجه القبيح في تاريخنا وتراثنا قد استولى على كل شيء إلا أن الهزات الكبيرة التي شهدتها المجتمعات العربية خلال العقود الأربعة الأخيرة وما نتج عن تلك الهزات من عوامل الخوف والتصدعات المجتمعية والثقافية كان يؤدي إلى انتقال القيم باتجاه مقترب التخلف والتشوه وإلى مفزع الشك والارتياب وإلى النكوص المفجع عن التطور والحداثة والتخطي والمغايرة.

إن المقارنة بين داعش والنازية مثلا والكلام للمفكر اليمني حسين الوادعي «ليست صحيحة لأكثر من سبب من أهمها أنه لا يوجد فكر خاص بداعش بحيث يتم عزله ومحاربته، المعركة ضد الفكر النازي كانت أسهل فهناك رموز للنازية وكتب خاصة بها وأفكار تفلسفها

وبالتالي يمكن محاصرتها وتحريمها. أما بالنسبة إلى داعش فالمسألة معقدة جدا ولعل كثيرين لم ينتبهوا إلى أنه لا يوجد لداعش فتاوى خاصة بها أو كتب خاصة بها أو حتى أفكار خاصة بها! فأفكار داعش يشترك فيها مع غيرها من التيارات الإسلامية وخاصة الحنبلية الوهابية والإخوانية القطبية، ومرجعيات داعش هي نفس مرجعيات المؤسسات الدينية الرسمية (ابن تيمية، ابن حنبل، ابن القيم، ابن عبدالوهاب). ونفس مرجعيات الإسلام السياسي المعاصر (المودودي، سيد قطب، عبدالله عزام)، وأفكارها هي نفس الأفكار التي أصبحت شائعة حتى في الكتب المدرسية (الجهاد، الولاء والبراء، الجاهلية المعاصرة، الشهادة، الفرقة الناجية).

وكل فظائع داعش والقاعدة كانت لها مثيلاتها في موروث العنف الإسلامي وكتب التراث من سبي النساء حتى إحراق الأسرى وذبحهم، كان الفكر النازي والفاشي جملة اعتراضية في السياق الأوروبي لذا كانت محاصرته وتحريمه ممكنان. أما «فكر داعش فلا يمكن فصله عن الفكر العام للموروث الديني دون المرور بمرحلة إصلاح ديني جريئة وجذرية» (العفيف، أحمد جابر، شاهد على اليمن أشياء من الذاكرة، دار الفكر دمشق ص 420 ط 1/عام 2000).

إذن فإن التعامل مع أنساق الثقافة العربية التي كانت حواضن سلبية أو إيجابية (رافضة أو متقبلة) والتي هيأت الشروط الموضوعية لإنتاج كابوس الإرهاب بوصفه ممارسة لا عقلانية ولا إنسانية ثم بوصفه أكثر أشكال التدين تعبيراً عن محاولات الإنسان لتحويل الدين إلى كائن وحشي لا أخلاقي مرعب سيبدو أمراً محالاً في هذه العجالة، لذلك سأتخذ من الحالة اليمنية نموذجاً أقارن من خلاله الدور الذي لعبته الثقافة في مواجهة الإرهاب.

وسأنطلق أولاً من مفهوم الثقافة الواسع المتمثل في كونها تشمل أنماط القيم والسلوك والدين والمعاش والطقوس والعادات والتقاليد وأنظمة الأكل والموسيقى عموماً وأنظمة المعنى السائدة. ثم تمظهرات ذلك كله من خلال الثقافة الرسمية أو الثقافة العالمة المتمظهرة في الإنتاج الفكري والفلسفي والسوسيولوجي والنظري والإبداعات السردية الروائية والقصصية والشعرية والإبداعات التشكيلية وإنتاج الأفكار

فظائع داعش والقاعدة كانت لها مثيلاتها في موروث العنف الإسلامي وكتب التراث من سبي النساء حتى إحراق الأسرى وذبحهم، كان الفكر النازي والفاشي جملة اعتراضية في السياق الأوروبي لذا كانت محاصرته وتحريمه ممكنان. أما «فكر داعش فلا يمكن فصله عن الفكر العام للموروث الديني دون المرور بمرحلة إصلاح ديني جريئة وجذرية»

والمعاني إلى جانب رؤى النخبة الضيقة جداً أقصد الجيل التنويري الذي اشتغل بالسياسة من بوابة الريادة التعليمية والثقافية وكذلك الثقافة الشعبية بفنونها المختلفة.

لا بد أولاً من الإشارة إلى هشاشة جبهة الثقافة والمثقفين في اليمن، ولا بد من التأكيد على كون هشاشتها تفوق كل تصور وذلك لجملة من الأسباب:

أولها: كون المؤسسات الحاضنة للثقافة والمثقفين شبه منعدمة وإن وجدت فهي هامشية جداً ضعيفة الإمكانات، قليلة الحيلة، وفي مرات كثيرة لا تكون أكثر من مجرد حضور اسمي لا غير.

ثانيها: بنية الدولة التقليدية الميالة دائماً لعدم تقدير الثقافة بل والاستخفاف بها وبرموزها وكياناتها.

ثالثها: التحاضن طويل المدى بين السلطة ورموز التيارات الدينية المتطرفة بكل تمظهراتها.

رابعها: تجريد السلطة للتيارات الدينية سيفاً على مخالفيها، واتخاذها سنداً في حروبها جعلها جزءاً من السلطة وأطلق ممارساتها الإرهابية ضد المجتمع وثقافته وإرثه الديني القارّ المتمثل في التصوف والمذهبين الشافعي والزيدي والعادات والتقاليد الاجتماعية وكذلك الإبداع الأدبي والفني ومنابر التطلعات الحداثية القليلة ومؤسسات التعليم.

في مطلع السبعينات من القرن العشرين شهدت صنعاء مظاهرة احتجاجية قادها الشيخ عبدالمجيد الزنداني تستنكر إقدام الحكومة على التفكير في إنشاء أول جامعة في شمال اليمن. وكانت حجة المحتجين أنها ستكون حاضنة لتعليم الكفر ومرتعاً للاختلاط والفساد الأخلاقي. وكان ذلك في وقت تزخر فيه صدور النخبة التنويرية بتطلعات وطموحات لا حدود لها ففشلت احتجاجات الزنداني ونجحت تطلعات أحمد جابر عفيف وعبدالكريم الأرياني (غيلان، عبد الرحمن، الجماعات الجدينية وتكفير المثقفين - صحيفة الثقافية نموذجاً، مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر- القاهرة الطبعة الأولى 2017).

لكن ما أن أهلت ثمانينيات ذلك القرن حتى كان شباب الإخوان يجوبون المساجد في طول اليمن وعرضها ليقرأوا في خطب الجمعة فتوى تكفير المقالح الشاعر الكبير ورئيس تلك الجامعة. كما شهدت ممرات كلية الآداب حادثة من أطرف الحوادث فقد وقف أساتذة الجامعة وطلابها مذهولين وهم يشاهدون متعصباً دينياً وقد أشهر سيفاً وراح يطارد أستاذ علم الاجتماع حمود العودي وهو يقسم بالله أن يريق دمه. ثم تواترت تلك الممارسات في الجامعة وخارجها خاصة بعد صعود التيارات السلفية فتم تكفير مجموعة من الكتاب من أمثال عبدالكريم الرازحي وأبوبكر السقاف. وطال التكفير صحيفة الثقافية ومعظم كتابها وعلى رأسهم رئيس تحريرها سمير اليوسفي ومحمد عبدالوليّ وعلي المقري ووجدي الأهدل وبشرى المقطري وحكم على الكاتب عبدالجبار سعد بالجلد وحبس الكاتب صالح البيضاني وطورد وهدّد آخرون.

ودشنت مظاهر واسعة لتديين الجامعات على الطريقة السلفية الوهابية الإخوانية الطالبانية تم من خلالها ترهيب وضرب وفصل الكثير من الطلاب والطالبات ومنعت الحفلات وكسرت أدوات الموسيقى واعتبرت مناهج علم الاجتماع والفلسفة والتاريخ والآداب بشكل عام مناهج كفرية.

بموازاة ذلك كان إرث التصوف يستهدف بشكل مريع فتم هدم آلاف الأضرحة وطال العبث والحرق آلاف المخطوطات وهدمت مساجد أثرية لا لشيء سوى الرغبة في استبدال النسق المرتبط بها كون الاجتثاث أمر يسهّل مهمة الاستزراع. كما استهدفت رموز أثرية للمذهب الإسماعيلي ومورس الضغط والترغيب والترهيب على أسر العلم بهدف خلخلة المذهبين القارين الشافعي والزيدي واستبدالهما فاشتغلت فتاوى التكفير والتبديع وشهدت مئات المساجد معارك اقتلاع للقائمين عليها سالت بسببها الدماء ودنّست بها بيوت العبادة.

وفي خط ثالث تم حذف حصص الموسيقى في المدارس واستبدل في أكثرها النشيد الوطني بأناشيد الإخوان المسلمين، واستبدل تصفيق الاستحسان بالتكبير والمسرح بالمبيت في المساجد، وتم تغيير مظاهر الأعراس فدشنت جهود واسعة لخنق الفنون الشعبية المرتبطة بالأعراس من أزياء وزينة ورقص وغناء وموسيقى وأطاحت الهجمة الهوجاء بدور السينما حتى أغلقتها عن بكرة أبيها وتمت محاصرة الحواضن التقليدية لكل

في مطلع السبعينات من القرن العشرين شهدت صنعاء مظاهرة احتجاجية قادها الشيخ عبدالمجيد الزنداني تستنكر إقدام الحكومة على التفكير في إنشاء أول جامعة في شمال اليمن. وكانت حجة المحتجين أنها ستكون حاضنة لتعليم الكفر ومرتعاً للاختلاط والفساد الأخلاقي. وكان ذلك في وقت تزخر فيه صدور النخبة التنويرية بتطلعات وطموحات لا حدود لها

تلك المظاهر حتى أوشكت أن تلفظ أنفاسها وقطع دابر الزيّ النسائي الذي يتميز بالعراقة والتنوع وتم تثبيت بديل واحد عنه يفتقر للجمال وتنقصه أنفاس الحياة.

وحين أوقف الحوثيون سنة 2004 حفلاً موسيقيا في مسرح الهواء الطلق بحجة أنه يسيء إلى صنعاء القديمة كان التياران الضد (السلفية الوهابية والإخوان) قد تكفلا بتدمير كل جميل في التراث وقتلا كل تبازغات الحداثة في المجتمع اليمني بل كانا قد انتقلا منذ أمد إلى ممارسة الإرهاب المسلح وارتبطا بالقاعدة وبأجندة السلطة والقوى الخارجية وكان قد تم اغتيال مصفوفة من الرموز السياسية والثقافية اليمنية وكانت قد صدرت فتاوى تكفّر معظم اليمنيين، بدأت بتكفير الجنوب كله سنة 1994، وكان زمن السياحة قد انتهى ومرغت سمعة اليمن في التراب وأفقر الملايين من أبناء الشعب اليمني نتيجة شره المكونات الإرهابية للسلطة والمال ورغبتها في تدمير كل ما ومن يقف في طريقها.

وأصبح مألوفاً أن تبث وسائل الإعلام خطبة لشيخ «يقف أمام حشد من أنصاره وأتباعه يؤجج في أرواحهم غريزة العدوان ويهيئهم كقتلة لكن بدم بارد دون أن ينتابهم أي شعور بالذنب أو الخطيئة، فهم يبدون في حالة حماسية عالية وفي حالة استعداد تام لحرب أو غزوة مقدسة» (الحمامصي، محمد، نكوص العقل الأصولي أصل الإرهاب ومنبع التطرف، صحيفة العرب - لندن/العدد: 10065، بتاريخ 2015/10/13م، ، ص6).

إنه مشهد تباركه السلطة ولم يعد المواطن العادي يرى فيه خطراً على الأمن والقانون وهيبة الدولة والاستقرار وقيم السلم والتعايش، فالمشهد ليس إلا لقطة من تنميط طويل الأمد على النموذج الأفغاني اعتاده اليمنيون منذ ثمانينات القرن العشرين وهو استنساخ وتوأمة طالبانية وتمهيد للقاعدة ومن ثم داعش وأخواته ولما يستجد بعدها.

وحين نجوت شخصياً من حادثة التفجير الانتحاري في ميدان التحرير بصنعاء

نور بهجت المصري

صباح التاسع من أكتوبر 2014 حيث لم يكن بيني وبين المكان أكثر من مئتي متر وكان يفترض أن أقطعه راجلاً، كان تاريخ الإرهاب قد اكتمل وكان الصراع قد تحول إلى حرب مكشوفة، وكان هدف تخريب الدولة قد تحقق وهو واحد من أهم أهداف الإرهاب بل هو في الصميم من معتقدات منتجيه.

ستسألون أين دور المثقف وأين دور الثقافة في المواجهة؟ الجواب أن محاولات الكتاب والمثقفين والفنانين في التصدي لهذه الكارثة كانت تواجه من جهة بقمع شديد تقوم به تلك التيارات مسنودة بالسلطة، ومن جهة أخرى فإن الكيان المؤسسي الذي يؤطر مثل هذه المحاولات كان غائباً، وإن وجد فهو هش قليل الحيلة إزاء استفحال غول الإرهاب واستقوائه بالسلطة والقبيلة، ولعل أهم محاولات الوقوف في وجه هذا الكائن متعدد الأذرع كانت تتمثل في صحيفة الثقافية فقد واجهت هذه الصحيفة مظاهر الإرهاب قدر استطاعتها وتعرّض رئيس تحريرها وأكثر كتابها للتكفير وظلت عرضة لحملات التشهير والمحاكمات المتلاحقة حتى تم إيقافها، وقد نشر الكاتب عبدالرحمن غيلان كتاباً بعنوان «الجماعات الدينية وتكفير المثقفين -صحيفة الثقافية اليمنية نموذجاً» وهو يوثق الأسباب والدوافع ومظاهر الصراع التي أدت إلى تكفير ومحاكمة صحيفة الثقافية اليمنية ورئيس تحريرها ومجموعة من المثقفين مطلع القرن الحالي من خلال رصد أنشطة التوجهات الدينية المتشددة في اليمن بأخلاطها السلفية والإخوانية وتحالفاتها المسنودة بقوة المخترقين للدولة والقبيلة من أجل الهيمنة الرقابية القائمة على حسّ المصادرة واحتكار التقييم الكامل لما يجب أن يُكتب أو يُناقش أو يُعرض من إبداعٍ وثقافةٍ وفنون. ويعتبر هذا الكتاب التوثيقي الهام كاشفاً لمرحلةٍ تنامى في ظلالها التدخل السافر من الجماعات الدينية في حرية الناس وتشكيل ما يُشبه اللوبي في الجهات القائمة على أمر التعليم والثقافة والفنون والإعلام ومنابر المساجد كان الهدف منه التحكم في كلّ مجريات الحياة الثقافية والإبداعية، ووضع اختيارات الناس تحت مجهر التحكم.

وقد توقف طويلاً أمام إشكالية التكفير في علاقة الجماعات الدينية بالمثقفين من خلال قراءة ربط فيها بين وعي

اليمن كله كان في صف الإرهاب، وكانت المؤسسة الرسمية بكل تجلياتها تسانده، وكان المثقف وحيداً عارياً إلا من كلمة معظم من يقرأونها يعتبرونه مجرد مسخ مارق يقف ضد الدين وضد حراسه الأمناء. لذلك كله كان البقاء مجرد بقاء المثقفين والكتاب والمبدعين على قيد الحياة هو ملحمة نجاح تستحق الاحتفال بها

الماضي والحاضر تحت سقف الحرية في سياقات سلط خلالها الضوء على العلاقة الملتبسة للجماعات الدينية بالدين ووعيها القاصر بالعمل الثقافي وتعاطيها السلبي مع مفهوم الحرية، وقدم عرضاً واسعاً لحروب ثقافية قادها الإخوان المسلمون في اليمن بهدف كسر شوكة البارزين من المثقفين والكتاب والمبدعين وأهمها المعركة التكفيرية التي قادها الشيخ عبدالمجيد الزنداني ورجال دين آخرون ضد صحيفة الثقافية. هناك أيضاً كتب قليلة حاولت فضح الإرهاب وسلوكياته منها كتاب «أقلام وهراوات» للكاتب صالح البيضاني وهو كتاب يرصد تاريخ المصادرات والترهيبات والتعسّفات التي طالت الكتاب في قرون ماضية ويقارنها بما يحدث في عصرنا من استفحال لهذه الظاهرة مبرزاً التضحيات التي قدمها أهل القلم على مذبح الحرية والتنوير، أما كتاب «عودة العقل» الصادر للكاتب عصام القيسي فهو مقالات متفرقة تؤكد على ضرورة العقل كواعية للتفكير وناقد للظلام والجهل والدكتاتورية والإرهاب، وهناك كتابات متفرقة لكتاب مثل عبدالباري طاهر وعبدالكريم الرازحي ونبيل سبيع وقادري أحمد حيدر وغيرهم واجهوا هذه الظاهرة متعرضين لصنوف الأذى عارفين أن شروط الواقع تجعل كتاباتهم دون جدوى، كذلك أقيمت عديد الندوات بمبادرات من منظمات المجتمع المدني لعل أهمها «ندوة الفكر في مواجهة التكفير» أبريل 2013، وهناك أعمال فنية مثل فيلم «الرهان الخاسر» للمخرج فضل العلفي، وفيلم «الضحية» للمخرج عماد دلاق وغيرها من الأعمال التي كانت تحاول أن تفعل شيئاً رغم الفقر وقلة الحيلة والحصار والخوف كون المبادرات بلا روافع، ولأن السلطة والمال والعسكر والقبيلة في اليمن كانت كلها في صف الإرهاب، وكانت المؤسسة الرسمية بكل تجلياتها تسانده، وكان المثقف وحيداً عارياً إلا من كلمة معظم من يقرأونها يعتبرونه مجرد مسخ مارق يقف ضد الدين وضد حراسه الأمناء. لذلك كله كان البقاء مجرد بقاء المثقفين والكتاب والمبدعين على قيد الحياة هو ملحمة نجاح تستحق الاحتفال بها.

كاتب من اليمن

الإصلاح الديني والتنمية الاقتصادية

ناجح العبيدي

في تهديد ضمني دأب الكاتب الإسلامي محمد عمارة على الحديث عمّا يعتبره تضخّما في حصة الأقباط المصريين في ثروة البلاد ومشاريعها الاقتصادية الضّخمة، وبما يفوق كثيرا نسبتهم العددية في إجمالي السكّان. ففي كتابه «الإسلام والأقليات» المنشور سنة 2003 يشير عمارة إلى أن الأقباط يملكون «22.5 بالمئة من الشركات التي تأسست ما بين سنة 1974 وسنة 1995 و20 بالمئة من شركات المقاولات في مصر و50 بالمئة من المكاتب الاستشارية.. ويمثلون 20 بالمئة من رجال الأعمال المصريين».

بعيدا عن مشاعر الحسد الواضحة وروح التحريض ضد مسيحيي مصر والتعامل مع النجاح الاقتصادي وكأنه جريمة، كان الأحرى بالكاتب الإسلامي أن يتساءل ما إذا كانت هناك علاقة بين الدين وبين السلوك الاقتصادي؟ وهل يمكن للقيم الدينية أن تكون أحد الأسباب التي تفسر هذا الدور الرائد للأقلية المسيحية في قطاع الأعمال المصري؟ بطبيعة الحال لا تكفي الأرقام التي يوردها الكاتب الإسلامي للإجابة على هذا السؤال والتي تتطلّب دراسات ميدانية معمقة وحيادية. مع ذلك يشير محمد عمارة بالفعل إلى ظاهرة لافتة للنظر لوحظت أيضا في بلدان عربية أخرى، منها العراق مثلا حيث كان جزء كبير من الأسماء اللامعة في عالم الأعمال والشركات خلال فترة تأسيس الدولة العراقية الحديثة ينتمون للأقليّتين اليهودية والمسيحية. صحيح أن هذه الظاهرة تكون عادة نتاجا لعوامل متنوعة، لكن مثل هذا التباين في السلوك والأداء الاقتصادي لجماعات تنتمي لأديان مختلفة توصّلت إليه أيضا دراسات وأبحاث في العديد من بلدان العالم. وإذا كان هذا الاختلاف يُلاحظ بين الجماعات الدينية داخل البلد الواحد، فإن الفروق تبدو أوضح عند مقارنة مجتمعات تسود فيها مرجعيات دينية مختلفة الأمر الذي يؤكد أن العوامل المادية لوحدها غير قادرة على فهم العمليات والسلوكيات الاقتصادية.

حظي هذه التباين باهتمام الكثير من علماء الاقتصاد والاجتماع على مدى عقود طويلة. في كتابه الصادر في عام 2017 بعنوان «حكام ودين وثروات: لماذا أصبح الغرب ثريا وعجز الشرق الأوسط عن ذلك» (Rulers, Religion and Riches: Why the West Got Rich and the Middle East Did Not) يرى المؤرخ الاقتصادي الأميركي جاريد روبن أن السبب الرئيسي لتخلّف العالم الإسلامي اقتصاديا بالمقارنة مع الغرب يكمن في طبيعة العلاقة بين الدين والدولة. ففي حين نجحت أوروبا بعد حركة الإصلاح الديني في أوائل القرن السادس عشر في فك الارتباط بين الدين والسياسة، وبالتالي في إقامة نظم سياسية تشجّع التجارة وتحفّز التقدم الاقتصادي، بقي الحكام المسلمون بحسب وجهة نظر جاريد روبن يستمدّون شرعيتهم من الدين الأمر الذي أدى إلى تراجع دور المصالح الاقتصادية. من الواضح أن جاريد روبن متأثّر إلى حد كبير بأفكار عالم الاجتماع الألماني الشهير ماكس فيبر (1864-1920)، وإن كان روبن يحاول أن ينأى بنفسه بعض الشيء عن نظرية فيبر. في عام 1904 أصدر فيبر كتابه المعروف «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» والذي حاول فيه أن يجيب على السؤال الذي حيّر مفكرين كثيرين: لماذا نشأت الرأسمالية في غرب أوروبا وليس في الصين أو الهند أو العالم الإسلامي؟ ولماذا حدثت الثورة الصناعية وتراكم رأس المال في هذا الجزء من العالم؟

بخلاف كارل ماركس الذي يرجع التطور في نهاية المطاف إلى العلاقة بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ويؤكد على أولوية القاعدة الاقتصادية على ما يدعوه بالبناء الفوقي (الفكري)، أعاد فيبر الاعتبار إلى العوامل الثقافية بمعناها الأشمل، وبما فيها العقائد الدينية. بعد الضجة الكبيرة التي أثارها كتابه المذكور أعطى فيبر اهتماما استثنائيا لعلم اجتماع الأديان والذي يعتبر مؤسسه الحقيقي، وذلك من خلال تطبيق نظريته على الأديان الأخرى مثل اليهودية والبوذية والهندوسية والإسلام.

ينطلق ماكس فيبر، وكما فعل بعده بأكثر من 100 عام جاريد روبن، من حركة الإصلاح الديني التي أطلق شرارتها

نور بهجت المصري

القس الألماني مارتن لوثر في الـ31 من أكتوبر 1517 عندما علّق أطروحاته الخمس والتسعين باللغة اللاتينية على بوابة كنيسة مدينة فيتنبيرغ الألمانية. لم يكن الدافع وراء نشر هذه الرسائل الموجهة لقيادة الكنيسة الكاثوليكية الألمانية دينيا بحتا فقط وإنّما كان أيضا اقتصاديا وماليا، وذلك لأنها تضمّنت نقدا لاذعا لتجارة صكوك الغفران السائدة آنذاك في أوروبا الكاثوليكية حيث كان المؤمنون «يشترون» مغفرة الربّ لذنوبهم من خلال اقتناء هذه الصكوك. ويرى

علاء شرابي

العديد من المؤرّخين أن الأمراء الألمان المحليين دعموا حركة لوثر لأن الجزء الأعظم من عائدات تجارة صكوك الغفران كان يتسرّب من مقاطعاتهم ويذهب إلى روما مركز الكنيسة الكاثوليكية. مهما كانت الدوافع يبقى نشر هذه الرسائل قبل 500 عام حدثا تاريخيا بالمعنى الحقيقي للكلمة لأنه أطلق حركة تغيير وجدل واسعة تجاوزت جدران الكنيسة وشملت المجتمع والسياسة والثقافة والاقتصاد.

في تلك الحقبة عاش أيضا المصلح الديني السويسري من أصل فرنسي جان كالفن (1509-1564) الذي انتشرت تعاليمه الدينية عن القدر وأخلاقيات الزهد وقيم الجد والمثابرة وفصل الكنيسة عن الدولة في هولندا وسويسرا وبريطانيا وانتقلت لاحقا إلى العالم الجديد أميركا الشمالية. ففي الولايات المتحدة الأميركية لقيت الكالفينية التي اعتبرها فيبر أكثر جذرية من اللوثرية، أرضا خصبة وسط الأغلبية البروتستانتية وأنجبت أتباعا متحمّسين من بينهم السياسي والكاتب ورجل الأعمال العصامي بنيامين فرانكلين (1706- 1790)، الذي لعب دورا رئيسيا في تأسيس الدولة الجديدة وصياغة إعلان الاستقلال الأميركي. ومن خلال اقتباس نص طويل نسبيا لبنيامين فرانكلين حاول فيبر أن يوضّح ماذا يقصد بـ«روح» الرأسمالية الحديثة والتي يلخّصها في وجود عقلية (ثقافة) تحبّذ الجدية والانضباط والنزاهة والسلوك العقلاني والنفعية والحرص على كسب المال وتستهجن التبذير والكسل وإضاعة الوقت وتنظر لتعظيم رأس المال كهدف بحد ذاته.

بحسب فيبر فإن هذه العقلية كانت نتاجا لعملية تربوية طويلة الأمد لعب فيها الدين دورا كبيرا، وانعكست على سلوك رجال الأعمال والحرفيين والعمال على حدّ سواء، وأدّت إلى نشوء مشاريع ومؤسسات تُدار بطريقة غير تقليدية. بطبيعة الحال لم يكن هدف فيبر من ذلك عرض صورة وردية للرأسمالية، وإنما أشار أيضا بوضوح إلى مظاهر الجشع والاستغلال الفاحش للعمال في الرأسمالية. غير أنه رأى فيها سلوكا لا يتفق مع العقلانية الاقتصادية التي تتميز بها الرأسمالية الحديثة بحسب مفهومه.

يبدأ ماكس فيبر كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» بملاحظة تشبه ملاحظة محمد عمارة بخصوص الأقباط المصريين في كتابه المذكور. فيبر أيضا يشير إلى اهتمام الصحافة والمنظمات الكاثوليكية في ألمانيا بحقيقة أن البروتستانت يساهمون في الحياة الاقتصادية وفي ملكية رأس المال بحصة تفوق كثيرا نسبتهم السكانية.

بخلاف كارل ماركس الذي يرجع التطور في نهاية المطاف إلى العلاقة بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ويؤكد على أولوية القاعدة الاقتصادية على ما يدعوه بالبناء الفوقي (الفكري)، أعاد فيبر الاعتبار إلى العوامل الثقافية بمعناها الأشمل، وبما فيها العقائد الدينية

لكن فيبر، وبعكس عمارة، لا يستغل ذلك لتأجيج المشاعر الطائفية وإنما لبحث تأثير الانتماء الديني (الطائفي) على السلوك الاقتصادي للجماعات ولتفسير أسباب الفارق الكبير في مستوى التطور الاقتصادي بين شمال ألمانيا ذي الغالبية البروتستانتية وبين الجنوب الكاثوليكي للبلاد في تلك الحقبة.

ومن اللافت للنظر أن هذه الهوة بين الجنوب والشمال تمكن ملاحظتها في أوروبا حتى يومنا هذا. وممّا أثار استغراب فيبر هو أن أتباع الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا كانوا أقلية (أقل من ثلث السكان) في بداية القرن العشرين. ولهذا يتساءل عن سبب عدم تصرف الكاثوليك كما تفعل عادة الأقليات في بلدان عديدة حيث يدفعها التمييز بحقّها وعزلها كرها أو طواعية عن المناصب السياسية في الدولة لمحاولة تعويض ذلك عن طريق التفوق في المجال الاقتصادي والتجاري. بناءً على بيانات إحصائية وأبحاث ميدانية قدم بعضها طلابه توصل أستاذ الاقتصاد فيبر إلى أن القوى الدافعة لتطور الرأسمالية بشكلها الحديث الذي ازدهر في أوروبا الغربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ترتبط بشكل وثيق بالذهنية البروتستانتية، وبشكل خاص صيغتها الكالفينية التي تدعو لتبنّي قيم ومعايير وسلوكيات عقلانية تمجّد التفاني في العمل والتقشف والانضباط واحترام الملكية الخاصة وتراكم رأس المال وترفعها إلى مصاف العبادة والتقرب إلى الرب الأمر الذي ساهم بدوره في انتشار مناخ فكري منفتح يشجع المبادرة الحرة والمخاطرة والإبداع والنمو.

بالنسبة إلى فيبر تستند أخلاقيات العمل البروتستانتية إلى مفهوم الحرفة أو المهنة (بالألمانية Beruf) الذي صاغه لوثر وأضفى عليه تصورا دينيا. لقد دعا لوثر أتباعه للنظر إلى المهنة وكأنها إيحاء

أو واعز وشعور داخلي طاغٍ (بالألمانية Berufung) لأداء مهمة معينة في حياتهم. وكان يردّد في عظاته بأن الرب خلق الإنسان للعمل، كما خلق الطير للتحليق.

كانت هذه النظرة أشبه بتمرّد على تعاليم العهد القديم التي ترى في العمل شرّا لا بد منه وعقوبة من الرب لآدم عندما خاطبه بعد أن عصى أمره وأكل من ثمر الشجرة المحرمة «ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل» (سِفر التكوين، الإصحاح الثالث). مع حركة الإصلاح أعاد لوثر الاعتبار للعمل مهما كان بسيطا واعتبر تأديته فريضة دينية ووسيلة لخدمة الربّ والتقرّب إليه. في نفس الوقت نأى فيبر بنفسه بوضوح عن الفكرة السائدة حينذاك بأنّ تقلّد منصب ديني كراهب أو راهبة يلقي تقديرا أكبر من الرب مقارنة بالأعمال الدنيوية العادية. ولم يتردّد لوثر مثلا في القول بأن عمل المرأة في البيت أكثر قيمة من تحمل مشاق الحج أو التبرع لبناء كنيسة. بهذا لم تعد المهنة امتهانا وإنما رمزا للمكانة الاجتماعية والدينية.

تبدو هذه الأفكار بأوضح أشكالها لدى المصلح السويسري كالفنّ الذي قام بإعادة صياغة ما يدعى بعقيدة القدر المسيحية التي ترى بأن الربّ يحدّد منذ الولادة قدر الإنسان ومصيره وأنه يقرّر سلفا الخلاص لبعض البشر واللعنة الأبدية للبعض الآخر. لكن ما يبدو استسلاما للقضاء والقدر أعاد كالفن تفسيره من خلال القول بأن الإنسان الذي لا يعرف لأيّ طرف ينتمي، يمكن أن يستشف ذلك عبر نجاحه في الحياة. بهذا يصبح التفوق في العمل وفي ممارسة المهنة على الأرض المؤشر الوحيد للخلاص في السماء. فمن يفوز بالدنيا الفانية مرشّح أكثر من غيره للفوز بالآخرة، أو بكلمات تشبه المعني الوارد في القول المنسوب للإمام علي بن أبي طالب «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

بناء على ذلك رأى كالفن في تدبير الإنسان لقوته عبادة وشيئا مقدسا وليس عقابا من الرب. ودعا أتباعه للعمل بجدّ والعيش بتواضع لأنه كلما كان النجاح على الأرض أكبر كانت فرص الخلاص في السماء أحسن، الأمر الذي يتطلب التصرف بعقلانية وذكاء وإعطاء الأولوية للعمل بدلا من الانغماس في متع الحياة. لكن ماذا يفعل البروتستانتي بهذه الثروة المتراكمة التي تغري بحياة باذخة؟ هنا

يؤكد فيبر بأن الدافع الشخصي للكسب ولتحقيق الأرباح موجود في كل المجتمعات ولا يقتصر على حضارة دون أخرى، ولكن القضية بالنسبة إليه «تتعلق بالظروف التي تجعل من هذا الدافع شرعيا وعقلانيا بحيث يخلق كيانات عقلانية كالتي نراها في المشاريع الرأسمالية»

يجيب كالفن «ليس من الخطيئة أن يكون المرء ثريا ولكن فقط منْ يخلد للراحة اعتمادا على ماله ومن يسيء استخدامه لإشباع رغباته الآثمة يقع في الخطيئة».

من هنا يرى فيبر بأنّ روح الرأسمالية تحتاج لفضيلتين هما: الإرادة القوية للعمل وإعلاء شأن الزهد وحياة التقشف كما تفعل الكنائس الإصلاحية. فقد انتقد لوثر حياة الرهبنة في الأديرة واعتبرها نوعا من التكبّر المستتر، وأكد في الوقت ذاته على أهمية الورع الديني الداخلي. ثم جاءت التعاليم الكالفينية لتشدد على مبدأ التنسك والحياة العصامية والنزعة التطهيرية. غير أن رجل الأعمال الناجح من وجهة النظر الكالفينية لا يكتفي بتجنب التبذير والإفراط في الاستهلاك والتركيز على الادخار فحسب، وإنما يقوم أيضا باستثمار أرباحه وتعظيم رأسماله الأمر الذي يشكل أهمّ لبنة لقيام مشاريع ومؤسسات كبيرة تُدار بطريقة عصرية والتي لا يعتبرها فيبر شرطا لتطور اقتصاد السوق فقط، وإنما أيضا إحدى السمات الجوهرية للرأسمالية الحديثة.

ولهذا يؤكد فيبر بأن الدافع الشخصي للكسب ولتحقيق الأرباح موجود في كل المجتمعات ولا يقتصر على حضارة دون أخرى، ولكن القضية بالنسبة إليه «تتعلق بالظروف التي تجعل من هذا الدافع شرعيا وعقلانيا بحيث يخلق كيانات عقلانية كالتي نراها في المشاريع الرأسمالية». هنا بالذات يرى فيبر ميزة للبروتستانتية بالمقارنة مع المذاهب والأديان الأخرى، ومنها الإسلام الذي يحضّ كما هو معروف على الإنفاق ويذم الادخار، الشرط الأهم لقيام مشاريع حديثة.

يندرج ضمن هذا السياق الموقف من الفائدة على القروض. صحيح أن مارتن لوثر كان يلعن الربا وفقا للتعاليم المسيحية السائدة حينذاك ويرى فيه تجسيدا للجشع والاستغلال، إلا أنه كان يتساهل مع بعض أشكال الفائدة ونفى عنها صفة الربا شريطة أن تكون بين طرفين متكافئين وألاّ تزيد عن ستة بالمئة. ثم جاء تلميذه كالفن المقيم في جنيف ليخطو خطوة أبعد من ذلك من خلال إباحة أخذ الفوائد بشكل عام في الصفقات المالية، لكنه أيضا اعتبر نسبة 5 بالمئة مؤشرا على عدالة الفائدة. بيد أن أهم ما توصل إليه كالفن هو تفنيده لنظرية أرسطو القائلة بأن النقود عقيمة ولا تتكاثر والتي تغلغلت إلى جميع الأديان تقريبا. في المقابل بقيت الكنيسة الكاثوليكية متمسّكة بنصوص الإنجيل التي تحظر الفائدة حتى عام 1830 عندما قام البابا بيوس الثامن بإلغائها من الناحية الرسمية على الأقل. ومن المؤكد أن السبق في إلغاء حظر الفائدة في المناطق البروتستانتية ساعد في تطوير القطاع الائتماني وبالتالي ولادة الرأسمالية الحديثة.

من جهة أخرى وقف المصلحون الدينيون ضد الإكثار من المناسبات والعطل والأعياد الدينية من قبل الكنيسة الكاثوليكية، إذ تشير المصادر التاريخية إلى أن البابا غريغوري التاسع (1145-1241) قرر في عام 1232 زيادة عدد العطل الدينية إلى 85 يوما لكي «يتفرغ» البشر للتقرب من الرب. هذه الظاهرة في القرون الوسطى (التي تُذكّر بما يحدث في يومنا هذا في العراق حيث تتوقف الحياة لعشرات الأيام لإحياء ذكرى مصرع الإمام الحسين وأربعينيته وذكرى وفاة بقية أئمة الشيعة وغيرها من المناسبات الدينية) حاربها لوثر من خلال التأكيد على أن يوم الأحد هو يوم الاستراحة الوحيد للرب والعباد، بل وذهب إلى القول بأن أيام العمل هي الأيام المقدسة حقا.

إلى جانب إعلاء شأن المهنة والعمل يشير فيبر أيضا إلى أن اهتمام البروتستانت بالتعليم كان أكبر مقارنة بأتباع المذاهب الأخرى. ويعود ذلك أيضا إلى عوامل تاريخية. فمن المعروف أن لوثر أشرف بنفسه في النصف الأول من القرن السادس عشر على ترجمة الإنجيل بقسميه العهد القديم والجديد. وبخلاف رجال الدين الكاثوليك الذين وقفوا على مدى قرون ضد ترجمة الإنجيل ورأوا فيها تهديدا لسلطتهم على العامة كان المصلح الكبير يعتقد بأن المؤمن العادي قادر على قراءة الإنجيل وفهم معانيه. وترافق ذلك مع تطوّر فنّ الطباعة الأمر الذي ساهم في انتشار الكتب وتحسين مستوى التعليم. ويشير ماكس فيبر في مقدمة كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» بشكل خاص إلى انخفاض نسبة الطلبة والتلاميذ الكاثوليك في

كما أن هذا الواقع الجديد المخالف لنظرية فيبر يشير أيضا إلى أن المرجعيات الثقافية وبما فيها الأفكار الدينية وموقفها من النشاط الاقتصادي ليست خالدة وثابتة كما يتصوّر البعض، وإنما تخضع لمنطق التغيير مثلها مثل المكوّنات الأخرى للثقافة الجمعية للمجتمع

التعليم العالي والمهني مقارنة بنسبتهم السكانية. غير أنه لا يرى ذلك بالدرجة الأولى نتيجة لضعف دورهم في النشاط الاقتصادي وإنما كسبب له. وعزا ذلك إلى أن العوائل البروتستانتية تبدي حرصا أكبر على توفير التعليم والتأهيل لأبنائها، وخاصة في مجال الدراسات التقنية والمهن التجارية الأمر الذي أدى بدوره إلى تعزيز ريادتهم لقطاع الأعمال.

هناك جانب آخر لا يرتبط مباشرة بأخلاقيات العمل ولكنه يؤثّر على الظروف العامة المحيطة بعملية التنمية الاقتصادية، ألا وهو العلاقة بين الدين (الكنيسة) والدولة. من المؤكد أن تحرّك لوثر جاء أيضا احتجاجا على السلطة الدنيوية للكنيسة الكاثوليكية التي كان الكثير من أساقفتها يتصرّفون كرجال دولة ويخوضون الحروب ويحيكون الدسائس ضد منافسيهم. لم يتحدث لوثر صراحة عن فصل الدين عن الدولة ولكنه أشار إلى وجود مملكتين، ملكوت الرب وملكوت العالم، ما يعني الكنيسة والدولة. ولكلّ منهما ناسه وسلطاته وقيادته. ينطوي هذه التفريق على رفض واضح للدولة الدينية. وهو ما يراه الكثير من المؤرخين خطوة هامة على طريق تكريس مبدأ فصل الدين عن الدولة لاحقا في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية. وإذا كان هذا المبدأ لا غنى عنه لحرية العقيدة وإقامة نظام ديمقراطي فإنه يوفّر أيضا شروطا ملائمة لازدهار اقتصاد السوق ولنشوء فئة من رواد الأعمال وأصحاب المبادرات بعيدا عن السطوة المطلقة للدولة.

بيد أن ماكس فيبر وعلى الرغم من تمسكه بنظريته القائلة بوجود علاقة قرابة بين جوهر العقيدة البروتستانتية وروح وثقافة النظام الرأسمالي، إلاّ أنه كان بعيدا كل البعد عن التعصب لتعاليم مارتن لوثر، لا سيما وأن هذه الشخصية التاريخية تتضمن، وباعتراف الكنيسة البروتستانتية نفسها اليوم، جوانب مظلمة، ومنها معاداة السامية التي وظفها النازيون لاحقا لتبرير أيديولوجيتهم الشوفينية. كما نبه فيبر إلى أن تأكيده على دور أفكار لوثر في التمهيد لقيام الرأسمالية لا يعني القبول بجميع مواقفه

علاء شرابي

وآرائه الدينية والاجتماعية المحافظة. ولهذا تضمن عرض فيبر الكثير من الانتقادات لأفكار لوثر. فهو يقول مثلا بأن «البروتستانتية القديمة للوثر وكالفن ليس لها أي علاقة بـ'التقدم' كما نفهمه حاليا» ويضيف في موضع آخر بأن «لوثر وتلك الأوساط الكنيسية، التي تمجد بحماس عملية الإصلاح الديني ليسوا هم اليوم أصدقاء للرأسمالية بأيّ معنى من المعاني». من هنا يمكن القول بأن فيبر يرى بأن المصلحين الدينيين أطلقوا عملية تجاوزت لاحقا الأهداف التي رسموها لتحرّكهم.

من جهة أخرى يشدّد فيبر دائما على أن الترابط بين البروتستانتية والرأسمالية لا يعني بأن تعاليم البروتستانتية في تلك الفترة كانت أكثر انفتاحا أو أقل تزمتا من الكاثوليكية، ولا يعني ذلك أيضا بأن البروتستانت كانوا أقل تمسكا بتعاليم مذهبهم. ويشير فيبر مثلا إلى أن ما يلفت النظر لدى رجال الأعمال التابعين للحركة التّقويّة (Pietism) البروتستانتية والناجحين اقتصاديا هو «جديتهم المُفرطة والتي لا تعبّر عن سعادة بالحياة الدنيوية وإنما عن موقف ديني صارم». في هذا المجال يقتبس فيبر عبارة شهيرة لرائد التنوير الفرنسي مونتيسكيو (1689-1755) «لقد تفوقَ الإنكليز على جميع شعوب الأرض في ثلاثة أشياء: التقوى والتجارة والحرية». بهذا أراد فيبر أن يقول بأنه لا يوجد تعارض من حيث المبدأ بين التديّن وبين العقلانية الاقتصادية ومبادئ الديمقراطية، بل على العكس يمكن للتديّن في ظل ظروف معينة أن يشكل دافعا قويا لتطور اقتصاد السوق كما فعلت الكالفينية في كثير من البلدان، وبالتالي التمهيد لقيام نظم ديمقراطية. من جانب آخر لا يمكن القول بأن فيبر نظر إلى أخلاق العمل البروتستانتية بصفتها العامل الوحيد لذلك، وإنما كان يؤكد على تنوع العوامل وتفاعلها. غير أنه رفض أيضا النظر إلى نشوء الرأسمالية الحديثة كحتمية تاريخية، كما تُبشّر بذلك المادية التاريخية التي تُرجع قيام علاقات إنتاج رأسمالية إلى تطور قوى الإنتاج. وفيما عارض بشدة إعطاء الأولوية للعوامل المادية والاقتصادية في تفسير التطور التاريخي شدد فيبر في الوقت نفسه على أن المؤرخ وعالم الاجتماع لا يمكن أن يستغني عن هذه العوامل.

منذ صدور كتاب «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» قبل أكثر من 110 أعوام جرت مياه كثيرة ونجحت بلدان ذات مرجعيات حضارية ودينية مختلفة في اكتشاف «روح» الرأسمالية من جديد وفي تقديم تجارب تنموية متميزة. لا ينطبق ذلك على اليابان وكوريا الجنوبية وهونغ كونغ والصين وربما الهند قريبا فحسب، بل حتى في مسقط رأس ماكس فيبر ألمانيا أصبحت الآن الآية معكوسة لأن الولايات الجنوبية ذات الأغلبية الكاثوليكية تتفوّق على الولايات ذات الطابع البروتستانتي في الشمال في مضمار التقدم والابتكار وفي معدّلات النموّ الاقتصادي ومستوى المعيشة. غير أن ذلك لا يدحض نظرية ماكس فيبر لأن هذه التجارب الرأسمالية الناجحة لن تغيّر من حقيقة أن «روح الرأسمالية الحديثة» نشأت لأول مرة في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية، فيما تبقى التجارب الأخرى في نهاية المطاف تقليدا للحضارة الغربية في مجال التنمية الاقتصادية ولم تنجح حتى الآن في تقديم نموذج بديل وناجح على المدى الطويل.

كما أن هذا الواقع الجديد المخالف لنظرية فيبر يشير أيضا إلى أن المرجعيات الثقافية وبما فيها الأفكار الدينية وموقفها من النشاط الاقتصادي ليست خالدة وثابتة كما يتصوّر البعض، وإنما تخضع لمنطق التغيير مثلها مثل المكوّنات الأخرى للثقافة الجمعية للمجتمع.

وبغض النظر عن الجدل المستمر حول منهج فيبر يمكن لإحياء الذكرى الخمسمئة لانطلاق حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وبلدان أخرى أن تشكل أيضا حافزا لدراسة العلاقة بين التعاليم والفرائض الدينية وبين التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي، لا سيما وأنه فشل حتى الآن في تقديم تجربة تنموية متميزة على المستوى العالمي.

بغض النظر عن الجدل المستمر حول منهج فيبر يمكن لإحياء الذكرى الخمسمئة لانطلاق حركة الإصلاح الديني في ألمانيا وبلدان أخرى أن تشكل أيضا حافزا لدراسة العلاقة بين التعاليم والفرائض الدينية وبين التنمية الاقتصادية في العالم الإسلامي، لا سيما وأنه فشل حتى الآن في تقديم تجربة تنموية متميزة على المستوى العالمي

كاتب من العراق

الأصالة والمثاقفة

التنوع الثقافي وحوار الحضارات

عامر عبدزيد الوائلي

ثمّة حاجة إلى منهج ورؤية يمكن أنْ نمارس من خلالهما «القلب» الكامل لهذا السرد المتشائم للمستقبل، فمنذ أوائل القرن ظهرت فلسفات متشائمة حول المسار التاريخي للتقدم، فقد اعتقد شبنلجر أنّ الغرب أفلسَ فكرياً، وأنّ الحضارة الغربيّة صائرة إلى التدهور والانحطاط أمام تفشي النزعة الكولونياليّة والميل إلى الحروب والنزاعات، وأنّ العقلانيّة فقدت صوابها أو أنّها عقلانيّة كشفت عن حقيقتها بتحالفها مع القوة والعنف وتخلّت عن شرطها الإنساني الأخلاقي.

بعدما انهار المشروع الإقصائي الكولونيالي وظهرت بدلاً عنه عوالم جديدة سرعان ما تمّ تدجينها في عالم ثنائي القوة؛ لكن بعد ما انهار هذا العالم بدأت تظهر سيناريوهات تحاول أنْ تبني تصورات جديدة وهي تحلم بالسيطرة المنفردة على مقدرات العالم، إمّا من خلال ترسيخها الصراع بوصفه مصيراً حتمياً بدلاً عن الحوار من خلال مقولة «صراع الحضارات». وإمّا من خلال الدمج الكوني عبر تصور التطور وقد انتهى بالحضارة الغربيّة التي وصلت إلى التخوم القصوى من خلال انتصارها على الآخر، وقد خطط لهذه الحضارة المنظرون الليبراليون؛ لهذا جاءت نظريّة «نهاية التاريخ « في استعاره غريبة لمقولات هيجل الشموليّة.

إننا هنا ما توقفنا بإزاء الفضاء الذي تمّ تلقي تلك التصورات داخله «وإنما هي الأساس لكونها جاءت في وقت كان فيه العالم بأمسّ الحاجة إلى أوهام جديدة، وكونها تدين بقوتها الإقناعيّة لنفوذ المكان الذي ظهرت فيه. لذا سرعان ما تلقفتها الأفواه والأقلام، وأنهكتها الندوات والجدالات فغدت 'مفتاحاً' لفهم العصر، بل و'تفسيراً' لكل الأحداث المتأخرة. بل إننا نستطيع أن نقول إن الاجترار الإعلامي قد حوّلها إلى رأي عام وبادئ رأي كوني. إنّ هذه 'النظريّة' لم تكن تستهدف الوقوف عند حركة التاريخ بقدر ما كانت ترمي إلى صنعه ورصد آفاقه والإسهام في خلق ممكناته. فهي تدخل من ضمن آليّات جديدة أخذت تطبع عالمنا المعاصر؛ فهي لا تعد آليّات منطقيّة أو آليات أيديولوجيّة، مع ما يفترض فيها من تشويه وقلب، وإنما هي آليّات تجعل الأشياء حقيقةً بمجرد التأكيد على أنها كذلك» (في الحوار بين الثقافات والصراع بينها، عبد السلام بن عبدالعالي).

وما يستوقفنا بهذا الصدد نتيجتان تبلورتا عن هذا المخاض الفكري. أولاهما: إن الجدال حول هذه المسألة طرح أمامنا خيارين منفصلين لا ثالث بينهما، إمّا التسليم بصراع الثقافات، أو القول بالحوار بينها. وهكذا طرح الحوار مقابلاً للصراع وبديلاً عنه.

النتيجة الثانيّة: هي أنّ الصراع أو الحوار طرح بين معسكرين ثقافيين اثنين، مهما اختلفت الأسماء التي أعطيت لهما سواء أكانت التقابل بين الإسلام والغرب أم معسكر الشر بمقابل معسكر الخير.

إنّ الحوار هو الطريق السلمي الذي يبدأ بعد أن تهدأ الحروب وتسكت المدافع، وهو لا ينطوي على علائق قوة وإنما يخفي سوء التفاهم والذي من شأن تبادل الحجج أن يرفعه. بمقابل اللامعقول الذي يطبع الحروب؛ فالحوار يتحكم فيه منطق العقل. ويكفي إبداء حسن النيّة اللازم والتحلي بخصال الصدق واحترام الرأي الآخر كي يرفع سوء التفاهم ويتوصّل الطرفان المتكافئان إلى الاتفاق والوفاق والوئام (المرجع نفسه).

إلا أننا نلمس هنا أن الأمر ليس بهذه الصورة بل إنّ الأمر يخفي أشياء بقدر ما يظهر أخرى.

ما حدث لا يعدُّ صراعاً بين الحضارات... بل هو صراع الحضارة الغربيّة مع نتاجها. فانهيار الاتحاد السوفييتي لم يكن تفكك للدولة فقط، بل كان تفككاً للمعسكر الشيوعي ككل، أي كـ«عالم ثان» خصم لـ«العالم الأول». لقد كان العالم آنذاك يصنّف على ثلاثة أقسام: (العالم الأول والثاني والثالث) وما حدث هو أنّ العالم الثاني اختفى! اختفى ليس فقط كقوة، وليس فقط كنفوذ، وليس فقط كهيمنة، وليس فقط كمعين لدول العالم الثالث في كثير من الأحيان، بل اختفى أيضاً كـ«عالم» يعادي «العالم الأول»، وكرؤية ومشروع للمستقبل أيضا!(محمد عابد الجابري: الحوار بين الثقافي والسياسي).

إنّ الأمر ليس سوء تفاهم فحسب وإنّما هناك رؤيّة قصديّه تمّ بموجبها تعاضد المعرفة والقوة وقد أدّت إلى إنتاج هذا المعنى «إنّ أداة الحوار التي هي اللغة هي مرتع تناحر القوى، وميدان مفعولات السلطات. اللغة عش الاختلاف ومجال علائق القوّة». فأن تطلق الأسماء، كما يقول نيتشه «هو أن تكون سيداً». استراتيجيّة التسميّة هي استراتيجيّة هيمنة وتسلط، وتاريخ الأشياء هو تاريخ مسميات، وهو بالآتي تاريخ أسماء، وتاريخ الأسماء هو تتابع القوى المستحوذة التي تعطي المعاني وتحدِد القيّم. ذلك أن اسم الشيء ومعناه هو القوة التي تستحوذ عليه وتتملكه، فالكلمات «هي كميات من القوة في علاقة توتر، ولا يمكن للحوار الذي يوظفها وسيستثمرها إلا أن يجسد علائق القوة ومرامي الهيمنة. إذن لا يتحدد الحوار بآليّات منطقيّة ودوافع أخلاقيّة تتوقف على نزاهة المحاور وصدقه وعدم تناقضه ووفائه لما تعهد به، إنه صراعٌ مقنعٌ. والغريب أن هذه التقسيمات المانويّة تأتينا بمن يضعون أنفسهم جهة ثقافة الحداثة والعقلنة والتنوير، إلا أننا سرعان ما نتبين أنهم يصدرون في تحليلاتهم عن أوليّات لا تقل أصوليّة عما ينعتونه هم بالأصوليّات. هذا فضلا عن كونهم يستعملون آليّات أيديولوجيّة؛ لإذكاء مشاعر التفوق وممارسة أدوار الهداية وتغويل الآخر باعتباره حاملاً للعنف مسكوناً بالإرهاب» (في الحوار بين الثقافات والصراع بينها عبد السلام بن عبد العالي).

إذن هناك حاجة ماسّة إلى تعرية كل هذه الأفكار المسبقة والعمل على اختراقها وتجاوز لغة الخضوع الدعويّة القائمة على التنميط والمماثلة للمختلف عنها.

إذن ثمة حاجة إلى تأكيد الوجه المناقض له من خلال العمل على ترسيخ المختلف لغةً وفكراً إلى حد الاحتفال البهيج بالاختلاف عن هذا التاريخ للمعرفة متجاوزاً، وأن يزيح التراب عن المنسي والمغيّب ويفضح الارتباطات غير المعترف بها وأن يديم حالة اليقظة المتواصلة لعدم السماح بإنصاف الحقائق، بل العمل يتمثّل هنا في الخروج من مناخه الإشكالي أي العمل على تجاوزه معرفيّاً وأيديولوجياً/أخلاقياً متجاوزاً لتلك الإشكاليّة التي قامت عليها الحداثة يومها والتي عمّقت الأوهام الإنسانيّة والتي كانت تبرر ذاتها اعتماداً على البيولوجيا والاشتقاق اللغوي، وفي حينها ظهرت نظريّة الأعراق التي أثرت كثيراً في تبرير الهيمنة والإلحاق وبالآتي كشف التواطؤ بين المعرفة والسلطة.

كل هذا بحاجة إلى إعادة نظر من خلال قيم ما بعد الحداثة التي تعمل على إقرار الاختلاف لذا يؤكد نيتشه «ليس هناك واقعة في ذاتها. فكل ما يحصل ويتم ليس إلاّ مجموعة من الظواهر التي انتقاها واختارها كائن مؤول»، من هنا ثمّة حاجة إلى إعادة النظر بالسلوك التواصلي بين الذات والآخر من خلال الفن هذا الفن الذي يمكن نعته «بالفرحة التراجيديّة» -بلغة نيتشه- فقد عدّه الحافز الأكبر للحياة، أو «إرادة القوة» فهو يمثِل المهمّة الميتافيزيقيّة الكبرى للفن، لذا وجب «الإنصات إلى الجسد» كخيط ناظم للتأويلات الفنيّة كلها. هكذا تحدّث نيتشة عن «فيزيولوجيا وجينالوجيا الفن». وبالمقابل تجاوز اللغة الإخضاعيّة التي تقوم على الارتياب بالآخر بأسلوب لا يختلف كثيراً عن أسلوب المشعوذين كهنة الظلام، ومن الممكن أن نتلمس ذلك في قول برنارد لويس «عندما تتصادم حضارتان تسود إحداهما وتتحطم الأخرى» (شكري محمد عياد: نحن والغرب) هذا التصور النمطي يعكس منظومة من المفاهيم يمكن عرضها من خلال تشخيص شتراوس للآتي:

الأولى- منهما منظومة معرفيّة، تشرح الظواهر الإنسانيّة بمقولتي: الصحيح والخطأ.

الثانيّة- البعد القيمي الذي يراد له أنْ يكون قشرة حاميّة للذات «منظومة أخلاقيّة» والتي تم تأويلها منذ القديم أي منذ المانويّة بمصطلحي الخير والشر. مما يظل عصياً على القبول الجماعي؛ بسبب اختلاف العادات والمعتقدات. هذه المعايير تسهم في تنميط الآخر إذ يغدو العالم الآخر عالماً نقيضاً عالم الذات والتغويل وبالآتي يتم إسقاط التصورات النمطية الاختزاليّة عليه؛ وهذا ما تحقق من خلال التعاضد بين القوة الكولونياليّة والمعرفة ممثلة بالقراءات

سعد يكن

العلمويّة أو الاستشراقيّة غير البريئة من موجه عرقي يحاول تبرير التفوق الغربي وخلق سرديّة تاريخيّة وإعادة بناء الماضي من أجل إضفاء الشرعيّة على الحاضر الذي يشهد تفوق الغرب، ومن هنا يمكن القول إن الفكر وليد السياسة، والسياسة هي القوّة المحرِفة للفكر والتاريخ والدين فهي المنتجة للتأويلات والانحرافات عبر سعيها لحيازة المشروعيّة بعد أن حازت القوة.

هذه اللغة بقيت وستبقى بين الشعوب لأنّ القوّة هي الخيار الأرجح منذ بدايّة الخليقة إلا أن هذا الخيار ذو نتائج مدمِرة؛ لهذا نرى كثيراً من التأويلات الحديثة مثل: نهاية التاريخ أو صراع الحضارات وهي في جملتها لا تخلو من تقديم شرعيّة لخطاب القوّة والهيمنة الغربي وإضفاء الطابع العقلي عليه حتى لو أدّى هذا إلى صناعة مخيال دعائي ارتدادي غارق بالأطياف والأفكار الأحاديّة والثنائيّات الضديّة، فهي في كل الأحوال تصنع المحن الذاتيّة وتؤول إلى الإقصاء المتبادل وتدمِر علاقات الحوار والتكامل الإنساني.

هذه الشواظ الإقصائيّة العدائيّة المحرقة يجب تعريتها لتحل محلها اللغة التواصليّة الحواريّة بوصفها بديلاً مقابلاً مناسباً. وفي هذا يقول كلود ليفي شتراوس «إن الإسهام الحقيقي لأيّ ثقافة لا يتكوّن من قائمة الاختراعات التي أنتجتها، بل من اختلافها عن غيرها. فالإحساس بالعرفان والاحترام لدى كل فرد في أيّ ثقافة تجاه الآخرين لا يقوم إلا على الاقتناع بأنّ الثقافات الأخرى تختلف عن ثقافته في جوانب عديدة حتى وإن كان فهمه لها غير مكتمل..» (التنوع البشري، تقرير اللجنة العالميّة للثقافة والتنميّة). و إذا ما بحثنا عن هذه اللغة التواصليّة نجده أي شتراوس يشير إلى ثلاثة عناصر، يقول:

-1 لا وجود للثقافة إلاّ في هويّة محددة تميزها عن غيرها، فإن انتفى التميز انتفت الثقافة وأصبحت باطلة وملغيّة، مما يجعل كل حديث سويّ عن الثقافات حديثاً عن الهويّات الثقافيّة.

-2 لا وجود لثقافة محددة إلاّ في علاقتها بثقافات أخرى مختلفة عنها، كما لو كان الاختلاف قوام الهويّة الثقافيّة وشرط حوارها مع الهويّات الأخرى. فلا حوار من

هذه اللغة بقيت وستبقى بين الشعوب لأنّ القوّة هي الخيار الأرجح منذ بدايّة الخليقة إلا أن هذا الخيار ذو نتائج مدمِرة؛ لهذا نرى كثيراً من التأويلات الحديثة مثل: نهاية التاريخ أو صراع الحضارات وهي في جملتها لا تخلو من تقديم شرعيّة لخطاب القوّة والهيمنة الغربي وإضفاء الطابع العقلي عليه حتى لو أدّى هذا إلى صناعة مخيال دعائي ارتدادي غارق بالأطياف والأفكار الأحاديّة والثنائيّات الضديّة

دون اختلاف ولا اختلاف من دون هويّة، ولا هويّة إلاّ بوعي الفرق بين «الأنا» و«الآخر». (تزفيتان تودوروف: فتح أميركا).

هذا التصور يختلف عن أخلاقيات القوة وينتهج منهجاً يؤسس إلى شكل جديد من الحوار والتثاقف نستطيع أن ننطلق منه في تجنب سوء الفهم الذي تضمنه أطروحة «حوار الحضارات» التي اكتنزت قيما صراعيّة أكثر من كونها حواريّة وقد أخذت تجلياتها تظهر في المنطقة بأشكال متنوعة تستتر خلف مقولات أخرى، في أثناء صراعها بالمنطق؛ فهي تحارب الإرهاب وتتدخل في صناعته في الوقت نفسه.

بالمقابل القيم البديلة من الممكن أن تكون استراتيجيّة تؤكِد على تعريّة المسبقات وكشف التواطئات العميقة غير المفكر بها ؛ وهي تنكشف من خلال لغة تكشف التواطؤ بين (المعرفة والقوّة) إذ بحسب اللغة التواصليّة ينزع هابرماس إلى تعميق التجربة الإنسانيّة عبر ما يطلق عليه بـ«توسيع» نطاق الفعل التواصلي في مجال الأخلاق والحياة الاجتماعيّة أي إلى أنسنة الانتاجات العقلانيّة. وإنّ تطور الأنساق المعياريّة للمجتمعات وتنامي وعي هذه المجتمعات بذاتها ووعي الأفراد بذواتهم منوط بمدى توسيع نطاق الفعل التواصلي المستند على التفاعل الاجتماعي والتفاهم المتبادل بين الذوات.القائمة على المثاقفة الايجابيّة فهي من دون شك تجعلنا بإزاء بعد حواري تعايشي تكاملي حفاظاً على مجموعةٍ من الأفكار الإنسانيّة في تحقيق الحوار، فضلاً عن الحفاظ على التنوع والاعتراف به كظاهرة إنسانيّة حتى يصبح الحوار ضرورةً، إلى دفع الناس لبناء حضارة إنسانيّة متكاملة، قراءة الآخر وفهمه من دون الاستناد على المصادر الإعلاميّة بل قراءته قراءة موضوعيّة. تحقيق شروط حريّة الحوار عن طريق استعمال قوة الحجة لا حجة القوة كوسيلة حضاريّة لفض النزاعات. وفهم ضرورة ارتباط الواقع بالحوار الذي يُحتِم وجود تقويم موضوعي، ينطلق من حتميّة الشراكة الإنسانيّة، ومن وعي لحقيقة هذه الشراكة المتكافئة بين البشر، ومن ضرورة معرفة مَنْ نحن ومَنْ نحاور، وتحديد من يُمثِل الحضارات وخصوصيّتها وهي دعوة لمعرفة هويّة الآخر الذي نحاوره.

فإذا ما أخذنا مفهوم الحوار، في معناه العام فهو خطاب (أو تخاطب) يطلب الإقناع بقضيّة أو فعل. وفي «معناه الخاص» كل خطاب يتوخّى تجاوبَ متلقٍّ مُعين، ويأخذ رده بعين الاعتبار من أجل تكوين موقف في نقطة غير معيّنة سلفاً بين المتحاورين؛ قريبة من هذا الطرف أو ذاك، أو في منتصف الطريق بينهما. (محمد العمري، بلاغة الحوار) فهو بهذه الصيغة بعيد عن الإرغام والإكراه وآليّات القوة التي تعتمدها القوة النافذة دولياً من خلال الاستناد على آليات تعتمد على التحريض والتدخل في الشؤون الداخليّة بذرائع متنوعة.

ومن ثم فهناك مفهوم آخر يتعلق بـ«مجال الحوار» أي أنّه يتناول أمراً مهماً يتعلق بـ«تدبير الاختلاف حول القيمَ» وهو يلتقي بمنظري بلاغة الإقناع من أفلاطون إلى بيرلمان في التأكيد على أنّ مجال التخاطب الحواري (أو الحجاج) هو مجال القيم.. بحسب سقراط، حين نختلف حول (المصيب والمخطئ والجميل والقبيح والخيِّر والشرير)، وبكلمة واحدة حول القيَم... فبمجرد ما نحاول تنزيل هذه القيَم على الواقع فإنها تصبح موضوع أخذ ورد بحسب المستمَعات. (المرجع نفسه.)

بمعنى اختلاف الأعراف الثقافيّة بحسب الثقافة أو الحضارة وبالآتي لا يمكن إخضاعها إلى منطق البحث العلمي؛ لأنّها خارج هذا البعد الأداتي بل هي رأسمال ثقافي متغير بحسب الخصوصيّة الثقافيّة ومن هنا الاختلاف في الهويّات وهو يعد أمراً طبيعياً وميداناً للتنوع ومحرضاً على الحوار بعيداً عن التنميط الثقافي العنصري.

ومن ناحية ثانيّة طرح مفهوم يقوم على التعدديّة الثقافيّة بعيداً عن فرض قيَم ثقافيّة على أخرى فإنّ هذا يدخل في نطاق الإكراه كما تحاول قيم العولمة أن تفرض نمطاً من القيَم الاستهلاكيّة على الثقافات الأخرى، وكأنها ثقافة العصر، فهذا النمط الاستهلاكي يسهم في الترويج إلى قيَم وثقافة معينتين وفرضها على الآخرين ومن ثم استهلاكها. فهذا الخطاب يتعارض مع خطاب الغزو الثقافي الذي ترفعه الشعوب التي تدافع عن خصوصيتها ،وهذا يتعارض أيضاً مع التثاقف والتحديث الذي يتعلّق بتبادل قيمَ ثقافيّة رصينة وليست استهلاكيّة.

فإن هذه الآليّة في مناقشة آليّات الحوار تجعلنا نقف عند مفهوم آخر مهم هو

القيم البديلة من الممكن أن تكون استراتيجيّة تؤكِد على تعريّة المسبقات وكشف التواطئات العميقة غير المفكر بها ؛ وهي تنكشف من خلال لغة تكشف التواطؤ بين (المعرفة والقوّة) إذ بحسب اللغة التواصليّة ينزع هابرماس إلى تعميق التجربة الإنسانيّة عبر ما يطلق عليه بـ«توسيع» نطاق الفعل التواصلي في مجال الأخلاق والحياة الاجتماعيّة أي إلى أنسنة الانتاجات العقلانيّة

«المثاقفة» فالحديث عن هذا المفهوم يجعلنا بإزاء «مشكلة التثاقف» وهو في الأصل حديث عن مشكلة الغيريّة، وهذه الفكرة يمكن أن نرصد فيها بعدين:

الأوّل- التعامل مع المثاقفة بوصفها غزواً ثقافياً أو العمل على كشف المثاقفة المهيمنة إذا سلمنا بأنه ليست هناك ثقافة واحدة نموذجيّة، وبأن مشكلة التثاقف من المشكلات التي أثيرت في حقبة الاستعمار، فينبغي أن نعلم بأنّ عمليّة التثاقف هي: العلاقة التي تجمع بين ثقافة الأنا وثقافة الأنا الذي ليس أنا.

إنها العلاقة التي تجمع بين ثقافة السيد وثقافة العبد. إنها العلاقة التي تجمع بين ثقافة البورجوازي المستغِل وثقافة البروليتاري المستغل. إنها العلاقة التي تجمع بين ثقافة الإنسان الغربي المستعمر وثقافة الإنسان العربي المستعمر. إذن، مما تقدم يبين بجلاء بأنّ عمليّة التثاقف علاقة تكشف عن اللاتكافؤ الواضح بين ثقافة الإنسان العربي الذي استُغِل واستُعمِر ولا زال، وثقافة الإنسان الغربي المستعمر القوي السيد الذي يراهن اليوم على فكرة العولمة «كأسلوبٍ جديد للاستعمار»، وقد أصبحت ثقافة الإنسان الغربي ثقافة قويّة مهيمنة بحكم قوته الاقتصاديّة والتقنيّة والعسكريّة، وهذا ما تجسّد مع الغزو الاستعماري لكل بلدان العالم الثالث في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي بما في ذلك العالم العربي، واعتباراً من هذه اللحظة بالذات فكّر الإنسان الغربي المستعمر القوي، السيد، في مسألة تنميط وتكييف ثقافة الإنسان العربي المغلوب على أمره والضعيف في الوقت نفسهِ، على ثقافته تحت فكرة التثاقف. وهذا ما يوضّحه الأنثروبولوجي جيرار لكلرك في مؤلفه «الأنثروبولوجيا والاستعمار» قائلا «يمكن استعمال التثاقف للإشارة إلى الأنماط التي يتم بموجبها قبول مظهر ثقافي معين في ثقافة أخرى إذ يتلاءم ويتكيّف معها مما يفترض المساواة الثقافيّة، بين الثقافة التي تعطي وتلك التي تتقبل، والتكيف هو السيرورة التي تتحوّل بموجبها عناصر الثقافة المستعمرة والمسيطر عليها نحو حالة تتلاءم مع شكل الثقافة المسيطرة». الاستفهام المطروح الآن هو: كيف يمكن أن يسهم مثقف «العالم الثالث» وأقصد هنا المثقف العربي كأنموذج، في دعم ثقافته لمواجهة ثقافة المستعمر القوي الذي نزع بالأمس اعتماداً على قوته العسكريّة وينزع

اليوم تحت فكرة العولمة إلى نمذجة ثقافته وفرضها على الإنسان العربي؟»(مسألة التثاقف الراجي عبدالرحيم).

الثانيّة: تقوم على الحوار والتكامل إذ يظهر معنى المثاقفة كما تصورها الأنتربولوجيون الذين التزموا بتعريف المثاقفة انطلاقاً من اتصال مستمر ومباشر بين ثقافتين. يقول ريدفيلد لينتون وهيرسكوفيتش في مؤتمر عام 1938 إنّ المثاقفة «مجموعة من الظواهر الناتجة عن اتصال مباشر ومتواصل بين أفراد ينتمون إلى ثقافات مختلفة». (إشكاليّة التواصل في مجال التربيّة والتعليم)، هذا عندما أصبحنا نعرف أنّ الاختلاف بين الشعوب هو اختلاف تاريخي لا أنثروبولوجي أو بيولوجي... هو كائن يعرف صيرورة تاريخيّة، بل هو انكسار في الزمان والمكان، وما ترتب على ذلك من انحطاط وتخلف وتبعيّة، ومن دون عقلانيّة. والإجابة لن تكون إلا بالصرخة التي أطلقها فرانز فانون حول حق المبادرة التاريخيّة للشعوب المستعبدة، وذلك في كتابه الشهير «معذبو الأرض» ضد كل تبرير لاختلاف أنثروبولوجي بين شعوب العالم. ولا يمكن نسيان محاولات الفكر الاستشراقي و«المثالي» بتبرير اختلاف الشرق أنثروبولوجيا لصالح أيديولوجيا الهيمنة. فالعقل لا يعد حكراً على أحد بل هو ممارسة إبداعيّة-اجتماعيّة، لها مشروعيتها القصوى. وكل إقصاء للعقل عن فئة محددة لن يخدم إلا المطلقات واللامعقول داخل المعرفة والسياسة معاً. (عبداللطيف الخمسي، من أجل فلسفة اختلافيّة نقديّة).

نحن بحاجة إلى ثقافة جديدة بعيدة عن الإلحاق إلا أنها تقر الاختلاف هنا ثقة معادلة بين (اللغة التواصليّة واللغة الإخضاعيّة) إذ يفضي الحديث عن الفرق بين التفاوت والمساواة إلى حديث موازٍ عن:

النسبي والكلي؛ إذ المفهوم الأول التفاوت يذهب إلى تنوع الثقافات الإنسانيّة، بينما يكتفي التصور الثاني والمساواة باختزال التنوع إلى تصور ثقافي وحيد، هو تصور الإنسان المتفوق والفرق بين التصورين التفاوت والمساواة هو الفرق بين الأحادي والمتعدّد؛ فالتنوع الثقافي يقضي بتنويع المعايير والرؤى والأحكام، فهو انظر من التفكير قد يغيب الآخر؛ لأنه ينظر له من خلال الذات وبالآتي الميل إلى التشميل تصور له سلبياته إذ «تصور الحياة ككل، وميل للتأثر بفكرة واحدة وجهل بباقي الأشياء» (هشام جعيط: أوروبا والإسلام،

ما يميز عالم اليوم، أي العالم وقد اكتسحته التقنيّة والإعلام هو غياب الاختلاف. أي سيادة التبسيط والأحاديّة والتنميط الثقافي على الخصوص، كتب كونديرا «تعمل وسائل الإعلام في خدمة توحيد تاريخ الكرة الأرضيّة، فهي تضخم وتوجه عمليّة التقليص، إنها توزع في العالم كله التبسيطات نفسها والصيغ الجاهزة التي يمكن أن يقبلها أكبر عدد من الناس، أن يقبلها مجموع البشريّة

صدام الثقافة والحداثة). إنّ «العالم غير الأوروبي لا يضم، بنظر الأوروبي إلا السكان الأصليين، والنساء المحجّبات وأشجار النخيل ،والجِمال تؤلف المشهد، الخلفيّة الطبيعيّة لوجود الفرنسيين الإنساني» (إدوارد سعيد، فرويد وغير الأوروبيين). بالمقابل فإنّ التأكيد على التعدد أو القراءة الطباقيّة بلغة إدوارد سعيد إن عالمنا هو عالم المشاركة والثقافات المتقاطعة التي يمتلكها التاريخ الإنساني عينه. لهذا أوجد مصطلح «القراءة الطباقيّة». والتي يؤكد فيها على إن لكل نص عبقريته الخاصة، فهو بهذا قد ركّز على التعدديّة الحواريّة بين كل هذه النصوص. (هيهات أن تكون الثقافات وحدانيّة موحدة، بل أنها بحق لتكتسب عناصر أجنبيّة أخريات، وفروق تفوق ما تقوم واعيّة بإقصائه (إدوارد سعيد، تمثيلات المثقف) .

في الوقت الذي أكّدنا على بطلان هذا التمثيل النمطي ينبغي التأكيد على أن يتحمل الغرب نتائج أفعاله التي تركت أثار بعيدة الأثر على الآخر، وأن يعمل على تقديم المساعدات التي تجعل الآخر قادر على التغلب على مصاعبه.

إن ما يميز عالم اليوم، أي العالم وقد اكتسحته التقنيّة والإعلام هو غياب الاختلاف. أي سيادة التبسيط والأحاديّة والتنميط الثقافي على الخصوص، كتب كونديرا «تعمل وسائل الإعلام في خدمة توحيد تاريخ الكرة الأرضيّة، فهي تضخم وتوجه عمليّة التقليص، إنها توزع في العالم كله التبسيطات نفسها والصيغ الجاهزة التي يمكن أن يقبلها أكبر عدد من الناس، أن يقبلها مجموع البشريّة. هذا الإعلام يعمل على خلق تبسيط يغيب المشاكل أو يحيلها إلى أمر بعيدة عن جوهرها نحن بحاجة إلى تجاوز الخطاب التقليدي إلى خطاب تحديثي؛ لأنّ «ذلك أن ثقافة الحداثة هي انسلاخ دائم عن ثقافة التقليد. إنها حركة انفصال دائبة نحو خلق شبكات مقاومة تحاول الانفلات من التنميط وتسعى نحو خلق الفروق وإحداث الاختلافات» (في الحوار بين الثقافات والصراع بينها عبد السلام بنعبد العالي).

كاتب من العراق

تالية الكيالي

الثقافة ومأزق المثقف الجديد

السيد نجم

منذ اللحظة الأولى لثورات عام 2011، تعبيرا عن الرغبة في التغيير، وحتى الآن وربما لفترات طويلة قادمة، يثار السؤال: ما دور الثقافة والمثقف في كلتا الثورتين؟ تارة يردده البعض تعضيدا للثقافة والمثقف وثقة بهما، وأخرى يردده البعض الآخر استنكارا وإنكارا لدورهما.

تباينت آراء المفكرين والباحثين في تحديد مفهوم واحد للثقافة، فمعظم الذين بحثوا في هذا المصطلح أقروا بأنها «ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع من البيئة، ومعبرا عنها ومواصلا لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك»، وهو ما يعني أن للبيئة التي يعيش تحت ظروفها شعب ما دورها في توليد ثقافة مختلفة عن الثقافة المتولدة لدى شعب آخر يعيش تحت ظروف بيئية مختلفة. وهو ما يدفع بالأخذ بالخصوصيات الثقافية للشعوب، وفقاً لأنماط نابعة من ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، والبيئة الجغرافية التي تتيح انتقالا نوعياً بالفكر والسلوك، وتقود للتطورات التاريخية التي تشهدها المجتمعات البشرية.

فالمنجز الثقافي هو -كما يرى جون ديوي- محصلة التفاعل بين الإنسان وبيئته، ثقافة شعب ما، هي جماع المعارف الإنسانية لذلك الشعب في محاولته للوصول إلى حالة من التوازن مع الظروف الحياتية التي يحياها، وهي إبداع حالة تكيّف مع الشروط التي تفرضها البيئة المحلية، والعلاقات المتشكّلة مع الشعوب ذات الثقافات الأخرى.. إنها جدل حيوي بين الشعوب وبيئتهم مرة، وبين فئات الشعوب نفسها مرة أخرى، مما يدفع إلى العمل لابتكار ما، يجعلها أكثر قدرة على تأكيد كياناتها بامتلاك خصائص مستقلة تميزها عن سواها.. ذلك أن ثقافة الأمة هي علمها غير الواعي الذي تتوارثه الأجيال وتدير به شؤون حياتها، أي هي طريقتها في الحياة.

وإذا كان دور المثقف يقاس بمدى قدرته على التأثير في المجتمع والنفاذ إلى ضميره وإيقاظ وجدانه وصوغ قيمه التي تحدد سلوكه وتحرك تصرفاته، فإن جوهر أزمة المثقف العربي وما يتهم به، أنه (أي المثقف) عاجز عن التأثير في المجتمع لإحداث أيّ تغيير فيه.

لعل النصف الأخير من القرن الماضي شهد ذروة إحكام الدولة (النظام) قبضتها على مناحي الثقافة وأوجه نشاطاتها، وعلى المثقف بالتالي. بدا وكأن المثقف آثر الانسحاب بدرجات متفاوتة، وبدأ تأثيره الاجتماعي ينحسر، ويتحول من مثقف مجتمع وأمة إلى مثقف سلطة ودولة.

عبرت أزمة المثقف عن نفسها من خلال عدة ظواهر: إقصاء السلطة للمثقف الحقيقي عن مجال تأثيره، وهو ما يبرّر ظواهر مثل أحادية الرأي (غالبا في كل وسائل الإعلام) واستبدل بما يمكن أن نطلق عليهم «مثقفي السلطة» أو «محترفي الثقافة».

مفهوم ثقافة جديدة: الثقافة الرقمية أو المعلوماتية

خضع مفهوم الثقافة إلى متغيرات ارتبطت بالمتغير التكنولوجي وقد مرت بثلاث مراحل، قالت بها مارجريت آرشر:

•المرحلة الأولى «فرضية التقارب الصناعي»: حيث تجسدت النظرية الصناعية كمحرك أول للحياة الاجتماعية، نحو المجتمع الحديث.

•المرحلة الثانية «ما بعد التصنيع»: إذا كانت نظرية المجتمع الصناعي في الستينات من القرن العشرين سمحت بقدر من التنوع الثقافي ففي السبعينيات من القرن نفسه كانت على العكس حيث دمجت الثقافة بالقوى والبنية الصناعية، تحت شعار «العلم هو نمط إدراك المجتمع، والصناعة هي بيئة العلم»، مما أنتج ما يعرف بأحادية الثقافة. حيث زيادة نمط الاستهلاك جعلت الناس تعتقد أن ما هو كائن هو التقدم.

•المرحلة الثالثة «مجتمع المعلومات»: وبدأت في عقد الثمانينات من القرن الماضي، وليدة مجتمع المعلومات (لتزاوج الحاسبات وتقنية الاتصالات عن بعد). وهو ما أطلق عليه المفكر توفلر بـ«المد العظيم»، ويرى أنه على المرء أن يعتليه «هذا المجتمع المعلوماتي» أو يغرق فيه!

فقد ظهر إطار اجتماعي جديد نتيجة تأثير تكنولوجيا المعلومات على كل ما هو حياتي، بعد أن امتد التأثير حتى إلى مجال الخدمة الاجتماعية مثل مجال الطب وتخفيف الألم. فتغير نموذج الإنسان أمام تحول فكرة الحاسب الآلي إلى «الذكاء الإصطناعي» مما جعل الثقافة تتحول عن نطاقها الخاص إلى تابع لتكنولوجيا المعلومات.

بالتالي فإن ردود الفعل إزاء التكنولوجيا الجديدة أصبح مسألة ذوق، من يكره الآلة الجديدة ومن يحبها، وفى الحالتين يتحول الناس إلى متفرجين ولا يستطيعون التأثير في مأزقهم!

مع ذلك ناقش العلماء مفهوم «الثقافة العالمية» ضمن مفهوم «العولمة»، تلك «الثقافة» التي تعني نمط حياة جماعة أو رصيد من المعتقدات والأنماط والرموز والقيم، وهي التي حلم بها الليبراليون والاشتراكيون على السواء.

قبل الحرب العالمية الثانية كانت فكرة الدولة القومية هي معيار التنظيم البشرى المتقدم، وبالتالي الثقافة القومية هي الهدف. أما بعد الحرب تم ترسيخ الثقافتين الجديدتين الشيوعية والرأسمالية، وإحلال الأمة بدلا عن النزعة القومية، وهو ما دعت الإدارة السوفيتية إليه بدعوة الأفراد إلى الانتماء السياسي الجديد، مع الاحتفاظ بالتضامن المعنوي مع الجماعة العرقية بينما الإدارة الأميركية دعت إلى «العقيدة الأميركية» القائمة على الحرية والرأسمالية، وهو ما أدخل البشر الآن حقبة بعد القومية وبعد صناعية وبعد حديثة تقوم على المعرفة الفنية والشركات متعددة الجنسيات وشبكات المعلومات. بالتالي فلا يمكن لثقافة اليوم إلا أن تكون عالمية. ومع ذلك فإن هذه الشبكات نفسها تساعد على المزيد من الاتصال والتواصل بين أفراد الجماعات ذات السمات الثقافية المشتركة، وهو ما يفسر عودة الجماعات العرقية إلى الظهور. وقد عبرت تلك الثقافة العالمية عن نفسها بوفرة الملابس موحدة القياس والشكل (مثل البنطال «الجينس» للذكور والإناث، وغيره).

ملامح جديدة

يظل مفهوم الثقافة عبر الشبكة العنكبوتية مفهوماً متشابكا في هذا العالم الجديد. هذه الثقافة التي أخذت تنتشر وتمتد على مساحات كبيرة من الوعي بسبب كمّ المعلومات وتعدد مصادرها، والرهان على جيل جديد قادر

جميل ملاعب

على الانتفاع بمعطياتها كوسيلة للاتصال ثم التواصل عبر الواقع الافتراضي، ثم إنتاج المعارف وتولّد الخبرات عبر العالم الواقعي أو الطبيعي.

المؤكد أن جيل الشباب هم من يملك ناصية القافلة. وأفادت مراكز الإحصاء (أن المتعاملين مع شبكة الإنترنت في العالم العربي تجاوز 28 مليونا، وفى مصر وحدها 18 مليونا، نسبة الشباب حتى 35 سنة من العمر تتجاوز 70 بالمئة بقليل)

•تمكن الإشارة إلى بعض التفاعلات المنفذة بمعرفة (الأفراد أو المؤسسات العامة) على الشبكة، وإن بدت أقل من الطموحات في مصر والعالم العربي:

•توافر محتوى متعدد اللغات لمواقع عربية: وتأتى اللغة الإنكليزية في المقدمة، ثم اللغة الفرنسية. وهو ما يعنى التواصل مع الآخر بلغات غير العربية، مما قد يضيف إلى المعارف والمعلومات المتاحة، دون انتظار لترجمتها. وهو لا يلغى دور الترجمة.

•رقمنة التراث الثقافي، ومعطيات الثقافة العصرية: وهى مهمة المؤسسات وينهض بها البعض بشكل جيد، مثل «مكتبة الإسكندرية» حيث المتوقع رقمنة كل المستندات والوثائق، ومعايشة عالم رقمي كامل (تقريبا).

•صناعة الثقافة: أصبحت من أهم الصناعات في عصر المعلومات، بل وأكثرها ربحية. كما أن صناعة الثقافة العربية، هي ركيزة لم الشمل العربي.

•تنمية كوادر فنون الكمبيوتر: توجد المراكز المتخصصة في هذا المجال، وترجى زيادتها.

•الاستفادة من الخدمات المجانية المعلوماتية، مثل مواقع المؤسسات العالمية المختلفة، مثل الأمم المتحدة وغيره من المواقع الثقافية والعلمية والاقتصادية والسياسية.

•الاهتمام بالبحث المعلوماتي على شبكة الإنترنت، وقد باتت من أكثر المهام التي يسعى إليها الشباب (مع تنوع التوجهات والرغبات).

•لم يعد الاهتمام بمجال الإتصالات وحده كافيا، فكانت التوصيات، التي منها:

•الانطلاق من مفهوم الاتصال إلى التواصل.

•البحث في شروط الخصخصة الواجبة، مع توفير جوانب نجاحها، خصوصا أن الطرف الآخر أكثر خبرة في هذا المجال عن الموظفين الحكوميين.

الوطنية ليست التعصب ضد الآخر، ولا الغرور بالذات ولا الانغلاق على الذات، ولا هي دعاوى باطلة للاعتداء على الآخر. الوطنية هي محور الارتكاز لاستيعاب الماضي والانطلاق إلى المستقبل. هي انفتاح على العالم بلا غرور ولا انبهار أو إحساس بالدونية

•توفير فرص النفاذ لآليات التقنية الرقمية، خاصة محدودي الدخل، بتقليل تكلفة إعطاء التراخيص، لتوفير الخدمات مع مرونة في التسعير، وطرق سداد تلك الخدمات.

الحقيقة أن الانتماء والوطنية هما جوهر الهوية الثقافية. فالوطنية ثقة بالأنا الجمعية لمجموعة تعيش على أرض مشتركة تشعر بالولاء والانتماء للأرض والالتزام بمجموعة المفاهيم الرابطة مع استيعاب لذاكرة جمعية تتمثل في جوهر العادات والتقاليد والقيم العامة.

كما أن الوطنية ليست التعصب ضد الآخر، ولا الغرور بالذات ولا الانغلاق على الذات، ولا هي دعاوى باطلة للاعتداء على الآخر. الوطنية هي محور الارتكاز لاستيعاب الماضي والانطلاق إلى المستقبل. هي انفتاح على العالم بلا غرور ولا انبهار أو إحساس بالدونية.

نحن في حاجة إلى آفاق للتعامل وللمعرفة. وفى كل الأحوال مسلحون بالانتماء الموضوعي الإيجابي وليس العنصري، مع الاحتفاظ بمجموعة الثوابت القيمية العليا وخصوصا القيم الدينية. فليست آليات الثقافة الجديدة (الرقمية) كي نخسر أنفسنا. الهوية الواعية تضيف إلى الأفراد قوة دافعة للمشاركة الإيجابية وليس العكس. هي «الثقافة» إذن، البدء والمنتهى.

لا يخلو الأمر من النظر في عدد من المعطيات، فتلك التكنولوجيا «المعلوماتية» ميزة فاعلية الفرد المتعامل مع الآلة (الكمبيوتر)، أي ميزة القدرة الإبداعية عند المستخدم (على العكس من التكنولوجيات الصناعية السابقة عليها). وهو ما يمكّن أفراد الدول النامية من منافسة أفراد الدول المتقدمة على قدم المساواة، والغلبة هنا لقدرة أيهما على الانجاز والإبداع في توظيف التقنية. أما وقد أصبحت الثقافة مرادفة لمفهوم التنمية في القرن الجديد، كما أصبحت تكنولوجيا المعلومات رافدا للثقافة، فلا حيلة إلا اقتحام عالم تلك التكنولوجيا الجديدة.. (لعل التجربة الهندية تزكي هذه الفكرة).

•إلا أن الأمر ليس يسيرا إلى هذا الحد، هناك الكثير من الجهد الواعي من أجل التعامل العميق مع تلك المعطيات والمزايا، (تناولها نبيل علي):

•استيعاب المعطيات التكنولوجية تقنيا، وفض معطياتها المعرفة. فالمعلومات الكثيرة لا تعنى المعرفة، بل البحث عن استخلاص «المعرفة» من تلك المعلومات.

•وضوح الرؤية والهدف خلال البحث عن تلك المعرفة، وتحويلها إلى مفاهيم وأفكار أساسية.

•توظيف تلك المعرفة واستخلاص جوهرها من أجل حل المشاكل الحقيقية واليومية للإنسان من أجل تعزيز تلك المعطيات.

•يرى البعض أن تلك المعرفة تتوالد وتتجدد بفضل التقنية نفسها، والعقل العامل عليها أي أنها بلا سقف تتوقف عنده.

•مداومة ملاحقة المعدل السريع لتطور تكنولوجيا المعلومات.

•الوضع في الاعتبار سلبيات انتشار المجتمع المعلوماتى: «ضآلة أهمية العامل، وإمكانية إحلاله بآلة، حتى قالوا بالمجتمع خمس العامل»

•«العنف الترفيهي، من جراء بعض الألعاب المطروحة على الجميع وخصوصا الأطفال»، «الابتزاز المعرفي أو الرقمي، حيث وظف البعض التقنية المتاحة من أجل الابتزاز بأشكال مختلفة.. الذي قد يصل إلى حد الإرهاب المعنوي أو الرمزي».

•هناك سلبيات أخرى على مستوى الشعوب والدول، يتمثل فى: «بروز فجوة اقتصادية وتكنولوجية بين الدول الغنية والفقيرة»، «هيمنة الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات»، «تقليص دور الدولة»، «تأجيج النزعات العرقية والدينية وغيرها»، «طمس خصوصية الثقافات»، «تقليص دور الأسرة»، «الخواء الروحي»، «زيادة البطالة»، «استخدام التكنولوجيا كسلاح أيديولوجي».

•لذا قد يحتاج الأمر إلى إعادة النظر في عدد غير قليل من المسلمات النظرية:

•يرى ماكس فيبر أن الثقافة تعد عاملا مساعدا في تنمية المجتمع، بينما يرى كارل ماركس أنها نتاج طور الإنتاج، فيما يرى إميل دوركايم أنها إحدى مؤسسات المجتمع، بينما أصبحت الثقافة الرقمية محورية في منظومة تنمية المجتمع الجديد (المجتمع الرقمي).

•إقامة الجسور بين المحلى والعالمي، العام والخاص، الرسمي وغير الرسمي، وبين النخبة والعامة من الناس أو

التكنولوجيا «المعلوماتية» ميزة فاعلية الفرد المتعامل مع الآلة (الكمبيوتر)، أي ميزة القدرة الإبداعية عند المستخدم (على العكس من التكنولوجيات الصناعية السابقة عليها). وهو ما يمكّن أفراد الدول النامية من منافسة أفراد الدول المتقدمة على قدم المساواة

الجماهير.

•تأسيس معرفة جديدة تساعد على فهم العالم.

•التخلص من فكرة الحتمية التاريخية، والوصول إلى «عدم اليقين».

•تأسيس مفهوم جديد للتعليم، والتعامل مع الذكاء الجماعي.

•ضمان عدم طغيان القيم المادية على القيم الروحية.

•التصدي للمشكلات الاقتصادية.

الثقافة مطلع القرن الـ 21

المشهد العالمي الثقافي المعلوماتي يكشف عن خصائص العصر الجديد، والتي قد تبدو متناقضة، فلا العقلانية تعد من الأفكار العصرية كما يقول الفيلسوف كارل بوبر. كما أن الخاسر هو صاحب ثنائية الفكر: إما هذا أو ذاك؟!، فالكمبيوتر الآلي خلصنا من هذه الثنائية، وذلك باللجوء إلى الحدس. بل أين الإنسانية بينما يسعى الإنسان إلى «أنسنة» الروبوت أو الإنسان الآلي.. كما يسعى هؤلاء إلى «روبتة» الإنسان نفسه؟

لقد باتت صناعة الثقافة أهم صناعات العصر الجديد. فكرة شيوع «الإنترنت» أو المعلومات فائقة السرعة، مطروحة بقوة، وقد أصبحت ضمن البرامج السياسة للحكومات والأحزاب في أغلب دول العالم. حتى أن البعض يرجع سقوط الاتحاد السوفييتي القديم إلى وسائل المعلومات الجديدة مثل الإنترنت، وأننا نعيش عصر الشفافية وبالتالي فشلت حكومة السوفييت في تضليل شعبها وسقطت.

إلا أن السؤال: ماذا يفعل فقراء العالم، وكلفة إنشاء هذه البنية التكنولوجية تقدر بتريليونات الدولارات؟

ثم هناك ظواهر لا يمكن إغفالها: الأقمار الصناعية وتعدد أنماط الثقافة المنبثقة عنها. كما تمكن الإشارة إلي «الجات» وما يقال حولها، ما لها وما عليها. وأصبحت «التربية» مفهوما في مقابل «التنمية» وهو ما عبر عنه قلق رجال التربية في الولايات المتحدة من تخلف الطفل الأميركي مقارنة بالطفل الياباني. كذلك هناك اتجاه نحو تجزئة بعض البلدان والمواقع كما في البلقان وما يسعون

إليه في بلدان أخرى مثل السودان والعراق. وماذا عن ذاك المسمّى بفيروس الكمبيوتر وأضراره العالمية؟ ومجموعات «الهاكرز» أو القراصنة الرقميين؟ وماذا يعنى مشروع «الجينوم» أو التركيب الوراثي للإنسان؟ وغيرها.

كل ذلك في مقابل (وهو ما يعنينا في هذا البحث تحديدا) أن الثقافة الرقمية والمعلوماتية من خلال التقنية الرقمية القادرة على الاتصال والتواصل سوف تقلص من سيادة الحكومات، على الرغم من كل أشكال الرقابة والتضييق إلى حد القبض على بعض المدونين، وكذا إغلاق مواقع بعينها بالإضافة إلى حروب «الهاكرز».

الثقافة الجديدة والسلطة

لعل مجمل مظاهر تلك القضية تتمثل في ثلاثة محاور (السيد يسين):

•التبعية: تعني ارتهان إرادة الشعوب الأقل تطورا إلى إرادات غير إرادتها، وتعني في مستوى آخر أنّ دور بعض الشعوب (دون أن تدرى) هو تأمين المصالح الخارجية للدول/الشعوب الأقوى وأكثر تقدما، لا المصالح الوطنية الخالصة لها.

•الانحلال القومي: وهو الظاهرة الثانية، ونتيجة للظاهرة الأولى، حيث تتحوّل البلدان الأقل تتطورا (مثل بلدان العالم العربي) إلى مساحة جغرافية هائلة لا تاريخ لها، طالما أنّ كل بلد مشغول بتحقيق مصالحه الضيّقة بعيداً من المصالح المشتركة.

•أما الظاهرة الثالثة (التي تعنيني هنا) فهي «سلطوية الأنظمة على المجتمع»، التي تعني في التحديد الأخير اكتساح الأجهزة السلطوية للمجتمع كلّه، حيث يتحوّل المجتمع المدني إلى افتراض آخر، هذه السمة الغالبة في مجمل المجتمعات الأقل تقدما والتي أطلق عليها في العالم العربي بهيمنة السلطة الحاكمة في «المجتمع الأبوي» القائم على هيمنة الأب (السلطة) على الابن (أفراد المجتمع).

يقول السيد يسين حول الثقافة الجديدة «هي عملية تاريخية، وهي بهذا الوصف الدقيق ليست مجرد مفهوم أو مصطلح، ولكنها كظاهرة نتاج تفاعلات شتّى وتراكمات عميقة تمت عبر مئات

عادة ما ينطلق الكثيرون من الرؤية المادية التي يسمونها «علمية» فيدرسون الهوية في إطار النموذج المادي كما يفعل كثير من الدارسين في الغرب. واستخدام النموذج المادي يعنى استخدام الحواس الخمس، كما يعني دراسة الظواهر الإنسانية كما تدرس الظواهر الطبيعية. ومثل هذا المنهج يودي بالهوية تماماً، لأنه لا يتعامل مع الواقع إلا من خلال معايير مادية، وهي معايير عاجزة بطبيعتها عن رصد الهوية في كل تركيبيتها

السنين. وهي تفاعلات سياسية ودولية واقتصادية وثقافية»، وهي «سرعة تدفق السلع والخدمات والأموال والأفكار والبشر بين بلاد العالم بغير حدود ولا قيود».

تجليات جديدة

أولا: النزوع إلى صياغة «ثقافة كونية»: تقوم على أساس نسق عالمي من القيم يؤثر على اتجاهات البشر وسلوكياتهم بشكل متشابه في كل مكان. وكأن الغرض من هذه الثقافة الكونية إعادة تشكيل الشخصية الإنسانية على هدى قيم مغايرة للبنية التي توارثتها عبر القرون.

وهنا نصل إلى إحدى التجليات الثقافية، ذلك أنه يمكن قبول شعاراتها السياسية التي تتمثل في انتشار مفهوم ومصطلح الديمقراطية وشيوع مفهوم حقوق الإنسان وتزكية فكرة المجتمع المدني العالمي وتعميق الاتصال الإنساني من خلال معطيات الشبكة العنكبوتية وغيرها. فضلا عن التجليات الاقتصادية مثل (السوق العالمية المفتوحة.. حرية وسرعة انتقال البضائع.. رواج الشركات العابرة للقارات.. إمكانية احتمال أن تصبح الدول الكبرى سوقا للدول الأخرى). إلا أن الثقافة الكونية قد تصطدم بالضرورة مع الخصوصية الثقافية ومعنى ذلك أنه لو حاولت تلك الثقافة الكونية أن تقنّن القيم وتوحّد ضروب السلوك وفق معايير عالمية (وهي حتما معايير غربية) معنى ذلك أنها ستدخل في معارك شتى. تكفى الإشارة إلى إمكانية فتح أسواق الدول الصغيرة الضعيفة أمام الإنتاج الغزير والمتنوع لهذه الشركات من خلال عمليات إعلانية وتسويقية جذابة من شأنها إعادة صياغة شخصيات الأفراد في هذه المجتمعات لكي تدفعها للدخول في مجال الاستهلاك المتواصل.

ثانيا: الحرث العشوائي في هوية الشعوب: فهوية شعب تتشكل عبر مئات السنين من خلال تفاعله مع الطبيعة وبيئته الجغرافية ومع بني جلدته ومع الشعوب الأخرى. وهو ما عبر عنه عبدالوهاب المسيري بقوله «لأن أعضاء الشعب لا

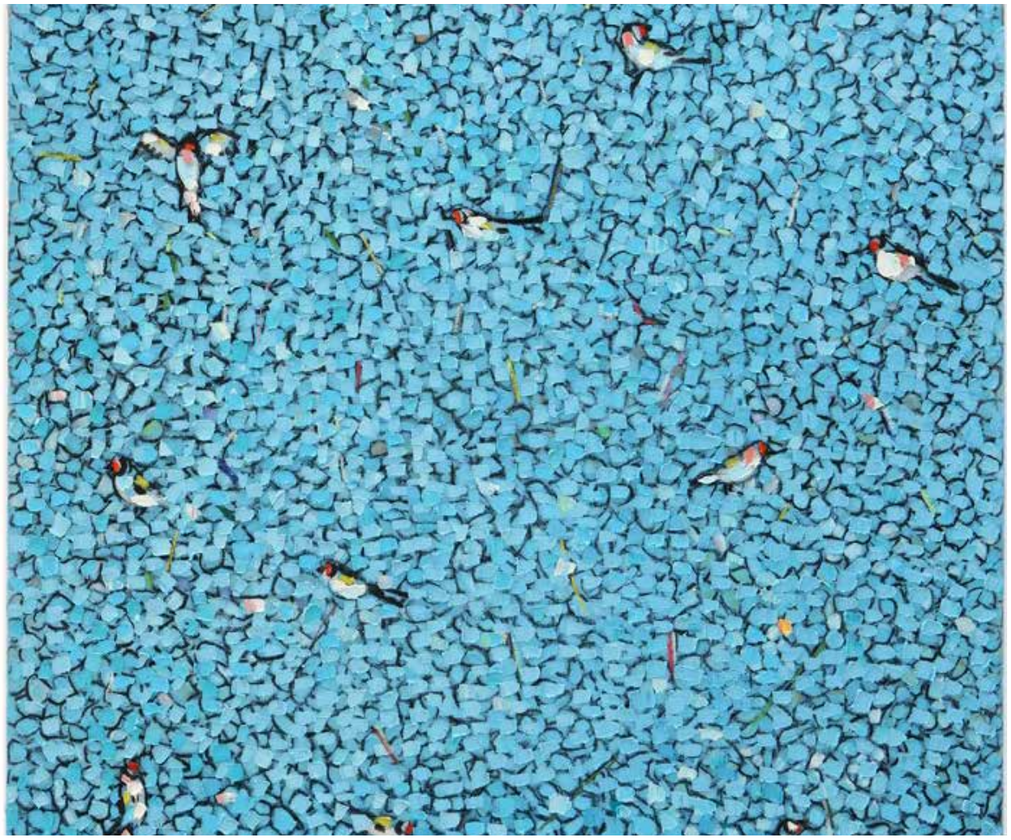

جميل ملاعب

يعكسون الواقع كما هو، وإنما يتفاعلون معه فعقولهم التوليدية تبقى وتستبعد وتضخم وتهمش، فإن هويتهم تتشكل من خلال إدراكهم لما حولهم، ومن خلال تطلعاتهم ورؤاهم وذكرياتهم، فهي ليست مجرد انعكاس بسيط لبيئتهم. ومن هنا تكتسب الهوية فرادتها وتركيبيتها التي لا يمكن ردها إلى قانون أو نمط مادي». ولكن عادة ما ينطلق الكثيرون من الرؤية المادية التي يسمونها «علمية» فيدرسون الهوية في إطار النموذج المادي كما يفعل كثير من الدارسين في الغرب. واستخدام النموذج المادي يعنى استخدام الحواس الخمس، كما يعني دراسة الظواهر الإنسانية كما تدرس الظواهر الطبيعية. ومثل هذا المنهج يودي بالهوية تماماً، لأنه لا يتعامل مع الواقع إلا من خلال معايير مادية، وهي معايير عاجزة بطبيعتها عن رصد الهوية في كل تركيبيتها. وقد أدى هذا المنهج إلى تعريف الإنسان باعتباره «الإنسان الطبيعي»، بمعنى أنه إنسان يتسم بسمات عامة «أضيفت» إليها الحضارة، أي أنها ليست أصيلة فيه. وبذلك تتحول الهوية إلى مسألة مضافة آليا، مجرد زخرفة، وهكذا يصبح المشروع الإنساني هو العودة إلى الإنسان الطبيعي متجاوزين الزخارف الإضافية.

يقترح المسيري أن ننظر إلى الهوية باعتبارها صورة مجازية لا جوهرا صلباً ثابتاً، وطرح فكرة «الإنسانية المشتركة» بدلا من فكرة الإنسانية الواحدة التي يطرحونها في الغرب. فالإنسانية المشتركة تذهب إلى أن كل البشر داخلهم إمكانيات لا تتحقق إلا داخل الزمان والمكان، وهي في تحققها تكتسب قسمات وهوية محددة. فالإمكانية الإنسانية الكامنة حينما تتحقق في الزمان والمكان الصيني، فإنها تثمر الإنسان الصيني والإنسانية الصينية، وإن تحققت في الزمان والمكان الغربيّين، أثمرت الإنسان الغربي والإنسانية الغربية. وتحقق الإمكانية ليس أمراً حتمياً، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمكن أن يرقى فوق إنسانيته ويمكن أن يهبط دونها.

ثالثا: أما ثالث التجليات الثقافية الجديدة فهو رواج المجتمع المدني: «المجتمع المدني» من أكثر المفاهيم الخلافية،

فلا يوجد تعريف يتضمن كافة الدلالات. ففي القرنين 17 و18 بداية نشأته، حيث ظهرت نظرية «العقد الاجتماعي» على يد كل من هوبز وجون لوك وجان جاك روسو. والفكرة الرئيسية جاءت للتعبير عن كيفية انتقال المجتمعات من «حالة الطبيعية» إلى المجتمع «السياسي» أو المجتمع «المدني» لدحض نظرية «الحق الإلهي للملوك».

ثم جاءت مرحلة التمييز بين المجتمع السياسي عن المجتمع المدني في القرن 19، أي التمييز بين «الدولة» وبين المجتمع المدني على يد هيجل عندما ميز بين مؤسسات ثلاث في الحياة الاجتماعية هي: الأسرة والمجتمع المدني والدولة.

وفي مرحلة التنافس الأيديولوجي في القرن العشرين كان من أبرز ما يميز هذه المرحلة اعتباره «المجتمع المدني» مكوّنا من مكونات البنية الفوقية بعد أن كان من مكونات البنية التحتية، وكذلك اعتباره ساحة للتنافس الأيديولوجي وإعطائه وظيفة جديدة للوصول إلى السلطة عن طريق الهيمنة الأيديولوجية على مكونات المجتمع المدني.

بينما في المرحلة المعاصرة بعد انهيار الإتحاد السوفييتي وأحداث أوروبا الشرقية أعيد إحياؤه مجددا بعد فترة توقف، وأبرز ما يميز هذه المرحلة انتشاره وظهور استخدامات جديدة له، أدت إلى تشعب الجدل حوله، مثل استخدامه في التحول الديمقراطي واستخدامه «ضد» الدولة. ومع الثقافة الكونية بدأت تظهر استخدامات جديدة لمفهوم المجتمع المدني مثل «المجتمع المدني العالمي» أو «المجتمع المدني العابر»، وظهور تعريفات جديدة له. كذلك ظهور أدوار جديدة.

وأبرز التطورات لهذا المفهوم هي:

•ظهور مصطلح جديد لمفهوم المجتمع المدني: مصطلح المجتمع المدني استخدمه الكتّاب على مستوى محلي لا يتعدى حدود دولهم، إلا أنه وبسبب تأثيرات العولمة تعداه إلى مستوى عالمي. فقد راج مصطلح «المجتمع المدني العالمي» وهو ما رفضه البعض فظهرت مصطلحات مثل مصطلح «المجتمع المدني عبر القومي» أو مصطلح «المجتمع المدني الدولي».

•ظهور تعريفات جديدة للمصطلحات الجديدة للمفهوم: يعرّفه روبرت أوبرايان على أنه «مجال أو فضاء حيث يحاول خلاله الممثلون المدنيون التأثير على

في مرحلة التنافس الأيديولوجي في القرن العشرين كان من أبرز ما يميز هذه المرحلة اعتباره «المجتمع المدني» مكوّنا من مكونات البنية الفوقية بعد أن كان من مكونات البنية التحتية، وكذلك اعتباره ساحة للتنافس الأيديولوجي وإعطائه وظيفة جديدة للوصول إلى السلطة

الطريقة التي يعيش فيها الناس حياتهم في أنحاء العالم». أما أندرو هاريل فيشير إلى «تلك المجموعات الوسيطة والمُنظَّمة التي تكون مستقلة نسبيا عن كلّ من السلطات العامّة والممثلين الاقتصاديين الخاصّين: والتي تعمل عبر حدود الدول» وغيرهما.

•دور الثقافة الرقمية ومعطيات الشبكة العنكبوتية: يعد «الإنترنت» الآن مثالا واحدا لانفجار المعلومات الرقمية، تلك المعلومات التي تشمل أنظمة الحاسب الآلي، الاتصالات السلكية واللاسلكية للأفراد والشركات، البريد الإلكتروني، هواتف المحمول، البريد الصوتي، التلفزيون التفاعلي، هواتف الفيديو.. الخ. وأثار هذا الانفجار المعلوماتي العديد من القضايا التي تتعلق بالثقافة. ففي مجال «الملكية الفكرية» بات من الضروري توفير التشريعات القانونية سواء كانت اختيارية أو إجبارية. وفي حتمية «تعدد الجنسيات» مصادر المعلومات حيث أن تلك الشبكات متعددة الجنسيات عابرة للحدود، حتى قال جوزيف بيلتون «ربما تصبح الدول القومية من الأشياء العتيقة». ثم قضايا «الخصوصية» و«الأمن» و«التشفير»، ونظرا لأهميتها جميعا تخضعها الحكومة المصرية للتنظيم الحكومي مثل الكثير من الدول، ومنها الولايات المتحدة الأميركية.

•الخصوصية: عرفها أرنولد سيميل بقوله «إن الخصوصية مفهوم يتعلق بالعزلة والسرية والاستقلال الذاتي، لكنها ليست مرادفة لهذه المصطلحات..». بينما يرى ران دالأنها أداة اجتماعية، فيما يرى بيزانسون أن الخصوصية تمثل محاولة للحفاظ على التنظيمات والقيم الاجتماعية. وقد أبرز ديفيد فلاهيرتي فوائد الخصوصية في الآتي «الحق في الاستقلال الذاتي وفي اختلاء المرء بنفسه وفي الحياة الخاصة وفي التحكم في المعلومات الخاصة وفي توقع السرية وفي التمتع بالعزلة وفي التمتع بالكتمان...».

بالتالي يثار السؤال دوما حول تحقيق التوازنات بين مصالح متباينة خاصة بالملكية الفكرية والجوانب الاقتصادية وأمن وتشفير البيانات.

لكن لماذا يجب الإعتراف بحق الفرد أو الجماعة أو المؤسسة بالخصوصية؟

الإجابة هي: لتحقيق الاستقلال الذاتي، حيث الخصوصية أمر هام للتنمية الفردية والجماعية والمؤسسية.. كما أنها تتيح فرصة التحرر العاطفي، حيث التعبير عن الغضب والحزن والإحباط، خصوصا أن الحرمان منها يسبب زيادة التوتر وربما الانهيار النفسي أو العقلي.. ثم هناك أثر الخصوصية في تنمية التقدير الذاتي وصنع القرار، مع الاتصال المحدود والمضمون.

بالرغم من فوائد الخصوصية، فإنه يمكن القول إنها تركيبة لا اجتماعية. فهي تعترف بحق الفرد مقابل أيّ شخص آخر في أن يقرر ما يكشفه عن نفسه، وهو ما قد يتعارض مع قيم هامة أخرى داخل المجتمع مثل مصلحة المجتمع في تسيير حرية التعبير ومنع الجريمة والمعاقبة عليها، وفي حماية الملكية الخاصة، فضلا عن الحماية القانونية للعادات والتقاليد وغيرها.

الخصوصية إذن ليست شيئا مطلقا، إنها أمر متوقف على القرائن وهى ليست مفيدة أو ضارة في حد ذاتها، وإنما تتضمن مجموعة معقدة من الصفات الإيجابية والسلبية معا.

ينبغي في النهاية قيام الحكومات بدورها في صياغة مبادئ الخصوصية وسن القوانين لحماية الحقوق داخل البلد الواحد ودوليا مع الدول الأخرى. وربما يمكن التأكيد على أن الثقافة والعلوم الإنسانية باتت في مأزق الثنائية التي أشرنا إليها من قبل، ولا بالأخذ والرفض معا، الأخذ بما هو مناسب على مستوى الفرد والمؤسسة والرفض لغير المناسب.

لكن السؤال: هل سيبقى رجال البحث والفكر في فضاءات الثقافة ردود أفعال لواقع تقنى جديد؟ أم يلزم البحث عن رؤية جديدة ومناهج بحث مختلفة تجعل الحصان أمام العربة أو الفكر الإنساني قبل المعطى التقني؟!

الشبكات الاجتماعية

نشرت العديد من التقارير والدراسات التي تحاول تفسير ظاهرة انتشار شعبية الشبكات الاجتماعية في الآونة الأخيرة، حيث عزى موقع webmarketinggroup البريطاني شعبية هذه المواقع إلى العزلة الاجتماعية التي فرضها نمط الحياة العصرية، فالجلوس أمام شاشة الكمبيوتر والتسجيل في هذه الخدمات التي تتيح

بالرغم من فوائد الخصوصية، فإنه يمكن القول إنها تركيبة لا اجتماعية. فهي تعترف بحق الفرد مقابل أيّ شخص آخر في أن يقرر ما يكشفه عن نفسه، وهو ما قد يتعارض مع قيم هامة أخرى داخل المجتمع مثل مصلحة المجتمع في تسيير حرية التعبير ومنع الجريمة

للمستخدم أن يتواصل مع زملائه وأقاربه وأهله ومجتمعه عبر هذه المواقع قد يكون أفضل بديل عن التواصل الإنساني المباشر، نظرا لمساحة الرأي التي تتيحها هذه الخدمات.

كما اتضح لعدد من الباحثين الاجتماعيين في العالم العربي أن مساحة الرأي وحرية المواقف هي إحدى أهم أسباب انتشار خدمات الشبكات الاجتماعية بين المستخدمين العرب على الإنترنت، فرغم أن البعض وجه انتقادات للسلبيات التي تطرأ من استخدام هذه المواقع وعدم الاستفادة الحقيقية منها، حالها كحال أيّ تقنية جديدة تطرأ على مجتمعاتنا، إلا أن الشواهد الواقعية تشير إلى وجود عدد غير قليل من المستخدمين الذين استطاعوا تسييس هذه المواقع لخدمة قضاياهم.

خلاصة

يتسم المجتمع الرقمي (الافتراضي) بتوافر كل متطلبات المجتمع الديمقراطي (المشار إليه في البداية) حيث يعتمد على الكفاءة والذكاء وهما لا يورثان كما تورث الممتلكات في المجتمع الواقعي، هما مكتسبان وتخلقهما الذات المبدعة وتمنحهما آفاق تطورهما. وبالتالي تتوفر المساواة والعدالة سواء في توافر المعلومات أو البحث عنها وإعادة إنتاجها، والتنمية بالتالي (سواء بالتعليم أو البحث الحر).

وقد بينت استطلاعات للرأي العام من خلال شبكة الإنترنت ومن خلال مقابلات أجريت في الوسط العربي أن الإنترنت يعتبر ساحة لحرية الرأي والتعبير أكثر من الإعلام الاعتيادي، خصوصاً مع فترة انتشار الإعلام الإلكتروني على شبكة الإنترنت، وبينت استطلاعات أخرى أجريت لاحقاً في الوسط العربي أن هذه المساحة من الحرية والتعبير على شبكة الإنترنت قد تراجعت كثيراً في وسطنا العربي لما تقوم به بعض الحكومات العربية من مراقبة شديدة وصارمة على الصحف والمجلات ووكالات الأنباء العربية والكتاب «الرقميين» ومنهم المدونون العرب.

كاتب من مصر

السرد والهيمنة الأبوية

التفكر في حراثة المفاهيم

هشام الماحوزي

كل فرد مجبول على الحرية. وبما أن المسارات الأبوية التي تفرض على الأبناء -أيًا تكن أهدافها حسنة النوايا- فهي على الضد من انعتاق الفرد مفاهيمياً، وتحقيق ذاته بعيداً عن الظل الأبوي الذي أحاطه. والمقصود بالمسارات الأبوية هنا هو الحمولة المفاهيمية التي كوّنها الأب عن الحياة والوجود واشتباكات الواقع مع الفرد والتي تسيل إلى لاوعي الابن خلال فترة القيمومة الأبوية، مشكّلة نظرته الأولية (أي الابن) لأبسط أموره اليومية والمعيشية. سيكون السرد العضوي المرتبط بذات الإنسان والنابع من ذاته لا المفروض من الخارج هو الوسيلة التي بها تُخبِر الذات عن حالها في خضم صراعها مع الحياة والواقع، في محاولة لتحرير محلّ النزاع بين الرغبات المفروضة وإرادة الفرد وحريته.

لاتشكل الهيمنة الأبوية ومحاولة كسرها مجرّد محاولة عبثية للتمرد والإنكار، بل هي أحد أشكال ردّ الجميل والبرّ للرعاية الأبوية عبر الخروج من النسق الذي رسم حياة الابن طيلة فترة نضجه، خروج من هذه الشرنقة يمثل المنعطف الأول لكبح جموح طموحات الهيمنة التي لا ينبغي لها أن تمتد لتحيل صورة الابن مسخاً أو صورة تكرارية لاستيهامات (fantasm) وطموحات المُهيمِن غير المتحققة، وروح العصر التي طبعت وصبغت النزعات والرغبات والميول الأبوية النفسية والفكرية والحالة المزاجية، واستزراعها في أرضية بكر خصبة (أرضية الابن) لجبر آمال لم تستطع تحقيقها الهيمنة الأبوية إبان شبابها، وقد يكون للمفارقة أن يكون العصيان الفكري أقصى تجليات البرّ وردّ الجميل عبر تحرير النوازع العقلية والخيارات الشخصية وذائقة الفرد. هكذا تمرّد وعصيان إذن غير موجّه إلى ذات الأب بما يمثله كرمز للكيان الأسري، وإنما هو تمرد موجّه نحو تلك الاستيهامات التي يرغبها الأب ولا تنتمي بالضرورة إلى رغبة الابن وهواجسه وميوله الذاتية. إذن وكنتيجة مقابلة لهذا العصيان يكون الانغماس في الهيمنة الأبوية (الهيمنة هنا هي ما تمثّله النزعات والميول الأبوية ونظرتها للحياة وطريقة قراءتها وتعاطيها مع الواقع) شكلاً مفزعاً من أشكال العقوق، حيث تكون الملكة العقلية وملكة النقد معطلة في ظل الاستمرارية في الكنف الأبوي مع تفتق الوعي وإمكانية الخروج إلى الأفق الأرحب الذي تُمارس فيه الذات المفكرة رسم خياراتها، وتقييم مسارها وفقاً للملكة العقلية التي كانت في حالة ضمور ولن يكون بمقدورها النموّ طالما كانت تلك الملَكَة غير مفعّلة وخاضعة لهيمنة علوية ما.

الحقل الخالي

يمكن تشبيه العلاقة الموجودة في ظل الهيمنة الأبوية بين الأب والابن بمثال الحقل الخصب من جهة والحارث أو المزارع من جهة أخرى حيث يضاهي عقل الابن وتاريخه حقلاً خصبًا لكنه غير ذي زرع، حقلاً ذا قابليات متفاوتة وقدرات مختلفة في انتظار استكشافها وإماطة اللثام عنها، حقلاً ينتظر مَن يبذر فيه بذور الوعي التي منها سيزهر الحقل بنباتات ومحاصيل تحمل خصائص حسية وعقلية وفكرية ستكون ذخيرة وزادًا لهذا الفرد في حياته، بينما يضاهي دور الأب هنا في هكذا نوع من العلاقات وظيفة الحارث الذي يقوم بحراثة الأرض، إنها حراثة وسقاية في أرض بكر والنتيجة الحتمية لمحصولات هذا الحقل تعود بالدرجة الأولى إلى الأب لا الابن، وستكون هذه المحاصيل تحمل طعم ولون الخصائص الأبوية بالضرورة، حيث تمت غراسة المفاهيم التي ينتمي لها الأب في حقل الابن الخالي من الزرع. الحرث هنا إذاً يمثل أيديولوجيا الأب بامتياز* ويمكن رؤية ذلك اللون الفاقع من هذه الأيديولوجيا حاضراً في كثير من العلاقات القائمة بين الآباء وأبنائهم على امتداد البيئة العربية الإسلامية والمسيحية، التي على الرغم من احتواء أدبياتها وتراثها على الكثير من النصوص الحقوقية والأدبية والفقهية التي تضمن حق الأبناء على الآباء، التي تحضر بالتوازي مع حق الآباء على الأبناء، حيث إن هذه حقوق معترف بها، بينما تلك الموازية لها لم تزل حقوقًا مغيّبةً متواريةً وفي عداد اللامفكر عنه. *(انظر كتاب الباحث والناقد السوري إبراهيم محمود في حديثه عن غلواء هذه الأيديولوجيا في علاقتها مع الجسد الأنثوي في كتابه: الشبق المُحرَّم؛ أنطولوجيا النصوص الممنوعة-رؤية للنشر والتوزيع، ط٢، 2016).

ما حدث في مثال الحراثة والحقل أنه لم يُتَح هناك المجال لنموّ علاقة طبيعية بين الحقل الخصب والمزارع صاحب الحق في حقله (الابن)، لم يتم التمهيد للابن لتعلّم أصول الحراثة (التفكير والنقد والخيال الخلاق) ولم يكن له الخيار في بذر البذور فنتج عنه محصول (مُستزرع) لا ينتمي إلى (طبيعة ذاته)، محصول يحمل هويةً وخصائص مختلفةٍ عن خصائص الابن (المزارع الأصلي)، ومع أوان موسم الحصاد سيكتشف الفرد (الابن/ة) مع مضيّ الزمن أنه يحمل هويتين، هوية تخصه بذاته مخفية ومغطاة من قبل الهوية التي شكلها الأبويين أحدهما أو كلاهما، هما هويتان تنازع كل منها الآخر، هوية مكبوحة تمثّل الابن، وهوية منتصرة ظاهرة عينية قاهرة تمثّل هوية الأبوين أو أحدهما، أو بشكل أكثر دقة -استيهاماتهم (fantasm) وتطلعاتهم- تلك الهوية المهمّشة التي تمثل الذات يخبرنا عنها إدوارد سعيد في كتابه «خارج المكان» الذي سرد فيه طفولته ومراهقته وعلاقته مع أبويه قائلا «ثمة موضوعان ضامران في كتابتي هذا الكتاب، أولهما: انبثاق ذات ثانية كانت مدفونة لمدة طويلة جداً تحت سطح خصائص اجتماعية غالبا ما تُكتسب بواسطة العادة والإلزام وتنتمي إلى تلك الذات التي حاول أهلي تركيبها، وأعني بذلك 'إدوارد' الذي أتحدث عنه هنا بين الحين والآخر. وثانيهما: هي الكيفية التي أدّى بها عدد متزايد جداً من المغادرات إلى زعزعة حياتي من بدايتها الأولى».

يحلل الناقد العراقي عبدالله إبراهيم الطبيعة السردية لكتاب سعيد آنف الذكر عند حديثه عن علاقته مع ذلك المحضن الأبوي الذي نشأ فيه إدوارد سعيد وما تحكيه سردية سعيد هنا تتقاطع في الكثير من جوانبها مع نوعية العلاقات القائمة بين الأب العربي وابنه وإن اختلفت حدتها فيقول «رسم سعيد المحضن التربوي الأبوي الذي اختلق شخصيته وهو محضن خرّب البراءة الأولى وشتّت السوية الطفولية حينما أخضعها لمعايير أبوية معدة سلفًا فلم يكن المهم أن ينمو طفلاً على البداهة ويتفتح مكتسباً خبراته بالتدريج من الوسط الأسري والاجتماعي، إنما ينبغي عليه أن ينمو ممتثلاً لشروط تلك المعايير الجاهزة وما كان مهما أن تنمو له شخصية خاصّة، إنما أن ينصاع إلى سلسة لانهائية من الرّوادع والنواهي. وبهذه الطريقة اختُرعت شخصيته وتحدّدت علاقته

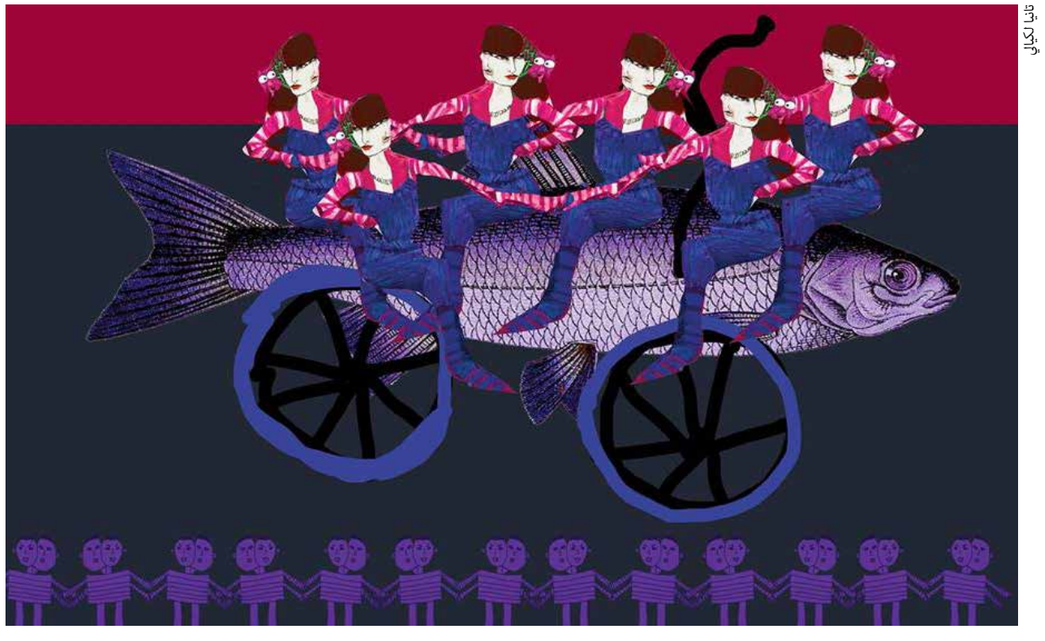

تانيا لكيلي

بالأمكنة التي عاش فيها، .....» (انظر: السرد، والاعتراف، والهوية - عبدالله إبراهيم-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-ط 2011).

العادات والتجارب

في ظل ثقافة ترسّخ مفاهيم مثل إحياء التراث والأخذ بتجارب الآباء وحكمتهم في الحياة وأسبقيتهم، يتم نكران حق الأبناء -بطريقة ضمنية لا تصريحية- في خوض تجاربهم وتشكيل وعيهم من التجربة عوضاً عن التقليد وركوب سيرة الآباء الأولين، أو كما في عبارة إمبرتو إيكو الطافحة بالدلالات «..... قوة التقاليد أكثر أهمية من التجربة الفعلية». (انظر:On Literature-Umberto Eco-Vintage books،edition 2006).

الأمر كذلك يصبح من الصعوبة على الأبناء كأفراد أو الشباب كجيل تحقيق ذواتهم ورغباتهم والحصول على استقلاليتهم، يحدث ذلك في ظل كون الآباء في أيّ مجتمع لديهم عادة سيئة ألا وهي شرعنة آرائهم عبر إحالتها إلى خبراتهم، مراكماتهم (accumulation) لتجارب حياتية ملموسة، والتي بديهياً هي أكثر مما راكمه الشباب، وشرعنة الآباء لتجاربهم في الحياة وخبراتهم بها يتم عبر سرد قصصهم، والتي تصبح بحكم الأسبقية كالقدر المسلّط الذي يجب على الأبناء مسايرته، وما أن يحيدوا عنه سوف تتم إحالتهم عليها لإثبات صوابية الآباء وخطيئة الأبناء في بحثهم عن الجِدّة ومحاولة تشكيل قصصهم ومروياتهم (انظر:Walter Benjamin-Selected Cambridge،1926-writings، volume 1:1913 University press).

العصيان مصدرا للاختلاف

لا تمكن ممارسة الحياة بطريقة آلية كالتي توجد في إعدادات التشغيل لجهاز كهربائي ما، كما أن التجارب والخبرات الحياتية لأيّ فرد مَا هي لصيقة بالمحيط الاجتماعي والحالة النفسية والبيئة الجغرافية والنزعات والميول الذاتية، فهي ليست وصفات جاهزة يتم من خلالها صقل الذات وملكاتها. هناك فقط مصهر الحياة الذي فيه يكون الوضع الطبيعي الذي منه تستقي الذات تجاربها ومنها تخوض وتشكل وتقاسي مساراتها وفيه تصهر شخصية الإنسان وكيانه عبر اكتساب التجارب الشخصية الحسية والذوقية والعقلية، تلك التجارب هي

في ظل ثقافة ترسّخ مفاهيم مثل إحياء التراث والأخذ بتجارب الآباء وحكمتهم في الحياة وأسبقيتهم، يتم نكران حق الأبناء -بطريقة ضمنية لا تصريحية- في خوض تجاربهم وتشكيل وعيهم من التجربة عوضاً عن التقليد وركوب سيرة الآباء الأولين

التي ستصوغ ذاتاً مختلفة، ذاتًا هجينة بعيدة عن التكرار والتقليد.

زراعة الذات

لا نقاش هنا حول مقاصد تلك الهيمنة، لكن محلّ النقاش هنا تجليات وآثار تلك الهيمنة التي لا يمكن كبحها بمجرد إرجاعها إلى القصدية (intentionality) الأولية للهيمنة مقابل غض الطرف عن تجلياتها وآثارها التي تترسّخ وتترسّب في وجدان الابن، ولهذا تعد الكتابة السردية الشكل المضاد للرغبات الأبوية، هي الخطوة الأولى لكتابة مسار مختلف، مسار ينبع من الذات بالأصالة، كتابة لم تُملى من قِبَلِ سلطة عليا تمارس القيمومة على الذات وصياغة المتن الحياتي لها، إذن هو السرد الذي يشكل أداة فاعلة أولى يستطيع معها الانبثاق ومعانقة الذات، السرد الذي يروم ذلك الجوهر الذي جُبلت عليه الذات وغُيّبت عنها -الحرية-، سردٌ يمارس فعل المقاومة ضد (الرغبات الأبوية المنسابة خلال فترة الهيمنة) ويزيحها ليحل محلها مرويته التي ستكون الوجه المرآوي لتطلعاته ورغباته ودهشته وانعكاساً أصلانيا (authenticity) لكينونته المتفردة، حيث نستشف أن مبادرة الذات لأخذ زمام سرد كينونتها هي وظيفة حيوية طبيعية -بيولوجية- من الخصائص التي تتصف بها ذات فاعلة واعية لتاريخها وكيفية تشكيله ونشوئه ورسم ملامحه خلال مسار الحياة اليومي، بينما عندما تكون الذات مسرودة لا ساردةً -مفعولا ًبها لا فاعلة- فهي حالة باثولوجية (pathologic) مرضية لا تتواءم مع خاصية الذات الحرة التي تعي أهمية نفسها. لهذا إن كان للسرد وظيفة بيولوجية كما يقول أرسطو ألا وهي رواية قصة ما «فإن تلك القصص التي نرويها هي الطريقة الرئيسية التي بها نضفي معنى على الأشياء سواء عبر التفكير عن حيواتنا كتطور يؤدي إلى مكانٍ ما أو عبر إخبار عمّا يحصل في العالم» (انظر: Literary theory، A very short introduction – Jonathan Culler Oxford University Press).

سعد بكر

كاتب من السعودية

شامندة

عبد الرحمن بسيسو

شَامِنْدَةُ
أيَّتُهَا النَّاريَةُ الْمُنْقَطِعَةُ النَّظِيرْ؛
أيَّتُهَا الْأُنْثَى الْمُضَاعَفَةْ؛
أَيَّتُهَا الْأَثِيلَةُ الْمُتَوَّجَةُ بِالسَّوسِنِ وَأَرِيجِ الشَّهَوَاتْ،
أَكْثِري الْمَرَايَا؛
أَكْثِريهَا،
وَخُذِي قَبْضَةً مِنْ تُرَابِي؛
خُذِي شَعْرَةً مِنْ رَمَادِ أَسْوَدِي؛
خُذِي قَطْرَةً مِنْ خُلَاصَةِ مَائِي،
وَآفْتَحِي شَهْوَةَ الْخَلْقِ عَلَى عُشْبَةِ الْأَزْرَقِ الْعَمِيقْ
هَلْ لِرَاحَةِ كَفِّي أَنْ تَكُونَ وَاحَةً لِرُوحٍ تَقْطُرُ بِحِلْمٍ أَخِيرْ،
وهَلْ لِي أَنْ أَكُونَ سَفِينَتَكِ إلى مَدَارَاتِ النُّجُومْ؟

* * *

هَلْ لِوَهْمِ تِلْكَ الشَّامةِ أَنْ يُدَاعِبَ عُرُوقَ الذَّهبْ
وهَلْ لأَصَابِعِ البَرْقِ أَنْ تُلْهِبَ جُمُودَ الماءْ؟

* * *

لبَرِيقِ الصَّوتِ أَنْ يَحْمِلَنِي إلى حَدَائِقِ أَفْرُودَيتْ،
إلى حمَّامِهَا السَّخِيِّ،
إلى رغْوَةِ الصَّابُون،
إلى رَنِينِ عِطْرٍ مُعَطَّرٍ بِحُنُوٍّ حَارقٍ ورَفِيفِ أَهْدَابْ.

* * *

لِمشْيَةِ البَلْقَاءِ أَنْ تُلْهِبَ رِيقَ اللَّاهثِينَ عِنْدَ مَدَاخِلِ الأَقْبِيةْ،
ولخَطْوِهَا اللاَّهبِ أَنْ يُجَاورَ خَطْوِيَ الرَّاحلَ فِي مَدَارَاتِ الْقِبَابْ
تِلْكَ عَلَامَةٌ تَقْتَرِبُ وَتَنْأى،
تُوْمِضُ وتَنْطَفِئْ،
وَعَلَى حَافَّةِ الْبَهْوِ تَهْوِي زَنَابِقُ النَّارِ شَرَارَاتِ رَحِيْق؛
وَشَذَى الرَّغْبَةِ يَتَضَوَّعُ،
مُنْسَكِباً،
مِثْلَ رِيقٍ سَاخِنْ.

* * *

الأَعْمِدَةُ المُنْتَصِبَةُ، والتَّمَاثِيلُ، والكُتُبُ، ولَوحَاتُ العَرضِ، ومِنَصَّاتُ الخِطَابةِ، ومَقَاعِدُ السَّامِعِينَ، والصُّورُ، والمَنَاضِدُ المُهْمَلَةُ، وبَقَايا الكُؤوسِ، وثُمَالاتُ الكَلامِ، وشُرُودُ راحَاتِ الأَكُفِّ، وآثَارُ المُلامَسَةِ، وحِكَاياتُ الأَمْسِ، وَبِدَاياتُ البَوحِ، والْمَسلاَّتُ الحَالِمةُ، والشَّوارِعُ الْمُقَنَّعةُ بِأَقْدَامِ العَابِرينَ، والْفَنَادِقُ المُتَطَاوِلَةُ، والْمَنَارَاتُ النَّاهِدةُ، وَتَنَانِيرُ الصَّبَايا، وَالْأَجِنَّةُ الْمُنْتَظِرةُ وَعْدَ التَّسْمِيَةِ في رَحْمِ أَشِيرَايِ، وَشَظَايا الْإِلهِ الْغَافِي فِي صَنَوبَرَةِ صُور، وَخُيُوطُ ذَاكَ الشَّالِ الفَرْعُونيِّ المَنْذُورِ، مُنْذُ أَولِ غُرْزَةٍ، لِكَنْعَانيٍّ مُتْعَبٍ

إسماعيل قاين

مَمْلُوءٍ بِالافْتِتَانِ الْأَنِيقِ، جَمِيعُهَا، إِلَّا وَاحِدَةً، تَتَرَاكَضُ لَاهِثَةً وَتَتَلَاقَى فِي خُيُوطِ عَبَاءَةٍ مَنْسُوجَةٍ مِنْ رَحِيقِ النُّصُوصِ، وحَرِيرِ الوُعُودِ، ورَحِيلِ الوقتِ؛ فَتَتَطَايرُ أَوْرَاقٌ صَغِيرةٌ تَحْمِلُ أَرْقَامَ هَوَاتِفَ، وَجَوَّالاتٍ، وَأَسْمَاءَ أَرْوَاحٍ مُهْمَلَةٍ تَنْشُدُ المُرُورَ.

* * *

أَيَادٍ، وَأَرْقَامٌ، وَأَوْرَاقُ رَنْدٍ صَغِيرةٍ، وَظِلالُ أَسْمَاءٍ، وَأَيَّامٌ، وَشَالْ.

* * *

وَحْدَي وَلَا أَحَدٌ سِوَاكِ!
لَمْ نَكُنْ نَمْلِكُ إِلَّا سِرَاجَ جَسَدٍ؛
إِلَّا شَهْوَةَ رُوحٍ؛
إِلَّا آرْتِعَاشَ حِكَايةٍ تَبْدَأُ وَشَوقَ خُطْوةٍ تَلْهَجُ بِسُؤَالٍ أَخِيرْ.

* * *

شَامِنْدَةُ
أَيَّتُهَا النَّارِيَةُ الْمُنْقَطِعَةُ النَّظِيرْ؛

أيَّتُهَا الْأُنْثَى الْمُضَاعَفَةْ؛
أَيَّتُهَا الْأَثِيلَةُ الْمُتَوَّجَةُ بِالسَّوسِنِ وَأَرِيجِ الشَّهَوَاتْ،
أَكْثِرِي الْمَرَايَا؛
أَكْثِرِيهَا،
وَخُذِي قَبْضَةً مِنْ تُرَابِي؛
خُذِي شَعْرَةً مِنْ رَمَادِ أَسْوَدِي؛
خُذِي قَطْرَةً مِنْ خُلَاصَةِ مَائِي،
وَآفْتَحِي شَهْوَةَ الْخَلْقِ عَلَى عُشْبَةِ الْأَزْرَقِ الْعَمِيقْ.

* * *

يَا لَلُجَّةِ بَلْقِيسْ
يا لَلْمَرَايَا اللُّؤْلُؤِيَّةِ الْمُزَنَّرَةِ بِرَتِينِ الْوُعُودْ،
تَمَهَّلِي؛
لَا تَخْلَعِي عَنْكِ رِيشَ الفَرَاشَةِ حَتَّى أُكْمِلَ الْبَوحْ،
تَمَهَّلِي؛
لَا تُرَاوِدِي جَبِينِيَ الْمُتَوَثِّبَ حَتَّى أُحْسِنَ التَّأَهُّبَ
لِلَحظَةِ الْمُنَادَاة،
تَمَهَّلِي؛
لَا تَنْزَعِي عَنْكِ أَقْرَاطَ الْكَلَام؛
وَلَا تَحُلِّي الضَّفَائِرَ؛
وَلا تَمُدِي يَدَكَ اللَّاهِبَةَ صَوبَ ضَوءِ الْحَافَّةِ قَبْلَ أَنْ
تُكْمِلِي حِكَايَةً تَتَوَالدْ.

* * *

- هَلْ لَكِ فِي قَدَحٍ مِنْ عُصَارَةِ الزَّنْبَقِ وَزَهْرِ
الدَّيجُورْ؟
- هَلْ لَكَ فِي فَضٍّ فَصِيلَةٍ مِنَ الْجِنِّ وَفِي امْتِطَاءِ
صَهْوَةِ صَهِيلٍ خَاشِعْ؟
- هَلْ لِدَمِ الْعَذْرَاءِ أَنْ يَدْفُقَ سَخِيًّا سَاخِناً مِنْ
عُرُوقِ العَذَارَى الْكَامِنَاتِ عَلَى حَافَّةِ كُلِّ مَسْعَى؟
- هَلْ لَكَ أَنْ تُواصِلَ الرَّحِيلَ فِي «نَوَاعِيرِ
الذَّاكِرةِ» سَاعِياً وَرَاءَ تَسْمِيَةٍ مَجْنُونةٍ شَارِدَةٍ، أَو رِوايَةٍ
بَتُولٍ، لَمْ يُسَمِّهَا أَحَدٌ بَعْدُ؟
- هَلْ لَكِ أَنْ تَعْصُرِي الْعَنَاقِيدَ الْآتِيَةَ لِتَوِّهَا
مِنْ كُرُومِ الْمَسِيحِ، وَأَنْ تُرَاقِصِي عَفَارِيتَ مُتْعَةٍ تَمُورُ،
لَذِيذَةً، فِي نَبِيذِي؟
- هَلْ لِلْمُتَسَمِّرِينَ عَلَى حَافَّةِ الْمَصَاعِدِ أَنْ
يُفْسِحُوا الطَّرِيقَ أَمَامَ خُطُواتٍ تُفْضِي إِلَى بَهْوٍ قَدِيمٍ
يُفْضِي إِلَى حَلَبَةٍ عَالِيَةْ؟

* * *

آهٍ؛
ثُمَّ آهٍ؛
ثُمَّ آهٍ؛
ثُمَّ آهْ:
أَيَّتُهَا النَّمِرَةُ الْمُبَرَّأَةُ،
أَيَّتُهَا الْمَجْدَلِيَّةُ الطَّالِعَةُ مِنْ إِنْجِيلِ التَّنَهُّدِ،
لَا بَيتَ لَكِ مِنْ زُجَاجٍ
وَالْخُطَاةُ الْمُسْتَنْفِدُونَ الْحِجَارَةَ لَا يَمْلِكُونَ الْحَصَى.

* * *

شَامِنْدَةُ
أَهِيَ لَحْظَةُ الْمُبَادَأَةُ أَمْ هُوَ وَقْتٌ لِلْبَوحْ؟
لَا عَلَيكِ،
لَا عَلَيكِ،
لَا عَلَيكْ،
لَا تُجيبي، لَا عَلَيكْ؛
الْأَشْرِعَةُ مُشْرَعَةٌ وَالقَوَارِيرُ مَخْتُومةٌ بِدَمِ القَرَابِينْ
فَاشْرَعِي فِي فَضِّ زَرَّاتِ الْهَوَاءِ،
وَآفْرِدِي شَالَكِ لِاشْتِهَاءَاتِ الْهَوَى.

* * *

الشَّالُ المُتَوَارثُ مُنْذُ حَوَّاءَ، وعَنْهَا، يَقْبَعُ الآنَ
في خَزَائِنِ الفَرْعُونِيَّةِ المُتَأَهِّبَةِ «إِيْزِيسْ»، بَيْنَمَا
«أُوزُورِيسُ» نَظِيرُ «أَيلٍ» الْكَنْعَانِيِّ قَابِعٌ فِي رَحْمِ
«صَنَوبَرَةِ صُور» مُنْتَظِراً رَنِينَ أَجْرَاسِ الْمِيلادِ لِيُلَبِّيَ
نِدَاءَ «إِلِيسَارَ» الْفِنِيقِيَّةِ سَلِيلَةِ الْكَنْعَانِيَّةِ «آنَاتٍ»،
وَنَظِيرةِ «أَفْرُودِيتِ» الْإِغْرِيقِيَّةِ عَاشِقَةِ الْفِنِيقِيِّ
الْمُتَأَغْرِقِ «أَدونيسَ» نَظِيرَ الْكَنْعَانِيِّ «بَعْلُ بن أَيل»
والسُّومَرِيِّ البَابِلِيّ «تَمُوز»، وَذَلِكَ كَي يَتَمَكَّنَ مِنْ
إِعَادَةِ تَرتِيبِ أَعْضَائِهِ وَخَلَايَاهُ لِيَعُودَ، مُلْتَحِماً بِهُوِيَّتِهِ
المُتَجَدِّدَةِ، إِلَى إِيْزِيسِهِ الْغَالِيَةِ: شَامِنْدَة.

* * *

الشَّالُ الْمُتَوَارَثُ مُنْذُ حَوَّاءَ،
وَعَنْهَا،
يَسْكُنُ الْآنَ
خَزَائِنَ الْمَعْبَدِ
مَسْكُوناً بِأَسْرَارْ

الشَّالُ الْخَارِجُ لِلتَّوِّ مِنْ خَزَائِنِ الْمَعْبَدِ،
يُلَوِّحُ لِحَالِمةٍ تُسَامِرُ أَحْلَامَ اللَّيلِ،
وَتُعَلِّقُ عَلَى شُرْفَةِ «بِيرَامِيزا» الْعَالِيَةِ
أَحْلَامَ الْمَفْتُونِينَ بِأَحْلَامِهَا.

الشَّالُ الحَامِلُ أَحْلَامَ المفتونينَ بِأَحْلَامِ الحَالِمَةِ،
فَرَسٌ مُجَنَّحٌ يَعْلُو،
ثُمَّ يَعْلُو،
لِيَضْفُرَ نُجُومَ السَّمَاءِ قِلَادةً
تَلِيقُ
بِغَزَالَةٍ
مِنْ
نَدَى.

الشَّالُ يَهْبِطُ عَلى جَنَاحِ غَيمَةٍ
مُتَوَسِّلاً
سَاعِدَ شَامِنْدة.

الشَّالُ عَلَى سَاعِدِ شَامِنْدة،
فَرَسٌ مَحْمُولةٌ عَلَى صَهِيلِ بَحْرٍ
يَشْهَقُ
مُسْتَصرِخاً
أَحْصِنةَ النَّارِ،
وأَحْصِنَةَ التُّرابْ.

الشَّالُ يَصْعَدُ مَحْمُولاً عَلَى رَنِينِ الشَّهَقَاتِ
لِيُلْقِي حُمُولَتَهُ المُعَطَّرَةَ
على شَرَاشِفَ بَيضَاءَ
تُضِيئُهَا
قَطَرَاتٌ
مِنْ نَبِيذٍ
وَنَدَى.

و»عِنْدَ آخِرِ مَدَى مِنَ الصُّبْحِ الْوَلِيدْ»،
كَانَ الشَّالُ،
شَارَةَ رُوحَينِ،
تَوَحَّدَتَا،
مُرَفْرِفَتينِ،
فِي جَسَدٍ،
وَحَّدَهُ الْعُرْيُ.

وَكَانَ الشَّالُ جَسَدَينِ
تَسْكُنُهُمَا
رُوْحٌ
وَاحِدَةٌ
تَرْنُو إِلَى وِسَادَةٍ صَغِيرةٍ
تَنَامُ فِي هَدْأَةِ سَرِيرٍ
يَتَأَهَّبُ
لِرَحِيلٍ بَعِيدْ.

***

أَحْمِلُكِ فِيَّ صَاعِداً قِمَّةَ التَّلامُسِ،
شَامَةً مُجَلَّلَةً،
بِظُهُور يُخْفِي،
وخَفَاءٍ يُظْهِرْ.

وَالشَّالُ فِي ذَاكِرَةِ شَرَاشِفِي،
الْمُبَلَّلَةِ بِالنَّصَاعَةِ،
مَهَاةٌ بُرْتُقَالِيَّةٌ تَنُوسُ بَينَ كَتِفٍ،
وَعَينْ.

وَالْمَهَاةُ الرَّاحِلةُ فِيَّ،
لا تَنِي تَعْبُرُ طُرُقاً مُسْتَقْوِسَةً،
مُتَعَدِّدةَ الْأَعْمَاقِ،
وَالْأَلْوَانِ،
وَالْأَمْزِجَةْ.

وَالرَّاحِلَةُ فِيَّ مُسْتَودِقَةً شَرَارَ النَّارِ؛
وَأَحْصِنَةَ التُّرابِ؛
وَأَشْرِعَةَ النَّدَى؛
لَا تُرَاوِدُ الرَّاحِلِينَ خَلْفَ عَبِيرِ خُطُوَاتِها بِلا قُمْصَانْ.

وَالْمُسْتَودِقَةُ شَرَارَ النَّارِ وَأَحْصِنَةَ التُّرَابِ؛
الْمُبَرَّأَةُ عَنْ مُرَاوَدَةِ الرَّاحِلِينَ،
وَدِيقٌ ونَوَارٌ؛
شَمُوسٌ لَا تَسْتَعْجِلُ الْمَاءَ؛
وَلَا يَرُوقُها خُمُودُ الْجَذْوَةِ؛
وَلَا تَعْقِدُ رَحْمَهَا عَلَى مَاءٍ غَرِيبٍ؛
وَلَيسَ لِوِرْدِهَا إِلَّا سَاكِبُ الْمَاءِ؛
وَوُرْدَةُ سَرِيرِ الْحَبِيبْ.

وَالْمُسْتَودِقةُ أَشْرِعَةَ النَّدَى؛
الفَاتِحَةُ فَنَاجِينَ الشَّهْوَةِ،
وَالْقَارِئَةُ أَحْوَالَ كَوَاكِبِ الْمَنَازِلِ وَالْبُرُوجْ،
لَا تَنُوسُ بَينَ ظِلَّينِ؛
وَلَا يُلْفِتُهَا تَهَافُتُ هَاوِينَ؛
ولا تَسْتَقْطِرُ غِوَايةَ فِتْنَةٍ هَارِبةْ.

***

نَاشَدْتُ شَامِنْدَة أَنْ أُوبِي إِليَّ،
وعُودِي إليكِ،
وكُوني أناكِ،
تَكُونِي أَنَاي.

***

ابْتَهَلْتُ واسْتَسْقَيتُ وَسُقْتُ الْقَرَابِينَ، وَأَرْسَلْتُ نَفْسِيَ
خَلْفَ شَامِنْدَةَ عَلَى بُرَاقِ حَنِينٍ ذَا صَهْوَةٍ وقَطَاةٍ،
وَحِينَ حَلَّتْ الشَّمْسُ فِي رَأْسِيَ، حَلَّتْ «إِلَاهةُ» فِي
القَطَاةِ تَضُمُّنِي وَتَسْتَحِثُّ صَهْوَةَ خُطَايَ، وَتُهْطِلُ عَلَى
أَرْضِيَ لَأَلِئَ ذِكْرَى، وَحِنطَةَ كَلامٍ:

شَامِنْدَةُ الْمُجَنَّحةُ،

الرَّاحِلَةُ فِي الرَّبَابِ،
لَا تُسْكِرُهَا مُلُوحَةُ جَسَدٍ،
وَلَا تَحْمِي خُطُواتِهَا البَلْقِيسِيَّةَ ظِلَالُ أَعْشَابْ.

شَامِنْدَةُ الْقَابِضَةُ أَنَامِلُهَا عَلَى الزَّبَرْجَدةِ الْخَضْرَاءِ،
لَا تَبْحَثُ عَنْ سَيفٍ يَذْبَحُهَا،
لِتَحْيَا.

شَامِنْدَةُ الرَّاحِفَةُ؛
الْمَذْهُولَةُ الْجَسَدِ،
لَا تُحِبُّ الازْدِوَاجَ،
وَلا تَلْهَثُ وَرَاءَ وَرْدَةٍ مِنْ ذَهَبٍ
«تَلْتَمِعُ»
عَلَى جَسَدٍ
لَا يُضِيئُ.

شَامِنْدَةُ الْمُحَلِّقةُ في غَمَامَةٍ مَفْتُوحَةِ الشُّرُفَاتِ،
لَا تُلْمِلمُ شَظَايَا السَّرَادِيبِ؛
وَلَا تَتَمَاهَى بِتِمْثَالٍ أَصَمٍّ؛
وَلَا تَقْصُرُ جَوهَرَهَا عَلَى بَقَايَا
أَيْقُونَةٍ جَامِدَةٍ،
أَوْ قِنَاعٍ نَقِيضْ.

شَامِنْدَةُ الطَّالِعَةُ مِنْ زَنَابِقِ الْحَيَاةِ،
لا تُمَاهِي نَفْسَهَا بِغَيرِ صَاحِبِ شَالِهَا الفَرْعُونيِّ،
الْمَحْمُولِ عَلَى قَصِيدَتِها،
مُزَنَّراً،
بِطَعَامِ الآلِهَةِ؛
وَالدُّرِ،
وَأَهَازِيجِ التَّمَاهِي.

***

حِينَ تَسْكُنُ شَامِنْدَةُ مِرْآةَ حَبِيبِهَا وَتَحُلُّ فِيهِ مَأْخُوذَةً
بِصَوتٍ يَسْكُنُ صَوْتَهَا، وتُؤْخَذُ بِهِ، لَا يَصِيرُ السَّوَادُ جُزْءاً
مِنَ الْمَدِينةِ، وَالأَشْجَارُ لَا تُصْبِحُ غَيرَ آمِنَةٍ، وَالنِّسَاءُ لَا
يَفْقِدنَ الْأَمَانِ.

***

وَحِينَ يَحُلُّ فِي الْمَدِينَة حِصَانٌ مُجَنَّحٌ أو بُرَاقٌ ذُو
صَهْوَةٍ فَارِسٍ وَقَطَاةِ رَدْفٍ، لَا تَتَصَدَّعُ مَرَايَا، وَلَا تَنْتَحِرُ
أَحْزَانٌ عَلَى شِفَاهٍ، وَلَا تَحْفُرُ أَصْوَاتٌ سَرَادِيبَ مُعْتِمةً
فِي دَيَامِيسِ رُوحٍ تَنْشُدُ رُوُحَهَا.

***

شَامِنْدَةُ الْمَحْمُولةُ عَلَى رَاحَةِ كَفِّي،
تُقَطِّرُ أَحْلَامَها فِي خَلَايَايَ؛
فَتَمْلَأُنِي بِي؛
وَتَشْرَبُ نَبِيذِي.

***

شَامِنْدَةُ الرَّائِيَةُ شَامَةَ الْقَلْبِ رُمَّاناً وَرَنْداً يَحْرُسَانِ
شَامَتِي، لا تَنِي تُلَاحِقُ نَوَارِسَ الْبَيَاضِ تَحْرُسُ خَمِيلَةً
مُثَلَّثةً ذَاتَ فُرْجَةٍ تَرْبُضُ عِنْدَ قَوسِ الْجَمْرَاتِ مُنْتَظِرَةً
قُدُومَ رُمْحِي.

***

شَامِنْدَةُ الَّتي ربَّتَ السَّيدُ الأَعْلَى عَلَى سَاعِدَيها بِرِقَّةِ
نَبِيٍّ، تَرْحَلُ فِي الْبَعِيدِ كَي تَدْنُوَ؛ وَبِبُطْءٍ مُتَعَجِّلٍ، تُعَرِّي
عُرْيَها، وَتَخْتَبئُ، مُورِقَةً، فِي غُصُونِي.

***

شَامِنْدَةُ الَّتي دَخَلَتْ رِحَابِي سَحَابةً حَسَنِيَّةً مِنْ تَوَقٍ
لَاهِبٍ، أَشْعَلَتْ سَاعِدَيَّ وَسَمَّرَتْنِي وَأَوقَفَتْ قَلْبِيَ فِي

مَقَامِ الْوَلَهِ وَأَوْمَأَتْ إِليَّ أَنْ أَدِّي فُرُوضَ الْعِشْقْ.

* * *

عَرَّتْ شَامِنْدَةُ عُرْيَهَا الْخُلَاسِيَّ الْغَامِضَ، وَعَلَّقَتْ شَالَهَا عَلَى بُرُوجِ الرَّغْبَةِ، وَعَلَى عَنَاقِيدِ الْكَرْمِ مَشَتْ عَنَاقِيدُ خُطُواتِهَا نُجُوماً أَلْمَاسِيَّةً تَعْصُرُ الْغَيمَ غِوَايَةً وَرَنِينَ شَوقٍ يَشُقُّ أَجْنِحَةَ الْفَرَاشَاتِ وَيُرْسِلُ الْأَحْلامَ أَشْرِعَةً مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَعَقِيقٍ، وبَنَفْسَجٍ حَزِين.

* * *

شَامِنْدَةُ»:

أَيَّتُهَا الفَرَسُ البَنَفْسَجِيَّةُ المَسْكُونةُ عُيُونُهَا بِحُزْنٍ بَهِيجٍ يُهَيِّجُ شَوقَ شِفاهٍ يُعْطِشُهَا الشَّوقُ إِلَى يَنْبُوعِ الْحَلَمَاتْ؛ إِسْقِنِي لُبَاءَ حَلِيبَكِ وآشْرَبِي لُبَّ طُفُولَتِي وَحَنِينِي.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا السَّحَابةُ الشَّاهِقَةُ الْمُسَافِرَةُ فِي سَمَاواتِ الرَّوَابِيَ؛ آسْتَدْرِجِي غَنْغَنَةَ طُفُولَةٍ لَا تَغِيبُ، وَآسْتَجِيبِي لِعَطَشِ مُهْجَةٍ تَأْمُرُ وَلَا تَأْتَمِرُ فَلَا تُنْهِي وَلَا تَنْتَهِي.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا الشُّعَاعَةُ السَّمَنْدَلِيَّةُ المَقْبُوسَةُ مِنْ شُعْلَةِ الْخَالِدِينَ؛ سَدِّدِي سُنْبُكَ شَرَارَاتِك صَوْبَ غُرَّةِ سَاكِبِ الْمَاءِ، وآكْسِرِي سَوْرَةَ الْبَرْدِ، وَصَيِّرِي يَنَابِيعَ اللَّذَّةِ مَجَامِرَ بُرُوجَ تُشْعِلُ الْجَمْرَ فِي كِنَانَةِ رُمْحِي.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا الْأَلْمَاسَةُ الشَّفِيفَةُ الْمَمْسُودَةُ الْقَدِّ؛ مُسِّي شِفَاهَ الْعَاشِقِ، خَفِيفَاً، وَآنْشُرِي شُعَاعَاتِكِ القُزَحِيَّةِ رُضَابَاً فِي فَمِ الإِلْفِ، وَتَنَسَّمِي رَحِيقَ الْحَنِينِ أَنْفَاسَ كَوْاكِبَ تَائِهةٍ فَارَقَتْ مَنَازِلَهَا وَعَنْ بُرُوجِهَا نَأَتْ فَأَنَأَتْ.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا الشَّمْسُ الإِلَاهَةُ الضِّحُ الْجَوْنَةُ الْبَيضَاءُ الْغَزَالةُ الْجَارِيَةُ السِّرَاجُ الشَّرقُ، البَرَاحُ والبَوحُ؛ شَعْشِعِي ضَوْءَكِ فِي سَمَائِي، وَسَيِّرِي فِي عُرُوقِي صَهِيلَ مُهْرَةٍ شَامِنْدِيَّةَ الْقَدِّ وَالقَوَامْ.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا الْأُنْثَى الْفَوْضَوِيَّةُ الرَّشِيقَةُ الْمُعَطَّرةُ بِأَرِيجِ قَصِيدَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ؛ إِضْفِرِي الثَّمَانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ كَوكِبَاً وَالتِّسعَ كَوَاكِبَ فِي شَمْسَةِ قِلَادَةٍ بُرتُقَالِيةٍ تَزْهُو عَلَى تَرَائِبِ جُرْمٍ صَغِيرٍ تَوَحَّدَ فَطَوَى فِي أَعْمَاقِهِ رَحَابَةَ كَونٍ رَأْسُهُ وَيَدَاه صَوْبَ مَشْرِقٍ ومَغْرِبٍ وشَمَالٍ وَظَهْرُهُ إِلَى شَمَالٍ وَمَغْرِبٍ وَجَنُوبْ.

* * *

آهٍ ... ثُمَّ آهٍ... ثُمَّ آهٍ .. وَهَيتَ لَكِ ..

أَيَّتُهَا السَّمَكَةُ النَّارِيَّةُ؛

الْمُذَنَّبَةُ؛

الْحَاضِنَةُ،

فِي إِهَابٍ،

سَبْعَاً وَثَلَاثِينَ كَوْكَباً، وبُرْجَين.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا الْفَرَسُ الْفَرَاشَةُ؛

السِّرَاجُ الشَّرْقُ؛

الْأَلْمَاسَةُ الشَّمْسُ؛

الْغَزَالَةُ الْجَارِيَةُ الْبَرَاحُ.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا السَّمَكَةُ؛

الْخُلَاسِيَّةُ؛

السَّحَابَةُ الْمُكَلَّلَةُ؛

الْمَهَاةُ الْإِلَاهَةُ؛

الضِّحُ البَيْضَاءُ.

* * *

شَامِنْدَةُ:

أَيَّتُهَا الْأُنْثَى الْأَثِيلَةُ؛

الشَّامَةُ؛

الشَّفَاهِيَّةُ الْمَشْفُوهَةُ:

- هَلْ لِخَبْطِ أَجْنِحَةِ شَافِهٍ عَلَى حَافَّةِ نَبْعٍ أَنْ يَسْتَكْرِمَ كُنُوزَ خُلَاسِيَّةٍ عَنُودٍ مَخْتُومَةً بِحَلَمَتَينِ مِنْ رُحَاقٍ وَعُنَّابْ؟

- وَهَلْ لِشَفَتَيِّ الشَّهْوَةِ تُوَشْوِشَانِ رَأْسَ رُمْحٍ مُشَعْشَعٍ تُهَيِّئِينَهُ لِوُلُوجِ عَتْمَاتِ أَقَاصِيكِ أَنْ تَكُونَا نِبْرَاسَ طَرِيقٍ، وَبُرَاقَ مِعْرَاجٍ لِسَارِيِينَ عَلَى سُدَّةِ حُلْم؟

* * *

آهٍ ... ثمَّ آهٍ ... ثمَّ آهٍ ... وهيتَ لك

يَالَتِلْكَ الْوَقْبَةِ تَعْقِدُ شُرَّافَاتِ جَوْهَرٍ

يتجَلَّى فِي جُرْمٍ

مِنْ عَقِيقٍ،

وَعَاجْ.

يَالَتلْكَ السُّرَّةِ تَضُمُّ سَرَارَ الْأَسْرَار،

وَأَسْرَارَ الشَّال.

يَالَتِلْكَ الرُّوحِ الشَّامِنْدِيَّةِ

تَأْتِي مِنْ أَزَلٍ

يُطِلُّ

عَلَى أَبَدْ.

يَا لَرِقَّةِ أُنُوثَةٍ تُلْهِبُ فِتْنَتُهَا ذُكُورةً كَامِنَةْ.

يَا لَصَهِيلِ هَذَا الْجَسَدِ

الرَّاكِضِ

خَلْفَ سَحَابةٍ

تَسْتَصْرِخُ حِصَانَ النَّارِ

في بَرَارِي اللَّهْفَةِ.

وَيَا لَرَوعةِ الاسْتِعَارةِ الْمُلْتَحِمَةِ فِي مَجَازٍ كَثِيفٍ يُضَلِّلُ الصَّائِدِين.

* * *

شَامِنْدَتِي:

لَا يُضِيءُ الْعَتْمَةَ إِلَّا حَالِمٌ بِنُورٍ،

وَوَحْدَهَا أَصَابِعُ اللَّهْفَةِ تُشْعِلُ السَّرَادِيبَ؛

تُمَوِّجُ بَحْرَ الْكَلَامِ؛

تُلْهِبُ الرَّوْحَ؛

وَتُجَوهِرُ الْجَسَدْ.

* * *

شَامِنْدَتِي:

ضَعِي شُمُوسَكِ وَأَقْمَارَكِ فِي جِرَارَكِ،

وبكِّرِي بِالْمَجِئْ؛

بَكِّرِي بِالْمَجِئْ؛

بَكِّرِي بِالْمَجِئْ:

لَا تَسْأَلِي عَمَّا مَضَى؛

لَا تَسْأَلِي عَمَّا يَجِيءْ،

يَغْدُو الزَّمَانُ كَبُرْهَةٍ خُطِفَتْ لِتَسْبَحَ فِي تَوَهُّجُــكِ الْمُضِـــيئْ!

* * *

وَحْـدِي أُرنِّـمُ إِيْقَـاعَ نَـارِكْ
وَحْدِي أُعَانِقُ طَقْسَ الْغِيَابْ
فَأَرْسُمُكِ وَشْماً عَلَى شَامَةٍ
وَأَعْزُفُكِ لَحْناً وَرَاءَ السَّحَابْ.

* * *

شَامِنْدَتِي:
أَيَّتُهَا الشَّامَةُ الْمُضِيئَةُ،
فِي جِرَارِكِ عَتِّقِي الْشَّمْسَ،
وَكُونِي نَجْمَةَ رَحِيلْ.
تَزَيَّنِي بِاللَّآلِئِ وَأَعْشَابِ الْبَحْرِ،
وَعَتِّمِي اللَّيلَ،
عَتِّميهِ،
عَتِّميهْ،
وَانْسَرِبِي فِي نَسِيجِكِ الخَالِدِ،
وَبِيَمِينِكِ خُذِي قَوسِيَ،
وَسَدِّدِي سَهْمِيَ،
وَانْسُجِينِي:
وَرْدَةً، أَو رَحِيقَا؛
قُبَّةً، قِبْلَةً، أَو طَرِيقَا:
فَجِّرِي مَائِي بِنَارَكِ،
أُدْخُلِينِي وَآدْخِلِينِي،
أَصِّلِي فِيكِ كُمُونِي،
أَوْرِقِي غُصْنَاً عَلَى جِسْمِينِ فِي جَسَدٍ،
وَكُونِي،
قَنْجَمَةً
لِلْعِشْقِ أَعْشَقُهَا

وَلَيلاً لِلْجُنُونِ ...

* * *

شَامِنْدَتِي:
أَيَّتُهَا الْأَبَدِيَّةُ الصَّغِيرَةُ،
أَتَوَسَّدُكِ وَأُولِجُ فِي مَدَارَاتِكِ الوَاسِعَةِ،
وَلا أَصِلْ.
أُوغِلُ فِي مَضَائِقِكِ؛
فِي فَضَاءَاتِ عَتْمَتِكِ الْمُضَاءَةِ بِلَهِيبِ نَارِكِ،
وَلَا أَصِلْ،
لَا أَصِلْ،
فَبُنَّي مُوسِيقَاكِ تَحْتَ أَقْوَاسِي،
فِي ثُمَالَةَ كَأسِي الأخير،
وَفِي سَمَاوَاتٍ عِلِّيةٍ عَالِيةْ،
وَدَعِي أَصَابعَ اللَّهفة
تَعْزِفُ
حِكَايَةَ حَيَاةٍ
عَلَى أَوتَارٍ
مِنْ رَحِيقٍ،
وَنَدَى!

* * *

شَامِنْدَتِي
هَلْ أَنْتِ شَارَتِي؟
هَلْ أَنْتِ شَامَتِي؟
هَلْ أَنْتِ سَوسَنُ شُرْفَتِي؟

شاعر وناقد من فلسطين مقيم في براتشسلافا

قاني الكيالي

سجال

الأنوثة والمؤنث
في الثقافة والاجتماع
(نقاش فكري)

أثار الملف الذي نشرته «الجديد» في عددها الماضي تحت عنوان «الأنوثة المقموعة» نقاشاً كنا نتطلع إليه على سبيل مباشرة حوار أوسع في قضية شائكة ومعلقة بل ومعقدة إلى أبعد الحدود تتصل بمكانة المؤنث والأنوثة في الثقافة والاجتماع العربيين.

في هذا الملف أربع مقالات تنطلق في طروحات أصحابها من مضمون مقال عزيز العظمة الذي أردنا من نشره في عددنا الماضي أن يكون عتبة وباباً إلى حوار متعمّق حول المسألة.

هنا أربع مقالات لموسى برهومة (الأردن)، مفيد نجم (سوريا)، إسماعيل نوري الربيعي (العراق)، منى برنس (مصر).

تتصادى المقالات المنشورة هنا في ما بينها من خلال اشتراكها في نسق فكري يؤمن بحق المرأة ويناصر مطالبتها بحقوقها في إطار عملية تغيير مجتمعي أوسع، وذلك انطلاقا من رؤى جديدة تريد أن تقطع مع تاريخ من الأبوية الطاغية، التي هيمنت بقيم الذكورة المستبدّة على مساحة المؤنث، وجعلت منه حيزاً اجتماعياً وثقافياً مهمّشاً وغير قادر على تحقيق حضور بارز في خطابات الثقافة والمجتمع، رغم الكفاح المتواصل الذي خاضته المرأة العربية طوال القرن العشرين لانتزاع حريّتها الشخصية المنتهكة وحقوقها الجماعية المسلوبة.

نرى في هذه المقالات استجابة حيّة تنطلق من تقنيات التعليق على الملف السابق لتعتبره مناسبة لقول آخر في المسألة، وبدورنا نعتبر هذه المقالات خطوة في المسافة الطويلة بين مساحة التفكر ومساحة الجدل لأجل استئناف حوار ثقافي عميق وخلاّق بين النصوص والأفكار■

قلم التحرير

تحرير الجسد الأنثوي من أصفاد الخيال النمطي

موسى برهومة

في الطريق الطويل نحو تحرير الجسد الأنثوي من أصفاد الخيال النمطي، ينبغي المضيّ في نقد الخطاب الاجتماعي لدى جمهرة الفقهاء، الذين لا يعبّرون فقط عن النظام السياسي مجرداً، بل ومرتبطاً ارتباطاً عضوياً بآصرة ذكورية-بطريركية وجدت في المرأة ميداناً خصباً لاشتغالاتها المملوءة بالهواجس والطبقات الكثيفة من مركبات النقص وغقده

أصابتني بالحيرة والارتباك تلك الرغبة باستدعاء نص قديم لمفكر متجدّد كثير التخطي كعزيز العظمة، الذي لا أظنه سعيداً بأن يكون ما خطّه قبل ربع قرن أرضيةً لنقاش في قضية شهدت تحوّلات عاصفة في المباني والمعاني والتصوّرات.

ومع أنّ في نص العظمة عديداً من الالتماعات الثاقبة، إلا أنّ عليه (وهذا مجرد مقترح) أن يعيد النظر في النصّ، ويمنحه ماء الحيوية والجريان المتدفق كما هو شأن لغته التي نعرفها.

لا أرغب في الاستغراق في هذا الأمر كثيراً، مفضّلاً الخوض في الإطار العام للموضوع، مع التركيز على كيفية التوصّل إلى مقاربة فكرية عملياتية لتحرير الجسد الأنثوي من أصفاد الخيال النمطي.

الأنوثة

المقموعة هي في جوهرها ذكورة مقموعة.

والقمع بما فيه من طغيان للأدوات القاسية والمكمّمة والمتوحشة أحياناً يحبس أولَّ ما يحبس الفكر، ويعيد تصنيعه بحيث يجعل القمع سائغاً، من جهة، ويخفّف من جهة ثانية من غلواء التناقض الذي يحسب له العقل القامع حساباً لافتاً.

بمعنى، أنّ العقل الذكوري القامع الذي سجن المرأة في تصوّراته، عمل في خط متوازٍ على إقناع المرأة بجماليات الحبس ومنافعه، وقد تعاضدت على تحقيق ذلك، في الثقافة العربية الإسلامية، سردياتٌ دينية وفقهية جعلت الأنثى (بما هي كائن ديني، كالذكر أيضاً) تذهب طواعية إلى تحديد المساحة التي تفضّلها لسجنها، وتأثيث ذلك السجن بما لذّ وطاب من الأصفاد!

ورغم التململات الكثيرة والمديدة للانعتاق، سواء برغبة المرأة الناقمة الثورية المتمردة، أو إرادة الرجل المتخلّص إلى حدّ ما من أوهام ذكورته وتشظياتها، إلا أنّ الدرب نحو تحرير كامل للمرأة لم يكن، ذات لحظة، متبلوراً في الثقافة العربية الإسلامية. وتكفي إطلالة على الخطاب الفقهي ليلمس المراقب أنّ المرأة تحتل الركن الأساسي في ذلك الخطاب الذي لم ينشغل بشيء قدر انشغاله بأحوال المرأة كافة، ما صغر منها وما كبر، وما ظهر منها وما بطُن!

وبين أضلاع هذا السجن التاريخي الطويل تكوّنت التصوّرات المأزومة، وتغذت على ميراث الخديعة، فاختزلت المرأة في الشهوة المحضة، وفي إثارة الغرائز في الوعي العربي والإسلامي، وألصقت بها أوصاف امتدت حتى القنطرة الحضارية الراهنة، إذ يضجّ الوعي الجمعي بتلك النعوت التي صارت أمثالاً شعبية، وبعضها أضحى مساطر، كأنما حتمية اجتماعية راحت تنشأ بتأثير تلك التصورات وسطوتها التي امتدت وغزت عقول شباب يافعين يرطنون بلغات أجنبية، لكنّ وعيهم المشقوق ترشح منه تلك التقيؤات الكريهة!

إذن، كيف يكون تحرير المرأة: الكينونة والجسد من سجن المعنى والوجود؟ هذا هو عصب خطاب التقدّم الذي نرومه الآن؛ تحريرها من الصور النمطية، ومن وهم التأنيث والتذكير الذي تورطت فيه تصورات العظمة، وردّها إلى حالتها الأولى: إنسانة، بصرف النظر عن جنسها، وجهازها البيولوجي.

تحرير جسد المرأة يتوازى في الأهمية مع تحرير ذاتها، ولعله لا انفصال يمكن أن يُلمح بين الأمرين، فهما وجهان لحالة واحدة. والتحرير المقصود يرمي إلى دفع الجسد للإفصاح عن كل مكنوناته وهواجسه ومخاوفه وعريه وتطرفه وتزمته، عبر الكتابة والمقاربة الفكرية، والحفريات الاجتماعية التي يمكن أن تستوعبها وتغذيها العلوم الإنسانية كافة. وربما تكون العلوم الأخرى المتصلة بالطب والبيولوجيا مساعداً في هذه الخطوة من أجل كسر الوهم الناشئ عن أكذوبة الفوارق بين الجنسين، وهي التي روّجها العقل الذكوري لإثبات أنّ جسد المرأة أوهنُ من جسد الرجل، وأنّ قدرتها على التحمّل أقل. ويكفي هنا أن نذكّر بحكاية امرأة فلسطينية جاءها المخاض وهي تحرث في الحقل، فولدت جنينها، ثم قطعت الحبل السري بحجر صوان، وتابعت عملها، حتى حلّ الليل. ولعل أمهاتنا وجداتنا كنّ من تلك الطائفة التي تحدّت الأقدار بعناد!

كتابة الجسد تعني وعيه وتجاوزه وجعله معطى. وهذه خطوة مهمة تُضاهي أن تنظر إلى المرآة المكبّرة وتعلم علم اليقين أنّ هذا هو وجهك بكل تغضناته وبوافر التجعدات تحت العينين، وبالأنف الرقيق أو الضخم، والذقن الحليق أو المأهول بالشَّعر.

وما يجعل محاولات تحرير الجسد عبر كتابته تومئ إلى ضوء ما في آخر النفق هو عدد الكاتبات بالدرجة الأساسية، والكتاب بدرجة ثانية الذين مضوا منذ نحو عقدين في الغوص المتواتر في عتمات الجسد، والإفصاح عن تضرّعاته، وفتح كوى تكبر كل حين لتشرق الرغبة بوصفها حالة شعورية طبيعية، بل وحاجة، من دون أن يكون في ذلك ما يدعو إلى الاستهجان. وهنا يلاحظ أنّ ذهنية التحريم قد سقطت أو تراجعت، بدليل أنّ الكتب، وبخاصة الروايات التي تناولت موضوعة الجسد بجرأة فنية لافتة، قد لاقت انتشاراً واسعاً من قبل القراء العرب، ولا سيما القارئات. وهذا ملمح مهم جداً. في زمن «السوشيال ميديا» تحطمت حواجز كثيرة، فصرنا نطالع ما سكن طويلاً تحت القشرة الاجتماعية المخاتلة. ثمة نار تندلع في هشيم التصوّرات العتيقة، وثمة نصوص تكتبها فتيات ونساء غالبيتهن دون الأربعين تمتاز بالطزاجة واللوعة الحقيقية والرغبة الصادقة في الانعتاق، والحديث عن المثلية الجنسية. فصار سؤال الجسد مشروعاً، وصار الحب واستدعاء أشعاره ونصوصه أمراً جاذباً. ولم تعد الكتابات المتطرّفة التي استقرّ الوعي المدجّن على وصفها بـ«الماجنة» تثير حفيظة المتابعين، حتى لو كانت هذه العمليات تتم أحياناً في عالم افتراضي، وبأسماء مستعارة سرعان ما تخلع استعاراتها وتبوح بأسرارها وهُوياتها.

هذه العملية ما تزال متواصلة، وتلقى قبولاً من قبل المتلقين نساءً ورجالاً حتى في بيئات انبنت عليها صورٌ وانطباعات بأنها محافظة أو متزمتة أو معارضة للانفتاح في حدود التعبير الأدبي والفني. وأهمية هذه العملية تنبع من كونها تناولت «تابو» الجنس بلا مخاوف، فضلاً عن أنها حطّمت التصورات النمطية عن المخيال الذي أطّر أحوال الجنس وتمثّلاته في «براويز» ظلت قارّة حتى وقت طويل. هناك صور جديدة، وبعضها صادم وعنيف وغريب ومحلّق، عن تململات الجسد الأنثوي وعواصفه وبراكينه وارتعاشاته. ولم يكن لذلك أن يتبلور لو لم يخضع ذلك الجسد للمعاينة، أو لم لو ينكتب أو يُصوّر أو يُنحت، أو يحكى عنه. وهذا كله من فضل الانفتاح التكنولوجي وانفجار عوالم الاتصالات وعولمة «السوشيال ميديا» التي لا يُعرف لها حدود أو ضفاف.

وحتى لا تظل الأنوثة مقموعة، وحتى تستعيد الذكورة عافيتها على قاعدة المساواة الإنسانية والبيولوجية، يتعين أن يتم الاشتغال على التشريعات التي تُنصف هذين المكونين، وتعيد إليهما الاعتبار، ولعقليهما النضارة، بحيث تختفي الهواجس والظنون، وينكشط الوهم الذي يجعل المرأة ترى في الرجل وحشاً، أو يدفع الرجل أن يرى في المرأة، وحسب، شهوة مضمرة أو جسداً فيّاضاً بالفتنة والغواية، في معادلة يحكمها التربّص الذي ينزع عن الذات عفويتها، ويشعل الاضطراب في نفس الطرفين كلما التقيا وحدهما في مصعد!

وفي الطريق الطويل نحو تحرير الجسد الأنثوي من أصفاد الخيال النمطي، ينبغي المضيّ في نقد الخطاب الاجتماعي لدى جمهرة الفقهاء، الذين لا يعبّرون فقط عن النظام السياسي مجرداً، بل ومرتبطاً ارتباطاً عضوياً بآصرة ذكورية-بطريركية وجدت في المرأة ميداناً خصباً لاشتغالاتها المملوءة بالهواجس والطبقات الكثيفة من مركبات النقص وغقده.

بهذا المعنى، يُنظر إلى معاناة المرأة العربية والمسلمة باعتبارها وجهاً من وجوه التنازع بين الديني والسياسي، فضلاً عن كونها معاناة مركبة تتغذى باستمرار من التفكير الذكوري الذي تعاضد مع تأويل ذكوري موازٍ للنصوص كشف الشروخ في النظر إلى دور المرأة ووظيفتها، وهو ما سلطنا عليه ضوءاً كاشفاً في كتابنا «الناطقون بلسان السماء».

لعل الحاجة تلحّ من أجل تحطيم السجون الاجتماعية. لكن السؤال يبقى كيف وبأيّ أدوات. وهذا ما يتعين أن يساعد على الإجابة عنه المثقفون والسياسيون وطبقة المجتمع المدني والنشطاء والمشتغلون في الاجتماع والعلوم الإنسانية.

وما لا يغيب عن الأذهان، في ظننا، هو أنّ تحرير الجسد الأنثوي من التصوّرات النمطية يعني إغلاق دائرة الوهم الجحيمية التي حوّلت البشر إلى كائنات غير طبيعية، لأنها اختزلتهم في منطقة الحواس الغريزية المبهمة، وعطّلت الحرية الذاتية والأخلاقيات الإنسانية، بذريعة ذلك الشيطان الذي هو، بالحتمية الفقهية، ثالثُ الرجل والمرأة إذا اجتمعا، وما الشيطان في الحقيقة إلا جرثومة الخيال المريض التي أصابت الثقافة والاجتماع والحياة بالحُمّى والاضطراب.

كاتب من الأردن مقيم في دبي

ذكورة وأنوثة

سجال في الأنوثة المقموعة

مفيد نجم

الأفكار التي يطرحها الباحث والأكاديمي عزيز العظمة في حواره حول الأنوثة المقموعة في العدد الـ32 من مجلة «الجديد»، تمثل مقدمة مهمة لفهم واقع الأنوثة في ظل سيادة سلطة وثقافة الرجل، من خلال ما قدمته من قراءة وتوصيف جديرين بالتأمل والحوار معهما.

في هذا السياق كان يمكن لأغلب المقالات المنشورة معها أن تدخل في حوار واسع ومهم جدا حول مجمل القضايا والتصورات التي طرحها العظمة، لكن أغلبها اكتفى بالانطلاق من الموضوع إلى تقديم رؤاها وتصوراتها الخاصة من خلال تحليلات مختلفة استندت إليها في طرح تصوراتها وفهمها لتاريخ هذه العلاقة ومدلولاتها في الثقافة والحياة الاجتماعية والسياسية العربية.

تجدد هذه المقالات الحوار حول الأسباب التي تجعل ثقافة الحوار غائبة عن الحياة الثقافة العربية، وأثر ذلك على ديمقراطيتها وقدرتها على التفاعل الخلاق كسلوك وقيمة معرفية. إن ما طرحه العظمة من أفكار وتحليلات يشكل مادة غنية ومهمة حول مجمل قضايا المرأة العربية راهنا، خاصة وأن الثقافة العربية لم تستطع حتى الآن أن تبلور مفهوما مغايرا وناجزا للأنوثة خارج السياق التاريخي والثقافي الذي كرس دونيتها وضعفها واستلابها، والدليل هو الارتداد الراهن عن تلك الإنجازات التي حققتها تجربة المرأة خلال أكثر من قرن من الزمن. لذلك فإن تجديد الحوار حول هذه القضايا هو استعادة لحضور هذه القضية باعتبارها جزءا أساسيا من عملية تحرير المجتمع والذات المقموعة من عوامل ضعفها وتنميطها وإخضاعها لسلطة الاستبداد بمسمياته المختلفة.

الأنوثة المقموعة

يركز الكاتب عامر زيد الوائلي في مقالته على ما ينطوي عليه عنوان النص من ثنائية نمطية تخيلية إقصائية منحت الرجل صفة العفة والمرأة صفة الشبق. إن هذا التوصيف للعلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع والثقافة العربيين على الرغم من وجاهته إلا أنه لا يقدم توصيفا دقيقا لهذه العلاقة لأن المرأة، لا سيما في الثقافة الدينية، ظلت ترمز للإغواء والإثارة، في حين أن الثقافة العربية منحت الرجل صفة الفحولة بوصفها قيمة كبيرة حتى وسمت بها الشعراء الكبار في الماضي وصنفتهم على أساسها.

إن العفة بالنسبة إلى الرجل ليست قيمة أصيلة فيه والدليل أن هذه العفة مرتبطة بحجب المرأة لعناصر الإثارة التي يمتلكها جسدها وحجبها عن المجال العام، في حين يباح ذلك للرجل في الجنة مكافأة له على هذه العفة المفترضة.

هنا تنطوي الثقافة الدينية على تناقض واضح لأن هذه العفة مرتبطة بحجب المرأة لجسدها المثير، باعتباره المسؤول عن إيقاظ شهوات الرجل. لكن هذه الثقافة أباحت له التمتع بالجواري وما ملكته يمينه، وتداول هذا الجسد الشهي خارج سياق الزواج بوصفه سلعة تباع وتشترى. في ظل هذا الواقع نشأت التراتبية الاجتماعية للمرأة وتعددت الأسماء والصفات التي تطلق على المرأة وفقا لموقعها الاجتماعي وقوة فتنتها، ما يعني أنها ظلت في جميع هذه الحالات تختزل في جسد مشتهى ومثير لإشباع رغائب الرجل وفحولته المباركة.

من هنا فإن صفة العفة للرجل غير متحقّقة واقعيا طالما أنها مرتبطة بحجب للمرأة ولجسدها وطالما أن الرجل يملك القدرة على تداول هذا الجسد خارج مؤسسة الزواج الدينية، التي تبيح له أيضا تعدد الزوجات والتمتع بجسد الأنثى كيفما يشاء. في هذا السياق يلح العظمة على طرح التصور الثابت للأنثى باعتبارها ذاتا منفعلة ومفعولا بها.

ثمة مسألة أخرى يجدر التوقف عندها تتعلق بوضع المرأة في الديانات التوحيدية حيث لعب المخيال الديني ورجال الدين دورا هاما في تكريس دونية المرأة وتهميشها وإخضاعها لسلطة الرجل والمجتمع الذكوري، والغريب أن هذه الوضع الخاص الذي فرض على المرأة ينطوي على ثنائية ضدية، كما هو الحال في التصور الديني لمريم العذراء وما انطوى

خالد تكريتي

عليه من رمزية للقداسة لم تكن موجودة في أيام المسيح، على خلاف موقف المسيح الإيجابي من مريم المجدلية التي أنقذها من الموت رجما بالحجارة. كذلك يظهر هذا التباين بين موقف المسيح من المرأة وموقف القديس بولس الذي ظهر فيه واضحا تأثير اللاهوت اليهودي حيث تتراجع قيمة المرأة بسبب ما تحمله من صفات النجاسة والدونية كما يتجلّى في استبعادها من ممارسة أيّ سلطة دينية.

أما بالنسبة إلى موقف الإسلام من المرأة فإن رجال الدين اجتهدوا كثيرا في العمل على تهميش المرأة وإخضاعها لسلطة الرجل وتحويلها إلى وجود مفعول فيه، ويمكن أن نستدل عليه في اللحظة الراهنة التي يزداد فيها الفكر الديني المتطرف على تهميش وتكميم وجود المرأة وإعادتها إلى أدوارها التقليدية وكأن الإنجازات التي حققها نضال المرأة وتطور المجتمعات العربية خلال أكثر من قرن لم تستطع أن ترسّخ هذه المفاهيم والقيم في وعي المرأة والمجتمع معا.

المشكلة الأخرى التي يطرحها المخيال الديني هو المكافأة التي ينالها الرجل في الجنة والمتمثلة في الحور العين والفحولة الخارقة، بينما لا يتحدّث بالمقابل عن المكافأة التي يمكن أن تنالها المرأة على عفّتها وتقواها، ما يعني أن وجود المرأة كجسد مشتهى ومثير ما هو إلا من أجل إشباع رغبات الرجل وتمتيعه في الدنيا والآخرة.

إن هذا التكريس لسلطة الرجل وامتيازاته والتبضيع لجسد الأنثى هو ما تشير إليه الكاتبة خولة الفرشيشي في مقالتها من خلال استعانتها بالنص القرآني الذي يختزل المرأة في موضوع الجسد والشهوة (نساؤكم حرث لكم..). لكن الكاتبة تقدم قراءة مغايرة لهذه العلاقة الجنسانية وما تحمله من مفاهيم مغلوطة، إذ تعتبر أن الانتصاب الذكوري يرتخي نهائيا بعد الفعل الجنسي، وهو ما يرمز للموت، في حين أن فرج المرأة يستمر في هذه العلاقة التي يصل إلى ما بعدها عبر الإخصاب والولادة.

إن هذه المحاججة القائمة على المفاضلة على المستوى الفيزيولوجي والبيولوجي بين الرجل والمرأة على مستوى العلاقة الجنسية يعيدنا مرة أخرى إلى الجدل الدائر داخل الثقافة العربية حول أصل الوجود الإنساني وأفضلية المرأة على الرجل في ذلك، كما تحاجج نوال السعداوي في كتابها «الأنثى هي الأصل».

إن تحرر المرأة واستعادتها لقيمتها الإنسانية المغيّبة جسدا وروحا يتجاوز هذا الجدل إلى احترام الوجود الإنساني للرجل والمرأة معا بعيدا عن الهوية الجنسية وأولية الخلق، باعتبار ذلك جزءا من استعادة الذات الإنسانية لقيمتها المغيبة وحقها في التعبير عن ذاتها وعن وجودها بوصفها ذاتا تمتلك قيمتها في ذاتها وليس من أيّ شيء آخر.

إن استمرار نشاط أعضاء المرأة الجنسية بعد الفعل الجنسي مرهون أيضا بالعلاقة مع الرجل الأمر الذي يعني أن هذه الشراكة الوجودية بين الرجل والمرأة تقوم على التكامل والتشارك بعيدا عن الاستلاب والتهميش وعلاقات التبعية والتأثيم، وهو ما يحتاج إلى علاقات متكافئة ومنفتحة تحرر وعي الرجل ووجود المرأة وتكرس القيم التي تحقق استقلال الذات وحريتها بعيدا عن هذا الإرث الثقيل من تاريخ الاستبعاد والسيطرة والإلحاق والتأثيم.

ناقد من سوريا مقيم في برلين

إن تحرر المرأة واستعادتها لقيمتها الإنسانية المغيبة جسدا وروحا يتجاوز هذا الجدل إلى احترام الوجود الإنساني للرجل والمرأة معا بعيدا عن الهوية الجنسية وأولية الخلق، باعتبار ذلك جزءا من استعادة الذات الإنسانية لقيمتها المغيبة وحقها في التعبير عن ذاتها وعن وجودها بوصفها ذاتا تمتلك قيمتها في ذاتها وليس من أيّ شيء آخر.

الفحولة بوصفها رأسمالا رمزيا

إسماعيل نوري الربيعي

ثماني ركائز يمكن الوقوف عليها في طروحات الفيلسوف التنويري عزيز العظمة حول ثنائية «العفة والشبق»، حيث التمييز القائم بين الرجل والمرأة. إنه المدار المستند إلى فكرة الأثر الذي يتركه التراث وتجلياته على الواقع، وطريقة رسم معالم فكرة الأنثى عبر التصوّر والخيال، وطبيعة تسرب مفهوم الشرف وإعادة إنتاج القيم. وهو التوقف عند صورة المرأة في الخطاب العربي حيث جاهزية الوصف لهذا الكائن القائم على «المتآمرة، المحتالة، اللعوب»، وأحوال التداخل في المعاني والصور حتى تجعل منها «مسخا»، بعد أن يتم إخضاعها بالكامل لمخيال الرجل من دون اقتصاد حتى يتم ركنها في زاوية «الإغواء-الحريم». فيما يتعرض الواقع لعواقب الأحكام المسبقة ليتم وسمها بـ«الشر، الخطر، الخراب، الفتنة». إنها المرأة في العقلية الفحولية تلك التي تموقعها في مركز التهديد «لاكتمال الرجولة».

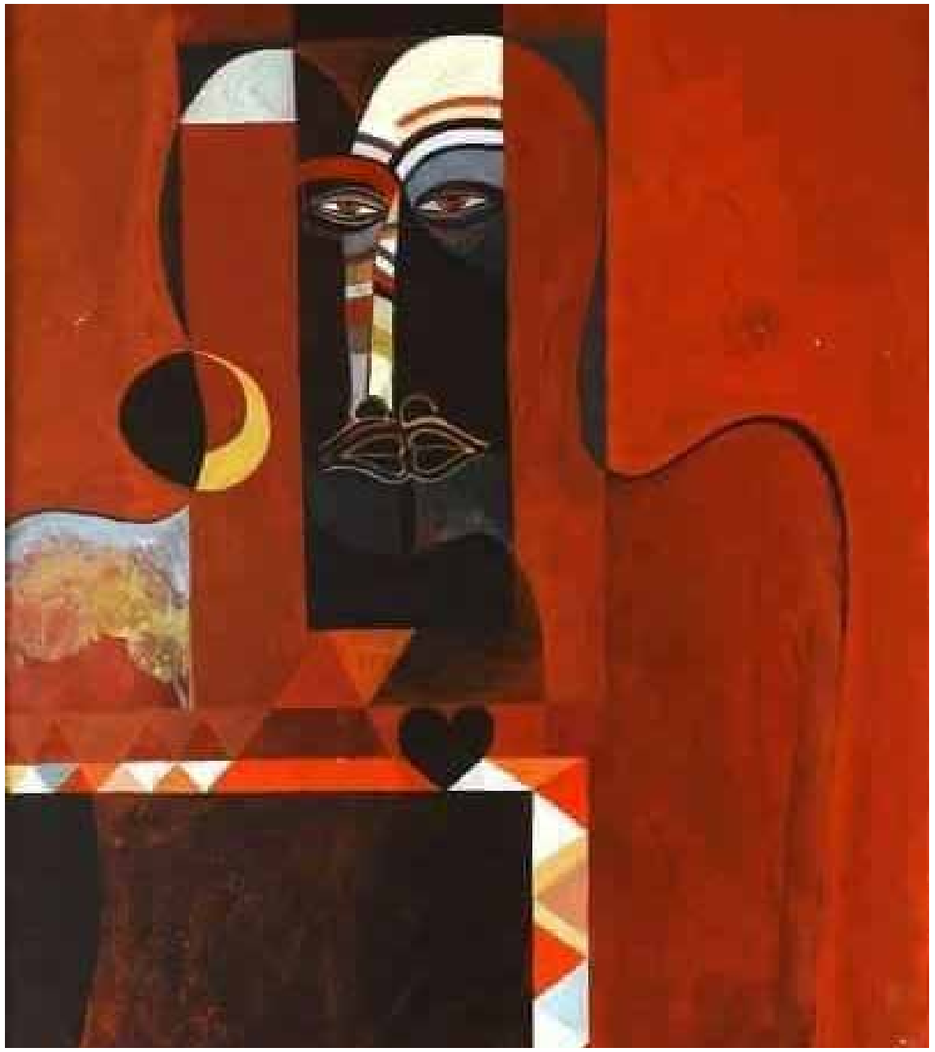

عبدالله بولا

فحولة عارمة يتصدرها الرجل-الذكر-الفحل، فيما يختل حضور الكائن الذكوري على سدة الواقع حين يتبدّى شيء ينتقص من فحولته المفترضة. واقع تنطوي مجمل ممارساته وخبراته وتجاربه على وعي الفحولة باعتبارها شرطا موضوعيا. فيما يكشف الواقع بمجمل مقولاته وعلاقاته على هيمنة التقنين الجندري-النوعي، الذكوري تحديداً. لا يتعلق الأمر بتذكير أو تأنيث قدر تعلق الواقع بالشرط الذاتي حيث العقل الذي يحكم العالم ويحدد مسار الموجهات والممارسات والخطابات والعلاقات.

تتصدر الفحولة وعي العالم. هذا على صعيد المقارنة المباشرة ما بين الرجل والمرأة. الواقع أن الإحالة المباشرة تجعل هذا الثنائي في أشدّ حالات الجنوسة حضورا ورسوخا، حيث ثنائية الذكر والأنثى. ذكر يتسيّد كلّ شيء في التفاصيل التي يزخر بها العالم. وعلى مختلف المجالات والمستويات، بدءا من السطوة والهيمنة والسيطرة والقوة والنفوذ. وصولا إلى الأدق من التفاصيل التي تميّز الحياة البشرية. العالم في أشد حالات الذكورة؛ تاريخيا وأنثروبولوجيا وفلسفيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا. لا يقف الأمر على تداعيات المجتمع البطريركي وتراتبيات الأبوية، تلك التي تترسخ معالمها في الأسرة النووية وتتسرب في معطيات العلاقات العشائرية والقبلية، وتتوسّع مدركاتها ومعطياتها على صعيد السلطة والحظوة، ليكون الحضور عبر مدركات «رؤية العالم»، حيث البحث الصميم في فعالية القيم والمعايير والأنظمة وطريقة تشكيل التصورات.

بالإضافة إلى المؤثرات التي تفرزها معطيات الذاكرة الدلالية (Encoding)، حيث التوجه نحو تمييز المفاهيم العديدة والكثيرة، والعمل على تمييزها خلال لحظة الاستجابة. والعمل على توظيف مفهوم المسافة الدلالية من أجل الوقوف على الوعي بطبيعة العلاقة القائمة بين مفهومين. انطلاقا من المسعى نحو «وصف الواقع» عبر ترصّد الطريقة التي يتم فيها إنتاج الوعي، بناء على محددات الشرط الموضوعي، حيث التجربة والممارسة والخبرة. و«الشرط الذاتي» المستند إلى العقل والأحكام المسبقة والمقولات المتداولة على صعيد الواقع.

فحولة عارمة يتصدرها الرجل-الذكر-الفحل، فيما يختل حضور الكائن الذكوري على سدة الواقع حين يتبدّى شيء ينتقص من فحولته المفترضة. واقع تنطوي مجمل ممارساته وخبراته وتجاربه على وعي الفحولة باعتبارها شرطا موضوعيا. فيما يكشف الواقع بمجمل مقولاته وعلاقاته على هيمنة التقنين الجندري-النوعي، الذكوري تحديدا. لا يتعلق الأمر بتذكير أو تأنيث قدر تعلق الواقع بالشرط الذاتي حيث العقل الذي يحكم العالم ويحدد مسار الموجهات والممارسات والخطابات والعلاقات.

التاريخ تكتبه الذكورة

هكذا هو الواقع حيث العالم-الثقافة-التاريخ، هو رهن بصناعة رجولية موغلة بالذكورة بامتياز. حيث الارتهان للمعاني بمنتجها ومن واقع التطلع نحو تمييز المستويات سعيا نحو فرز الدلالة، فإن الحضور يبقى لرباعية «الحقل، الفعل، المضمون، الموضوع». حيث الموضوع المتمثل في المرأة، والبحث في المضمون الذي لا يمكن له الإفلات من براثن الاحتكام الأيديولوجي والفعل المنطوي على مسار التفاعل الاجتماعي، وتمظهرات وتجلّيات العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة تلك التي لا يمكن لها أن تحيد قيد أنملة عن إفرازات الحقل السياسي. تطلّع لا ينفكّ يسعى نحو تمييز الوعي والإدراك في صلب مفهوم المرأة، بناء على المحاولة الدائبة نحو فرز النسق الداخلي بما فيه من مواقف وسلطة، والنسق الخارجي بما يتوافر على علاقات وارتباطات.

في تكلف العفة

الأفكار مطروحة على الواقع لكن طريقة التوظيف تبقى رهنا بمن يكيّفها. وهكذا نكون بإزاء المبادرة والقدرة على الإمساك بخيط المعنى، لا سيما حين نكون وجها لوجه في تمييز مسار العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة.

طرف العلاقة القويّ والمبادر بقي تاريخيا يسير لصالح الرجل، لا سيما وأن الحضور الطاغي لعلاقات الإنتاج كان له الدور الأمضى في ترسيخ مدار الحضور الذي استحال إلى واقع راسخ متجذر. ولو قيض لنا الرجوع إلى اللغة لوجدنا المزيد من أحوال الحياد حول الرجولة والأنوثة. فمفردة العفاف على سبيل المثال في الصحاح؛ «عَفَّ عن الحرامِ يَعِفُّ عَفًّا وعِفَّةً وعفافاً وعَفافةً، أي كفَّ؛ فهو عفٌّ وعفيفٌ، والمرأة عَفَّةٌ وعَفيفَةٌ»، أو مفردة شبق في لسان العرب؛ «الشَّبَقُ شدة الغُلْمة وطلبُ النكاح يقال رجل شَبِقٌ وامرأة شَبِقةٌ وشَبِقَ الرجل بالكسر شَبَقاً فهو شَبِقٌ اشتدت غلمته وكذلك المرأة».

توزيعات القوة

عالم الاجتماع ماكس فيبر قدم فرضياته حول نظرية الفعل (Action Theory) حيث التطلع نحو قراءة المعنى، والتفسير وطبيعة الفعل المتعلق بدنيا العيش. فيما يكون التوقف عند مفهوم فرص الحياة (Life Chances) في تتبع لمسارات الطبقة والمكانة والموقف الطبقي. على اعتبار أن الفرد يتطلّع من خلال أفعاله نحو ترصّد الفرص المتاحة أمامه، بناء على

توزيع مكامن القوى في المجال الاجتماعي.

إنه التوجه نحو الوقوف على مضمون الفهم بوصفه تفسيرا، وليس بحثا عن الهدف والغاية، انطلاقا من قراءة الفعل الاجتماعي القائم على القصد والغاية والعلاقات القائمة بين الفاعلين. وصولا إلى ترصّد أحوال العلاقات داخل النظام الاجتماعي بوصفه المسؤول عن مسار التفاعل. ولا يمكن التغافل عن التعرض لـ«مفهوم دلالة القيم» (Signify of Value)، انطلاقا من اختبار الوقائع المتعلقة بطبيعة العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة، والبحث عن إبراز المضمون المضمر حول المرأة واقعا وصورة ومخيالا. ومحاولة الكشف عن المجمل من زوايا النظر حولها وفرز العلاقات السببية سعيا نحو إبراز دلالة القيمة فيها مع أهمية تحليل الظروف التي تحيط بهذا الكائن الإنساني.

بالإضافة إلى محاولة الإفادة من منظومة عناصر التفاعل (Elements of Interaction)، والتي يصوغها أنطوني جيدنز في المعنى والتمييز الأخلاقي والعلاقة السلطوية.

إنه المسعى نحو البحث في البنية الثقافية ورصد المجمل من التغيرات التي تحدث في الزمان والمكان. باعتبار أن التاريخ ما هو إلا منجزا ثقافيا واجتماعيا. ومن هذا لا يمكن الركون إلى التمييز في التاريخ على ما هو هامشي ومركزي. حيث التطلع نحو تحليل البنى الثقافية والاجتماعية والتوجه نحو الخلاص من هيمنة السرد في التاريخ. إنه البحث الساعي نحو الخلاص من النظرة الفوقية والتوجه نحو دراسة التغير من خلال العادي واليومي والقابل للفهم، نظرة تبدأ من الأسفل وتهتم بالمجمل من التفاصيل التي تزخر بها الحياة، عبر قراءة اللغة والخطاب والعقليات، وحيث التنوع في طريقة طرح السؤال الذي لا ينصبّ اهتمامه على جانب على حساب آخر. لكنّ طرحا كهذا يبقى رهنا بقيمة الحضور والتأثير اللذين يمارسهما الرجل-الذكر-الفحل على الواقع.

المرأة اللعوب، المغناج، المحتالة، صورة خضعت لتوجهات ورغبات السارد-الذكر في ألف ليلة وليلة. لكن المرأة لم تتردد عن التطلع نحو سلاح السرد من أجل الحفاظ على حياتها، فلم تتردد شهرزاد عن إغواء شهريار الطاغية-الشبق-المفتون بالثأر من أجل رجولته عبر سلاح السرد. علاقة تقوم بين طرفين حسمت لصالح الطرف القويّ الذي أمسك بموجهات علاقات الإنتاج برمّتها. فكان التتويج لمجمل العلاقة عبر التطلع نحو السيطرة على موجّهات المعنى، تلك التي تكون بمثابة السلاح الأمضى في السيطرة والتوجيه والهيمنة. تطلع يقوم على إسباغ ما فيك من سجايا سلبية على الطرف الآخر، مقابل مصادرة كل ما هو إيجابي والعمل على إضافته إلى الرصيد الشخصي للرجل-الذكر.

لا شك أن القيم والعادات والطبائع تتغير، فما كان شائعا ومتداولا في عهد ما، سرعان ما تجده وقد أضحى مرفوضا ولا يحوز القبول من قبل ذات المجتمع في فترة لاحقة. هذا بالإضافة إلى أحوال الاختلاف بين الثقافات، فما هو طبيعي وسائد ومتجذّر نراه غريبا وشاذا لدى ثقافة أخرى وهكذا دواليك. الأمر هنا لا ينطوي على منظومة القيم بقدر ما يقوم على طبيعة التحولات الجذرية التي تبدأ بفرض حضورها على الواقع.

وهكذا تسرّبت المزيد من العادات والتقاليد وغدت أساسية ولا يمكن العيش من دونها، فيما كانت في الأمس القريب غير معروفة. لكن الاعتياد والتداول والتجذّر في المغروس النسقي يجعل منها في حكم الأساسي والثابت. إنها تفاعلات الأحداث والسلوك البشري والتوجيه وممارسة الوعي الإنساني في صميم الواقع. محاولة نحو رصد الممارسة الإنسانية بعيدا عن جاهزية المثل والقيم الراسخة، فتفاصيل الحياة سيكون لها الحضور والتأثير في صميم الخبرة الإنسانية حيث المسعى نحو النجاح في التجربة المباشرة، وحيث الفحولة تلك التي تتبدّى بوصفها عفّة وشرفا ونبلا ونقاء. فيما تحضر الشهادة والذاكرة لتكونا بمثابة التعبير عن تثبيت الواقع، وبالتالي القدرة على إنشاء معرفة يكون لها الوقع في التأسيس للتمثل والاستيعاب، وبما يمكن أن يطلق عليه بالمعرفة المشتركة. فالإنسان نتاج الظرف والذهنية السائدة ومن هنا فإن تشخيص الأحوال النفسية والعقلية تستدعي الوقوف عند المحيط الاجتماعي حيث الممارسات الجمعية والتمثيلات العقلية تلك التي تسّهل عملية تواصل الفرد مع المجتمع.

كاتب وأكاديمي من العراق

القيم والعادات والطبائع تتغير، فما كان شائعا ومتداولا في عهد ما، سرعان ما تجده وقد أضحى مرفوضا ولا يحوز القبول من قبل ذات المجتمع في فترة لاحقة

الذي عنده عنزة فليربطها

منى برنس

فوجئ المصريون قبل عدة أشهر بحوار صوتي على صفحة أولياء أمور أطفال في مدرسة لغات إسلامية. بدأت الأم الشاكية بما اصطلح علي تسميته تحية الإسلام، ثم قامت بتعريف نفسها أنها سيدة منقبة ولا تقبل أن تلعب طفلتها مع «بويز» (صبيان)، أو أن يقبّل ولد صغير ابنتها الطفلة في المدرسة. رد والد الطفل بادئا بتحية الإسلام أيضا، ثم ألقى بالجملة، التي صارت «إيفيها» سريعا، «اللي عنده معزة يربطها»، مضيفا ومؤكدا «أنا ابني يبوس زيّ ما هو عايز»، وختم رده بتحية الإسلام.

رغم السخرية اللاذعة التي انتشرت على المواقع الاجتماعية المختلفة، فإن ذلك الحوار عبّر بشكل جيد عن وضع الرجل والمرأة في قطاع كبير جدا من المجتمع المصري. الرجل يفعل ما يشاء «ابني يبوس زيّ ما هو عايز» سواء بشكل «شرعي» أم غير شرعي. و المرأة «المعزة» يجب أن تُربط، أن تُقيد، أن تختفي إن أمكن. وإذا تصرفت بعكس ذلك تصبح على الفور عاهرة مستباحة لأيّ ذكر أن يهينها، مستخدما قاموس الشتائم الجنسي على أساس أنها شيء مفعول به وفيه، وليست شريكة فاعلة ومتفاعلة في اللقاء الجنسي، وباعتبار، أيضا، أن رغبتها في ذلك أمر مشين لا يجب الإفصاح عنه أو الشعور به من الأساس!

هذا ما استدعاه ذهني فور انتهائي من قراءة الدراسة النقدية المعمّقة التي أنجزها المفكر السوري عزيز العظمة بعنوان «العفة للرجل والشبق للمرأة»، والتي أعادت مجلة الجديد نشرها بعد مرور نحو ربع قرن على نشرها الأول في نهاية القرن العشرين. وها نحن في نهايات العشرية الثانية من القرن الحادي والعشرين، وما زلنا نتحدث عن المرأة باعتبارها شيطانا يجب رجمه أو تابعا للرجل، احترامها نابع من احترامه، وليس لأنها كائن بذاتها لها منجزاتها التي لا علاقة للرجل بها.

حوار «المعزة» كان بعد أيام من الاحتفال بيوم المرأة العالمي، وقبل أيام من كلمة رئيس الجمهورية في الاحتفال بعيد الأم ويوم المرأة المصري، والذي ذكر فيه أنواع المرأة «المعترف بها» اجتماعيا، «أما حنونا، زوجة وفية، أختا فاضلة، و ابنة تملأ الدنيا سعادة...».

لذا، أن تظهر فجأة أستاذة جامعية، هي أيضا كاتبة و مترجمة، ترقص في بيتها في مقطع مصوّر نشرته على صفحتها الخاصة على موقع الفيسبوك، يعد كسرا لكل صور المرأة التنميطية التي يحاول الرجل، والمرأة التي بكل أسف تتبنى خطابه، ترسيخها، وكأن زلزالا وقع في مصر لأن امرأة عبّرت عن مكنون نفسها بجسدها، بالرقص، الذي يعد أقدم شكل تعبيري في الحضارة البشرية، مخالفة بذلك ما يعتبره الكثيرون تعاليم دينية/أخلاقا/ تقاليد اجتماعية/ إضافة إلى كونها أستاذة جامعية، ينظر إليها باعتبارها مربّية أطفال، لا يجوز لها أن تدرّس نصوصا أدبية تتناول الجنس أو الدين أو السياسة، أي الموضوعات التي تشكل حياتنا، والحياة الإنسانية بشكل عام، ومعناها وممارساتها وتجلياتها. فما كان من النظام الذي يدّعي الحداثة، ممثلا في إدارة الجامعة، إلا أن أحال الأستاذة إلى مجلس تأديب، وأرسل ملفها إلى النيابة العامة بتهمة الرقص و«الدعوة إلى كسر المقدسات واستبعادها لصالح سلطان العقل البشري في تحديد مصيره». ذلك، رغم أن الرقص ليس جريمة يعاقب عليها القانون، وأن إعمال العقل ليس جريمة يعاقب عليها القانون.

ورغم أن حالة من الانقسام سادت المجتمع المصري، ما بين مؤيد ومعارض لفعل الرقص وتصويره و نشره، فإن الموضوع فتح نقاشا كاد يُقفل بابه حول حرية المرأة وحقوقها، وأول ذلك حريتها في ما تملك، وأول ما تملك هو جسدها. غير أن وسائل الإعلام المختلفة تعاملت مع الأستاذة الجامعية باعتبارها شخصا منحرفا، وعادت لترسّخ تلك الصور النمطية عن المرأة إما كشيطان، أو حارسا للفضيلة.

ورغم قيام ثورتين في مصر أطاحت برئيسين في خمس سنوات، فإن الثورة الحقيقة، ثورة الفكر لم تقم بعد. وباستثناء ما أقرّه الرئيس التونسي من قرارت تشريعية تساوي بين المرأة والرجل في الميراث، وحق المرأة التونسية المسلمة في الزواج من رجل غير مسلم، لا يزال المجتمع العربي برمته، وخصوصا المصري، أسيرا لما يبثه شيوخ لا يحسنون التفكير، بالمرة، كل غايتهم قمع المرأة المستقلة، إن وجدت، وضمان سيطرتهم عليها، وترسيخ دورها في

رشوان عبدالكي

إمتاع الرجل، والتأكيد على أن خضوعها له يرفع من مكانتها ويدخلها الجنة، فللرجل القوامة، أيّا كان شروطها و سياقها أو قدرات الرجل نفسه. وإن يكن للمرأة دور نضالي، فهو القضاء على اليهود عن طريق الحجاب كما قال أحدهم.

في الواقع، ليس فقط المتأسلمون الذين يمارسون تسلطهم الذكوري على المرأة، والمستمد من قراءتهم للشريعة أو ما ينقل لهم عبر شيوخهم، بل من يدّعون أنهم ثوريون وليبراليون وعلمانيون و يساريون ونشطاء حقوق الإنسان والمرأة، وما إلى ذلك. إذ سبق أن أبديت وجهة نظر مختلفة فيما يخص بعض الأحداث السياسية في مصر، فما كان من هؤلاء إلا شتمي بكل تلك الشتائم التي تحط من قدر المرأة، والتي لا يجرؤ أحدهم أن يقولها لذكر مثله، «تشقيط الرجال، بمعني اصطياد رجال». هل يقول رجل لرجل، «أنت بتشقّط نسوان» باعتبار ذلك شتيمة يندى لها الجبين! بالطبع لا، فهذا ممّا يعدّ مفخرة للرجال، تماما على غرار «أنا ابني يبوس زيّ ما هو عايز»، أما المرأة، فهي لا تزال رغم كل ادعاءات الحرية، التي يتشدق بها هؤلاء، الحائط المائل الذي يلقي عليه الرجال نفاياتهم، إلا من رحم ربي.

ومع كل ما سبق، وما سيأتي، أتمنى ألا يمر ربع قرن آخر قبل أن تصبح المرأة كيانا قائما بذاته. و لهذا قررت الترشح لرئاسة مصر، كسيدة مصرية مثقفة لديها عقل وإحساس وجسد ورؤية لمستقبل أفضل لمصر، يعيدها إلى خارطة الدول المساهمة في الحضارة الإنسانية، بالعلم والفنون والآداب، وآملة في كسر كل من الصورتين التقليديتين للمرأة باعتبارها كائنا تابعا، ولرئيس الدولة باعتباره إلها حكيما.

كاتبة من مصر

رغم قيام ثورتين في مصر أطاحت برئيسين في خمس سنوات، فإن الثورة الحقيقة، ثورة الفكر لم تقم بعد. وباستثناء ما أقرّه الرئيس التونسي من قرارت تشريعية تساوي بين المرأة والرجل في الميراث، وحق المرأة التونسية المسلمة في الزواج من رجل غير مسلم، لا يزال المجتمع العربي برمته، وخصوصا المصري، أسيرا لما يبثه شيوخ لا يحسنون التفكير، بالمرة، كل غايتهم قمع المرأة المستقلة، إن وجدت، وضمان سيطرتهم عليها،

روح لأجل الكتابة

مريم الساعدي

إسماعيل قاين

«الكتابة تحتاج روحا، وأنا لا أمتلك الروح للكتابة الآن»، هكذا أجيب أصدقائي كلما سألوني عن أخبار الكتابة معي.

قررت أن أذهب إلى طبيب نفسي بناء على نصيحة إحدى الصديقات بعد أن وجدتني أقضي الوقت ممدة على كنبة رمادية أمام التلفزيون أشاهد الأفلام القديمة وآكل البيتزا باستمرار وأمامي أنواع مختلفة من الشوكلاتة وفناجين قهوة بأحجام مختلفة، حتى أن وزني ازداد خمسة عشر كيلوغراماً في السنة الأخيرة. صرت أقول إني لست فقط كبيرة الآن بل أيضاً صرت سمينة وهذا يحبطني ويزيد رغبتي في أكل المزيد من البيتزا، البيتزا مهدئ لكل المخاوف، في الواقع هي العلاج لانعدام الأفراح في الحياة.

هذا أيضاً ما قاله الطبيب النفسي، قلت له أنا أفهم كل شيء، لكن لا أستطيع أن أفعل أيّ شيء بهذا الفهم. وهذه الأيام لا أستطيع أن أكتب، لا أمتلك الروح للكتابة، كما أني لا أستطيع الالتزام بحمية غذائية، وأذهب للنادي الرياضي الذي أحرص على تجديد الاشتراك السنوي فيه فقط لأجلس في مقهى النادي وأشرب الشاي والقهوة مع بعض السندويشات.

قال بدون تردد «إنه الاكتئاب» كمن يعلن اكتشافاً خطيراً، ووصف لي علاجاً مضاداً له، عرفت لاحقاً أنه علاج مضاد للحياة أيضاً. قلت له لو أخذت الحبوب سأصبح رسمياً مريضة اكتئاب، أحب أن أظل مكتئبة فنياً فقط، إذ يمكنني مقاومته بالكتب والسينما والبحر والأصدقاء، أنا أقرأ الكتب وأذهب إلى السينما ولديّ الكثير من الأصدقاء المضحكين.

في ظلام صالة السينما تضيء روحي، لكن في الأفلام الجيدة فقط، للأسف أصبحت أغلب الأفلام عنيفة ومرعبة أو مبتذلة الآن، يقولون تجذب الجمهور أكثر، لكن أنا من الجمهور ولا أحبّ كل هذا، أريد أفلاماً إنسانية ترتقي بروحي وتعالج كآباتي وجروح الحياة الكثيرة، لكن لا يبدو أن أصحاب الصالات يهتمون برغباتي.

الطبيب قال توقفي عن خداع نفسك، إنه مرض العصر، منذ متى وأنتِ تعانين من حالة التبلّد هذه؟ لم أستطع تذكر مدة زمنية، ذاكرتي أيضاً مشوشة، فاستشفّ من حيرتي أنها مدة طويلة. «لا تخافي هي حبة واحدة في اليوم، علاج جديد لا يسبب إدمانا»، كما قال. أيقنت بعدها أن الطبيب النفسي أيضاً مثل أصحاب صالات السينما لا يهمّهم سوى بيع المخدرات للجمهور.

وقفت في طابور المنتظرين لأدويتهم في الصيدلية، الطابور طويل، أكثره نساء، بدت عليهن جميعاً رجفة خفية، يقفن منتظرات بصبر ورجاء للحصول على تلك الوصفة التي ستزيح عن قلوبهن صخرة الاكتئاب. جلست في كرسيّ جانبي أنتظر دوري وأفكر من يا ترى وضع تلك الصخرة على قلوب النساء؟ بَدونَ بلا ملامح، لا تهتم أيّ منهن بهندامها، يحملن أنفسهن هكذا فقط كيفما اتفق بمنتهى اللامبالاة.

تناولت حبتين منه ليومين، حسنا، ثلاث حبات، تحولت لكائن آخر، كائن يشبه تلك النسوة في طابور الصيدلية، لكنه لا يشبهني. الطبيب قال إن المفعول لن يظهر إلا بعد أسبوعين من تناول العقار، في الواقع ظهر مفعوله بعد اليوم الأول. أصابني بالبلادة، نعم كنت أمرّ بحالات تبلّد قبله لكن لم يكن ذلك يعجبني، لكن بعد تلك الحبة أصبحت أعرف أنّي متبلّدة دون أن أنزعج من ذلك، لم أشعر بأيّ ضيق، مشاعري صارت محايدة، لا شيء يزعجني، لكن أيضاً لا شيء يسعدني، لا أكره شيئاً، لكن أيضاً لا أحب شيئاً، لا شيء يهمّني، لثلاثة أيام كنت شخصاً مثل كل الذين كرهتهم في حياتي؛ أولئك المفصولين روحياً عن الإحساس بمعنى ومعاناة الوجود. تجعلك تلك الحبوب تشعر أنك شخص عادي تماماً، بلا أيّ نكهة بلا أيّ هالة بلا أيّ رائحة، والمشكلة أنك لا تكره نفسك لذلك. أحسست أن المقدرة على كره الذات أمر ضروري، هو مقياس الوعي والإدراك وقابليتك للشعور بالحب.

إن فقدت القدرة على كره البشاعة والفشل وانعدام المروءة ووضاعة الأخلاق والقذارة، فلن تستطيع أن تشعر بالحب تجاه الجمال ونقاء النفوس وصفاء الأرواح وفروسية العقول وروعة الأصدقاء وبهجة الطبيعة ونظافة الشوارع. هو إحساس مطلق باللامبالاة؛ ولكن ليست تلك اللامبالاة الفنية التي تجعل المرء متمرداً على الأطر العامة و«المناسب» و«التقليدي»، لكنها لامبالاة اللامكترث حتى بلامبالاته؛ لامبالاة الجثة نحو العيون الباكية عليها. توقفت عن تناوله. تباً للطب النفسي الحديث، إنه تجارة بحته لترويج أدوية التخدير، يسلبون الناس أرواحهم.. «يُخصونهم نفسياً»، فيصبح الواحد منهم حياً بدون حياة ولا يعترض.

الآن أفكر في العودة إليه، مضت مدة طويلة لي أمام شاشة التلفزيون، العلبة أمامي، أفكر ماذا لو خُلقت قبل اختراع التلفزيون؟ لربما كنت ملأت وقتي بقراءة الكتب التي تتراكم في مكتبتي دون أن أفتح حتى الغطاء البلاستيكي على أغلفتها.

أحب الكتب، هي حبوب اكتئابي، كان الانتهاء من قراءة رواية كفيل بإخراجي من دنيا البلادة لدنيا الحياة بكل قوة ووضوح رؤية وتوازن نفسي وسعادة. لكن هذا كان أيام الطفولة والشباب الأول، حين لم يكن لديّ الكثير من الكتب. هل تقتل الكثرة الرغبة؟ كنت أحلم بمكتبة كبيرة، كنت أشتهي رائحة الكتب، كلما دخلت إلى مكان فيه مكتبة كنت أبكي من شدة الإحساس بجمال الحياة، لكن لم يكن لديّ في البيت مكتبة. لا أحد يهتم بالكتب غيري، الآن أصبحتُ مستقلة، أشتري ما أشاء من الكتب، ولديّ الوقت، لكن ليست لديّ الروح. أين تذهب أرواحنا الأولى حين نكبر؟ من يسرقها منا؟ الزمن؟ الناس؟ الأحداث؟ أقول إنها خيبات الأمل. في بداية الحياة يظل الإنسان مؤمناً بالأمل، ثم يصاب بخيبات متوالية على كل الأصعدة، ثم يفقد الإيمان بالأمل، ثم لا يعود أيّ شيء يهم.

البارحة تفرجت على فيلم هوليودي عادي، في الأحوال النفسية الجيدة أنتقي ما أشاهد من أفلام، لكن في حالات البلادة أشاهد أيّ شيء. البنت تكتشف أنها تحب صديقها بعد أن يموت وتظل محتفظة برماده في قارورة تحملها معها، حتى تكتشف عدد علاقاته فتنثر الرماد في الشارع. الكذب يدمّر الحب، والحب أسمى ما يمكن أن تعتنقه الروح، إنه إشراقتها الخاصة. لكن ذهابه يترك مرارة تستمر فترة طويلة، ربما للأبد. فتنمو صخرة على القلب تربض مثل كلب أسود شرس تصطف بسببه النساء في طابور عيادة نفسية. لذلك ربما من الأفضل ألاّ نحب، وربما من الأفضل ألّا نتعلق بأيّ آمال كبيرة، الآمال الكبيرة هي مفتاح خيبة الأمل الذي نفتح به باب كهف الاكتئاب.. علينا أن نتذكر دوماً أن نضع أقدامنا على أرض الواقع فنحسّ فقط بما هو أمامنا وبما هو بأيدينا ونعتني فقط بأنفسنا وبما يريحنا وبما نستطيع السيطرة عليه.

أعرف أنّي أقول هذا الآن فقط، وأني في الصباح سأنسى مجدداً هذه النتيجة العقلانية وأخرج بسقف مرتفع من الآمال الكبيرة لأعود في المساء وقد سقط السقف على رأسي لأحتمي بالكنبة الرمادية ليوم رمادي آخر. أوشك أن أمد يدي إلى العلبة في الطاولة الصغيرة لكن عوضاً عن ذلك أمد يدي إلى جهاز اللابتوب الواقع أرضاً، أسحبه، أضعه على حجري، أفتحه، وأكتب هذا النص.

كاتبة من الإمارات

26 قصة
من المغرب العربي

26 قصة لكاتبات وكتّاب من الجزائر والمغرب وتونس تغطّي مساحة من الكتابة القصصية التي تبدعها الأقلام الأدبية العربية، وتشترك في الموضوعات والاهتمامات الجمالية والتعبيرية، وطرائق السرد والتعبير، وقد تعددت وتنوعت وباتت تشكل إرثا أدبيا حديثاً لا بد للنقاد من النظر فيه قراءة وبحثا ونقداً، لاستكشاف طبيعة المغامرة القصصية العربية اليوم.

وقد سبق لـ«الجديد» أن قدمت في أعدادها السابقة ملفات قصصية كشفت عن مدى احتفاء العرب بهذا الجنس الأدبي الممتع ولكن المهمل أيضاً من قبل المؤسسات التي ترعى الأدب وتحتفي به.

ولئن كنا كرسنا عدداً كاملا من «الجديد» في سنتها الأولى لهذا الجنس الأدبي فإننا في هذا الملف وفي ملفات مقبلة سنواصل الاحتفاء به وتسليط الضوء على الإبداعات القصصية في جغرافيات عربية مختلفة لعل قيما تعبيرية وجمالية وموضوعات مشتركة يمكن الاستدلال عليها في تلك الملفات المخصصة لكتابة القصص في الثقافة العربية.

وإذ نقدم على هذا فإننا لنأمل أن يلتفت نقاد الأدب إلى هذا الجنس الأدبي لمقاربته واستكشاف ما يزخر به وما يميزه. وفي الوقت نفسه نتطلع إلى أن تأخذ المؤسسات الثقافية العربية المعنية بنهضة الأدب المبادرة للاحتفاء بفن القصة وتكريم مبدعيه ■

قلم التحرير

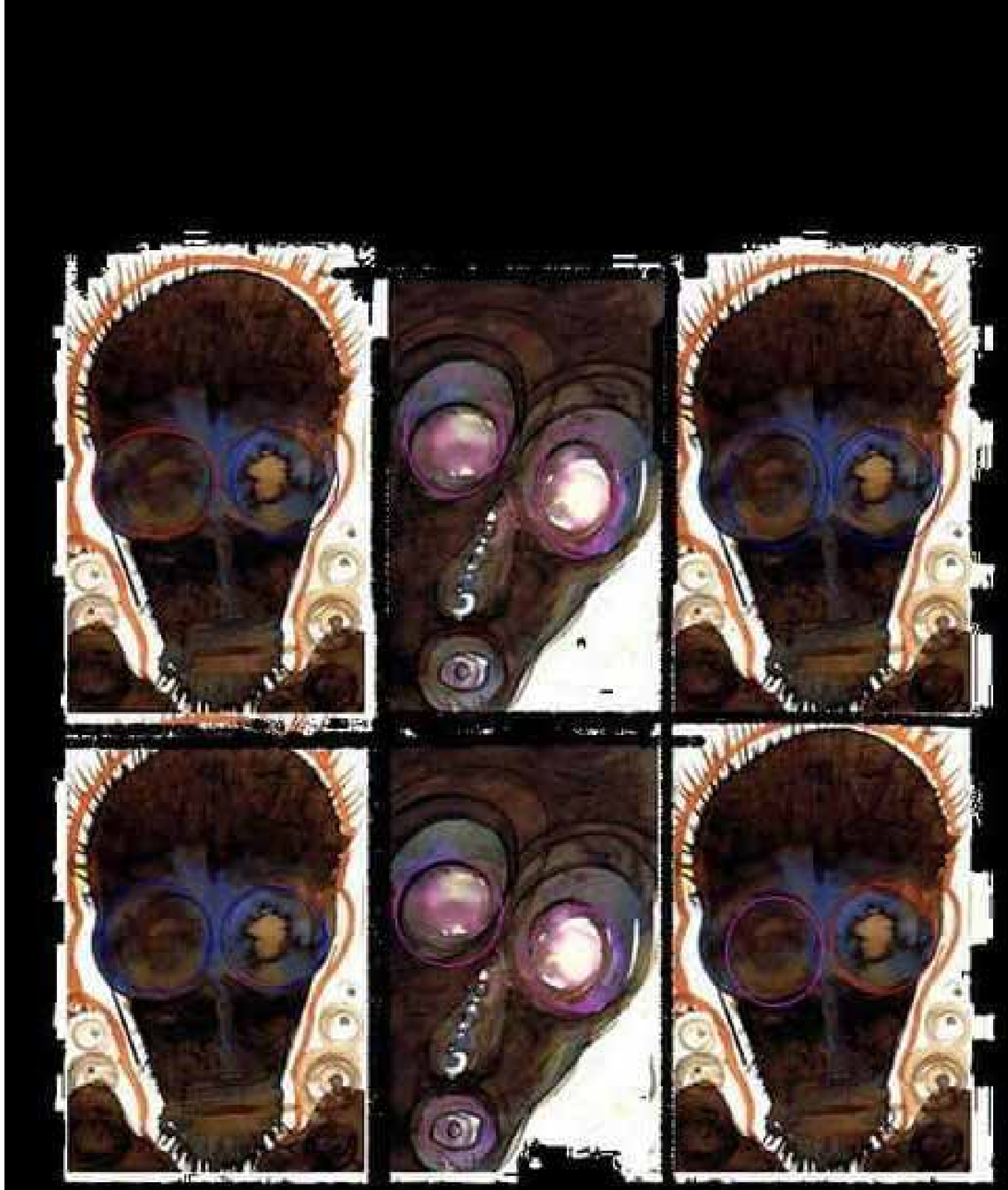

مخترق أبو راوي

ثلاث قصص

إبراهيم أبويه

جولة في البرية

أصوات كثيرة متداخلة. سيمفونية من اللغط. أغنيات لكل الأذواق. كان القطيع مستمتعا بالعشب والماء والشمس. امتلأت البطون. برزت ملامح الفحولة. ارتطمت القرون بالقرون. احمرّت العيون..

تحت كرمة قديمة، أرخت النعاج جفونها في انتظار البطل. الخراف الضعيفة انحرفت خلف النعاج باحثة عن ظلال تقيها حرّ شمس الظهيرة. الحملان مرحة تحاكي ما يقوم به الكبار. الأكباش الحكيمة التجأت إلى صمتها.

ينهض الراعي من سباته حاملا عصاه. بهشة واحدة يعود النظام إلى مجتمع القطيع. يصمت الجميع. يتخذ الراعي القرار. يردد القطيع سيمفونية «مااع، بااع».

الأسود التي تستوطن الجبال المجاورة، لم تعد تعبأ بلحم القطيع، فدربت نفسها على التهام العشب..

تحت ضوء القمر

لتلك الحديقة بابان: بابٌ تدخل صبايا منه لقطف وردة يسكن حبيبٌ داخلَها، وبابٌ يخرج رجلٌ منه تاركاً وراءه بقايا امرأةٍ. في الليل، يقفل الحارس البابينِ دونَهم. ساعتئذٍ تستطيع الأزهار أن تحبَّ بعضها، أكثرَ، تحت ضوء القمر.

صعود إلى هاوية بعيدة

الليلة الأولى كانت بقرية صغيرة تسمى تاكلفت. كانت مدفونة وسط الجبال التي جعل منها شجر الفلين لوحة خضراء. كانت صغيرة. ترابها بين البني والأحمر القاني. كانت الرحلة إليها في سيارة «خَطّاف» عتيقة تتستر على لونها الأبيض القديم، وتحمل فوق سطحها برميل ماء مربع الشكل، ينتهي أنبوبه المطاطي عند السائق الذي كان يضغط عليه قليلا كلما ارتفعت حرارة المحرك، فيصب في جوفه كثيرا من الماء حتى لا يتوقف عند خط الصعود الذي اعتقدت أنه لن ينتهي من فرط التواءاته الكثيرة. كانت أسئلة السائق لا تنتهي، وكأنه يريد أن يعرف كل شيء عنّي في وقت وجيز قبل أن تصل الرحلة إلى غايتها. كنت أجيب بصبر وتحمل لعلني أكسب عطفه الأمازيغي، ويجد لي مكانا أبيت فيه تلك الليلة في القرية الصغيرة التي ستستقبلني بعد انتهاء هذا الطريق الملتوي.

أخرجت أمتعتي من صندوق السيارة، بينما آذان المغرب يصدر من مسجد قريب، والشمس تستعد للرحيل لتتركني واقفا أمام أمتعتي، بعد أن خيّب السائق ظني وقفل راجعا بحمولة آدمية كانت تنتظره ليأخذها إلى مكان لا أعرفه. رفعت الأمتعة وقصدت مكانا بدا لي كمقهى شعبي. سحبت كرسيا حديديا وجلست. خرجت من المحل امرأة في عقدها الرابع، وسلمت علي وفي عينيها أسئلة كثيرة لم تستطع الإفصاح عن مضمونها أمامي، واكتفت بسؤال أمازيغي فهمت منه أنها تنتظر مني أن أطلب شيئا معينا. أدركت الأمر وطلبت إبريق شاي قامت بإحضاره بعد دقائق. أشعلت سيجارتي الأولى بهذا المكان القصي، وارتشفت كأسا بسرعة كبيرة بعدما بدأ الجو يبرد بقساوة لم أعهدها من قبل، انضافت إلى قساوة المكان.

مرت دقائق معدودات ثم ظهر رجال القرية بعد أن أدّوا صلاتهم في المسجد الصغير الذي يقابلني. تفرقوا في الممرات الصخرية مدركين بيوتهم الحجرية التي تناسلت على قدم الجبل. وقف بقربي رجلان سرعان ما انخرط أحدهما في حديث مع صاحبة المقهى الشعبي لم أفقه منه شيئا. لكن نظرات الرجل الثاني الذي اختفى جسده النحيل داخل سلهامه الصوفي الأسود، جعلتني أفهم أني موضوع حديثهما. تأكدت بعد أن التفت الرجل الأول إليّ وابتسم وقال بعربية ركيكة:

- أهلا وسهلا سي محمد، منين نتا؟

أخبرته كل شيء وبسرعة علّني أربح بعض الوقت الذي سيمكّن جسدي من الراحة والنوم. طلبت منه أن يدلّني على خان شعبي أبيت فيه ليلتي قبل أن أسافر في الغد إلى أعلى الجبل. شرع يخاطبني بلغة بين العربية والأمازيغية. كنت أطأطئ رأسي علامة على الفهم، بينما الواقع أن همّي الوحيد هو الوصول إلى مكان أغلق خلفي بابه وأتمدد حتى يحل الصباح.

طلب الرجل من المرأة أن تأخذني إلى المكان الذي أشار إليه. تبعتها وأنا أحمل أمتعتي التي كرهتها لثقلها الذي لم أعد أحتمله في تلك اللحظات.

صعدنا، اجتزنا ممرات ضيقة. رأيت على جانبيها بيوتا كأنها من زمن مضى. وصلنا أخيرا إلى بيت طيني عتيق سرعان ما انفتح بابه لأجدني في ساحة مليئة بالتيوس والعنزات. اخترقنا صفوفها حتى بلغنا غرفة بابها أخضر وتوشح صباغتها رسوم أمازيغية.

دخلت فتبعتها. قالت إن العشاء سيكون جاهزا بعد ساعة. فرحت بهذا الكرم المفاجئ. وضعت أمتعتي في ركن من الغرفة بعد أن أشعلت شمعة كانت موضوعة على نافذة صغيرة. «مرحبا أزاجل عندنا وقبل علينا»، قالت ثم انصرفت.

معتوق أبو راوي

فتحت الحقيبة الجلدية وأخرجت بعض الملابس الرياضية التي وضعتها بسرعة على جسدي الذي بدأ يتأثر بالبرد. رتبت كل شيء وتمددت. ثبتّ بصري على سقف الغرفة الذي انتظمت فيه أعمدة خشبية منعت القصب المرتب بعناية من الانزلاق. استعدت شريط الرحلة وأنا أضغط على ذاكرتي كي لا تسافر إلى أبعد من ذلك، فيصيبني الأرق وأنا بحاجة إلى السكينة والهدوء خصوصا في هذه الليلة الأولى.

مرت الدقائق كأنها ساعات، وسمعت طرقا على الباب تبعته ملامح امرأة تحمل إناء به ماء دافئ وطلبت مني أن أغسل يدي. قمت بما أمرت واعتدلت في جلستي. خرجت ثم عادت تحمل طاجينا وضعته أمامي وجلسَت.. رفعت بصري خلسة لأتفحص هذا الوجه على الضوء الخافت للشمعة، فإذا به يحمل معالم جمال زاده الكحل والألوان بريقا عجيبا..

انتهى العشاء وانتهت معه كل الأفكار والمخططات التي بنيّت دون استشارتي. ثم إني رجل متعب، محبط ولا يعرف أيّ شيء عن مكان يعتبره عودة في الزمن إلى عصور قديمة، لا يتقن تفاصيل التعامل معها (على الأقل الآن). كان الليل يخفي مفاجآت أخرى لم أعهدها من قبل. فبعد أن أطفأت الشمعة وهدأت حركة الدواب والقطعان خارج الغرفة المظلمة، بدأت حياة أخرى تدب في فراشي. أحسست بلسعات تخترق جلدي الآتي من المدينة، واعتقدت أنها من فعل اللحاف الصوفي الثقيل والخشن، أو ربما من العرق الذي رافقني خلال الرحلة.. لكن الوخز أصبح كثيرا، متكررا ومؤلما. أشعلت الشمعة فانقطع كل شيء. تحسست مكان الوخز في جسدي فوجدته بقعا منتفخة ودائرية. عدت إلى ظلامي بعد برهة قليلة أشعلت فيها سيجارة، علّ تلك الكائنات غير المرئية تعاف رائحة التبغ وتتركني لحال سبيلي، لكن الظلام كان بمثابة شمس ساطعة لتلك المخلوقات التي لا أعرفها ولا تعرفني.

ظلت الحال على ما هي عليه من الوخز والألم حتى سمعت وقع الحوافر خلف الباب يكثر، وخيوط محتشمة من النور تتسلل من النافذة الصغيرة، فأدركت أن الصباح قد حل أخيرا، وأنني سأتخلص من هذا العذاب الذي لم أكن على موعد معه، والذي انضاف إلى التعب والسهر القهري وأمور أخرى اجتمعت كلها في ليلة واحدة.

شربت بعض الماء وأشعلت سيجارة. فتحت النافذة الصغيرة واتكأت على حافتها العريضة أنظر إلى القطيع وهو يتسابق نحو الباب الرئيس للبيت، خلفه راعٍ يرتدي جلبابا قصيرا وتبدو عليه ملامح الشباب. التفت وابتسم لي، فناديته بإشارة من يدي. وعندما أصبح أمامي، قدمت له سيجارة لكنه اعتذر بتلويحة من عصاه. سألته وأنا أرفع أطراف ثوبي كي يفهم ما أعنيه بكلامي. نظر ثم قال:

- البرغوث.

استدار بسرعة وركض خلف آخر تيس كان يحاول ركوب ظهر عنزة، نهره بعصاه ثم رحل مع القطيع.

كاتب من المغرب

شجرة الزّقّوم

أبو بكر العيادي

دوّارنا بيوت مشرعة للشّمس والرّيح، للعجاج والفيضان، في صدر سهل منبسط ما بين مجردة وملاّق، أمامها مراح واسع جنب زريبة وبئر وكوم دمان يتوسّط أحواضا من الفول والحمّص والحلبة تنفرش حتّى حافة الطّريق الرّابطة بين مدن الشّمال الغربيّ. وخلف البيوت جنان مربّع تعمره الخضر وبعض أشجار العود الرّقيق، وتسوّره طوابي التين الشوكي، وما وراءه حقول القمح والشّعير تترامى نحو أفق لا تحدّه سوى جبال ربيعة، وتقوم في وسطها، كحارس لا ينام، جبّانة العشيرة. وعلى اليسار غابة زياتين صغيرة تشهد على حضورنا من عهد قديم.

كان الجوّ لا يجمل إلاّ في فصل الرّبيع، وما عداه صيف قائظ خانق تفوق حرارته حرارة المناطق الصّحراويّة، وشتاء قارس تتجمّد فيه المياه وتنحدر الحرارة إلى درجة الصّفر، وما بينهما خريف يصفو حينا فيذكّرنا بأيّام الرّبيع البديعة، ويغيم حينا آخر فيصيب النّفس بالهمّ والكدر. ومع نزول بوادر الغيث وانطلاق موسم الحرث، تشرع الرّيح الغربيّة في الزّحف ببرد يلسع العظام ولا نجد لاتّقائه حيلة، إذ أنّ شجر الجنان وطوابيه الشّوكيّة أعجز من أن تحمينا من لفحها البارد ولذعها القارس.

وفي يوم نبتت في قلب الجنان شجرة لم يغرسها أحد. شجرة غريبة لم نعرف لها مثيلا في الجهة. كانت تنمو وتتضخّم على مرأى العين حتّى عظم جذعها وتفرّعت غصونا وفروعا وشجونا وأينعت أوراقها خضرة تلمع تحت نور الشّمس، ونحن نرقبها كلّ يوم، ونتوق لمعرفة نوع الثّمر الذي سوف تجود به. ولكنّها لم تثمر. عظمت حتّى فاق طولها مئذنة المدينة إذ تلوح لنا عن بعد لا يصدّها عن أنظارنا حاجز، وفرشت ظلالها على الجنان كلّه دون أن تعطي ثمرا نجتنيه. وعزّينا أنفسنا بقامتها الشّامخة، وظلّها الوارف، ولونها الذي قلّ نظيره في أوراق الشّجر المعروف، وأملنا أن تكون للدّوّار سدّا منيعا يقينا الرّيح والبرد، بل وجد من بيننا من صار يزورها في أيّام معلومة، يتبرّك بها ويعقد فيها النيّة، ويرجو منها الكرامات. وحده جدّي كان ينظر إلى هذه الشّجرة الغريبة نظرة شكّ وارتياب، ويقول إنّه رأى في ما يرى النّائم أنّها حمّالة لشرّ مستطير، فقد رآها تنهض وتمشي، كما يمشي ابن آدم، بخطى ثقيلة هائلة، تهشّم الزّرع وتحطّم الشّجر وتدوس الماشية، حتّى صار يمقتها ولا يسمّيها إلاّ شجرة الزّقّوم.

صحونا مرّة على صوت أبي يناديا. فزعنا إليه، فإذا هو حائر ذاهل يشير بإصبع مرتجفة إلى النّبت وقد ذوى، وإلى الشّجر وقد جفّت أوراقه وتساقطت أزهاره برغم خصوبة تربتنا ورواء طبقتها الجوفيّة. أقبلنا جميعا نسقيها لنعيد إليها الحياة، فما انتعش النبّت ولا اعتدل الشّجر.

هرعنا إلى جدّي نسأله النّصيحة، وكان مقرفصا تحت جدار بيته متدثّرا كالعادة ببرنس الصّوف القديم، يمدّ إلى السّماء بصرا كليلا يبحث عن شعاع يدفّئ عظامه. نظر إلينا بعينه اليمنى فيما اليسرى شبه مغمضة من كثرة ما خوّصها في مواجهة الشّمس. وبصوته اللّطيف الهادئ قال: «اقطعوها!».

ارتسمت على وجوهنا الحيرة، ونحن نتساءل بأيّ فأس نقطعها وجذعها صار في حجم قبّة المسجد. قلنا نضربها ضربة رجل واحد بفؤوس كثيرة، غير أنّ أبي عارض هذا الرّأي لأنّ في ذلك خطرا لا نقدّر عاقبته، فقد تقع على أحدنا فتسوّي به الأرض، واقترح أن نقصد المدينة بحثا عن منشار آليّ وكبل من حديد وجرّار، فأيّدنا اقتراحه، ومضى كلّ واحد منّا يعدّ ما يلزم كي نقطع هذه الشّجرة اللّعينة، ونزيلها من أرضنا. ولكن لَمّا عدنا، بهتنا لهول المنظر الذي كان في انتظارنا: كانت الأشجار كلّها عارية. الجذوع يابسة ليس بها غير فروع مجرّدة قد فارقت الحياة كأنّما هبّت عليها نار حارقة، والنّبت قد زال من الأحواض، ولم يبق منه غير تربة رمداء مائلة إلى السّواد. اتّقدت صدورنا بغلّ شديد، فأقبلنا نطوّق جذع شجرة الزّقّوم كما يقول جدّي بكبل من الحديد أوثقناه إلى جرّار عند مدخل الجنان، ونعمل في جذعها المنشار الآليّ الذي عدنا به من المدينة. وطال بنا الوقت تعبا وإنعاما في المحاولة، ولكن خاب مسعانا: تكسّر المنشار، وانقطع الكبل، وتعطّل الجرّار، والتهبت أكفّنا، واعوجّت من الجهد ظهورنا، دون أن نخلّف في جذعها أكثر من حوازّ طفيفة. ومن عجب أنّ تلك الحوازّ نفسها كانت تلتئم مثل جرح يندمل في لمح البصر بمفعول سحريّ.

عدنا إلى جدّي نسأله، وكان متربّعا على حصير في خلوته يتلو أوراده. فرك سبحته بين يديه ومسح بكفّه على وجهه ثمّ قال: «اضربوا الرّأس تنشف العروق!».

تركناه وبتنا ليلتنا نلجّ بالوجس والوساوس من هذه الشّجرة التي ابتلانا بها الله. ولَمّا طلع النّهار، جئنا من المدينة بسلالم من تلك التي يستعملها رجال المطافئ، وشرعنا نقطع الرّأس جزءا جزءا ونحن مغتبطون، إذ لم نجد في قطعه صعوبة تذكر، ولم ينقض النّهار

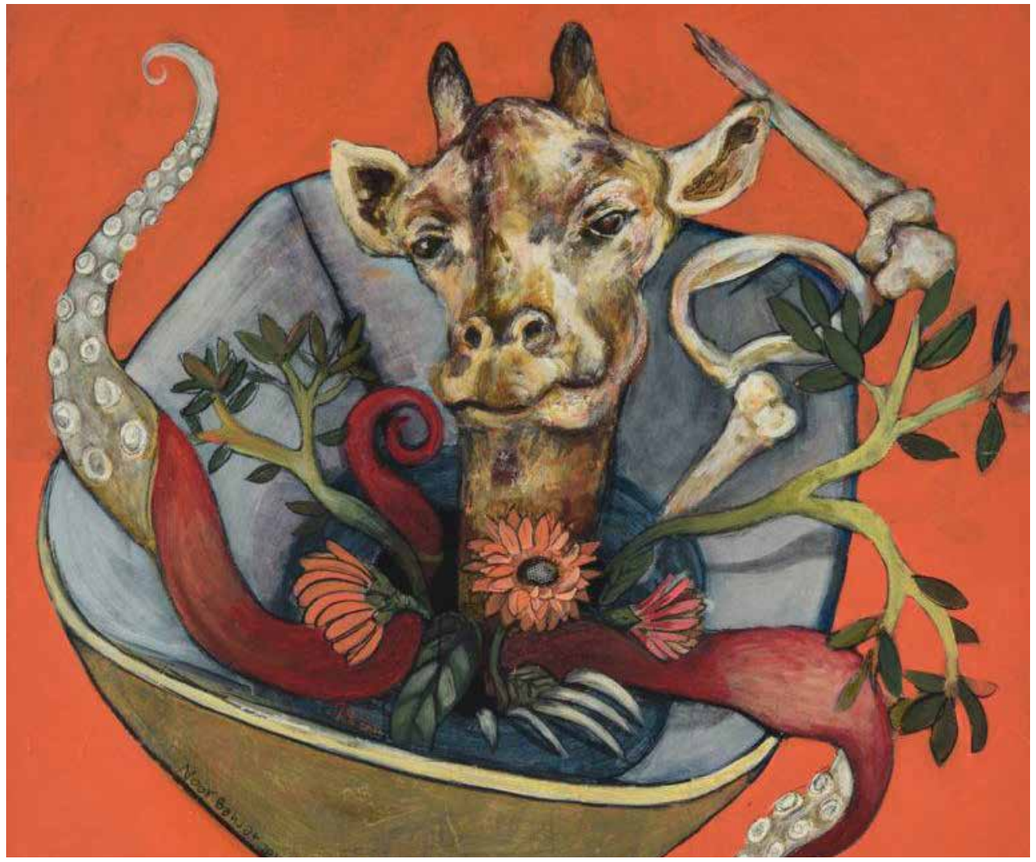

نور بهجت المصري

حتّى أتينا عليه، ولم نبق من الشّجرة غير الجذع. تبدّى لنا ميّتا أو كالميّت، قائما مثل مدخنة فرن آجرّ، ونحن نطوف حوله ونهلّل فرحين يهنّئ بعضنا بعضا، والنّسوة يطلقن زغاريد النّصر على تلك الآفة الغامضة. ولكن عندما هبط اللّيل وأوى كلّ واحد إلى فراشه يبحث عن راحة بعد إجهاد، خيّل إلينا أنّ الأرض تميد، وأنّ البيوت تتحرّك، تهتزّ وتقرقع كأنّها عربات قطار لنقل البضائع. وتعالت من الزّريبة أصوات الدّوابّ، واختلط الخوار والثّغاء والصّهيل والنّهيق بنباح الكلاب وقد استشعرت كلّها خطرا يحيق بالدّوّار ومن فيه.

خرجنا نتنادى في ظلمة اللّيل نرفع المشاعل والكشّافات والأرض تحتنا زَحول لا تنفكّ تميل بأقدامنا ذات اليمين وذات الشّمال، كأنّ في جوفها ثعابين ضخمة تتحرّك، تثني وتتلوّى، فتنشقّ لها قشرة الأرض في جلبة أشبه بتصدّع سقف ينهار. وما كاد الخيط الأبيض يدحر الخيط الأسود وتنسلّ أضواء الفجر الواهنة إلى الدّوار بضوء لا يني يقوى ويعمّ، حتّى تجلّت لنا الكارثة في أبشع صورة: كانت شجرة الزّقّوم اللّئيمة قد مدّت عروقها، فاستطالت ومضت تقتل الزّرع وتخنق الشّجر وتقوّض البيوت وتشرّد الأنعام. ولاح لنا الدّوّار كأنّما أصابه زلزال أو داسته أظلاف ديناصور أخطأ عصره، وتبدّت الحقيقة المرّة على كلّ لسان: «ضربنا الرّأس ولم تنشف العروق!».

وفيما نحن حيارى واجمون لا ندري كيف نواجه هذه المصيبة -حتّى جدّي التجم عن الكلام وهو يرى الواقع يخالف ما استقرّ في ذهنه من تجارب الأولين- أبصرنا أولادنا يهرعون بالفؤوس يقطعون العروق في ضربات حاسمة، وصاح صائح منهم : «اضربوا العروق ينشف الرّأس!» ولا يزال الفتية يلاحقون العروق، يتصيّدونها واحدا واحدا وهي تتلوّى مثل أخطبوط بترت أذرعه حتّى قضوا عليها جميعا. عندئذ جفّ النّسغ ومات الجذع، فمضوا يضربونه بالفؤوس هو أيضا، فيتطاير قطعا كتثار حطب يابس.

عندما اقتلعنا ما غاص منه في جوف الأرض، لاحت لنا حفرة عميقة مثل فوهة بركان أو أثر سقوط حجر نيزكيّ.

قال الفتية: «لا تراعوا! سنردمها ونعيد كلّ شيء كما كان، بل أحسن».

كاتب ومترجم من تونس مقيم بباريس

ريشة الغراب

إسماعيل غزالي

طفق يمشي في ضاحية المدينة بجوار النهر عندما سمع طلقة بندقية. أعقبها صياح: غاق. غاق. غاق. في تلك اللحظة شاهد ريشة تتلاوح في السماء و تتراقص وتروم وجهته. شرعت تتهاوى إلى أن ارتطمت بوجهه واستقرت على صدره. أمسكها وفحصها ثم نظر في الجهات كي يكتشف مكان القنّاص ولم يظهر له من وجود أو أثر. أمعن النظر في الزوايا الأخرى علّه يكتشف مكان الغراب الذي فقد ريشة من جناحه. داعب الريشة ووضعها في جيب معطفه متمتما:

- لِمَ لا؟ ريشة غراب قد تكون تحفة لا تقدر بثمن!

أقفل راجعا إلى عمله، ونسى أمر الريشة الرابضة في جيب معطفه. الرجل يشتغل محررا في مؤسسة أدبية متخصصة في نشر دواوين الشّعر لا غير، وهو منهمك في هذه الأيام بإعداد مختارات شعرية، انتخب لها مئة قصيدة، لمئة شاعر.

في تلك الليلة بعد أن عاد من الحانة المجاورة، حيث اعتاد أن يشرب ستّ جعات لا يتجاوزها، سقطت الريشة من المعطف حيث كان يعلّقه على المشجب.

«ماذا سأفعل بهذه الريشة اللعينة؟» تساءل.

استأنف أزيز حيرته مخمّنا في هذٍ، هل يحتفظ بها في صندوق الأشياء المهملة إلى حين، فقد يوظّفها في لوحة مرتجلة يوم عطلة الأسبوع حيث اعتاد أن يلعب بالأشياء كطفل في غرفة الخردة؟ أم يعلّقها في الحائط أو يضيفها إلى قناع سيحتاجه خلال حفلة تنكرية! ربما سيهديها ذات ليلة حميمة إلى إحدى نسائه غريبات الأطوار!

فجأة عنّت له فكرة مغرية وقصد الخزانة. أخرج دواة عتيقة من قمطر مكتب مصنوع من شجرة العرعار. جلس إلى مكتبه و شرع في الكتابة بنصل الريشة.

كتب دفعة واحدة دون انقطاع، فاتضح أنه كتب رسالة إلى امرأة ما. في الصباح كتب عنوانها الذي رآه في حلم ليلة البارحة، وتردّد قبل أن يضع المظروف في صندوق البريد. رام وجهة عمله وأنفق نهاره هناك، ثم عرّج على الحانة مساء وشرب ست جعات، وآب إلى بيته وشرع في كتابة رسالة ثانية إلى امرأة مجهولة، وفي الصباح دوّن عنوانها كما رآه في منام ليلة البارحة. وضع الرسالة في صندوق البريد ورام وجهة العمل. هكذا أمسى يكتب في كل ليلة رسالة بريشة الغراب، ويحلم بعنوان امرأة جديدة في منامه، فيدوّنه صباحا ويضع الرسالة في صندوق الرسائل. واظب على تلك الوتيرة دون ملل إلى أن بلغت رسائله الأربعين.

توقف عن الأمر بغتة، حيث عجز عن كتابة رسالة أخرى بعد الأربعين تلك. حاول مرّات وكرّات. كانت يده تتحجّر على الورقة البيضاء، ولا يستطيع أن يدوّن حتى نقطة. استغرب لذلك فربما نهر الوحي انقطع فجأة أو تجمّد بالأحرى.

تساءل كيف لمْ يحتفظ بنسخ من تلك الرسائل، فلربّما ضاعت كلها، والأحرى أن يجمعها في كتاب يقترحه على المؤسسة التي يشتغل فيها كمحرّر أدبي.

انصرمت أيام -تقدّر بأربعين أسبوعا تماما و كمالا- عندما وجد امرأة تنتظره ليلا على عتبة بيته وقد عاد من الحانة.

- عذرا هل أنت هو السيد المحرّر؟!

قالت له بتوجس وتردد.

نظر إليها مشوشا، فلم يسبق له أن رأى وجهها أو عرفها في يوم من الأيام.

- أهلا بك سيدتي.

دخلت السيدة معه إلى الشقة، وهناك سألته وهي تجلس على الأريكة باحتدام:

- أود أن أعرف بداية من دلّك على عنواني؟

- أيّ عنوان ؟ سألها مفاجأ باضطرام.

أخرجت رسالة من حقيبتها واتضح له أنها الرسالة الأربعون، الرسالة الأخيرة التي أرسلها لآخر امرأة مفترضة، حيث انقطع وحي كتابته فيما بعد.

أصابه الذهول وخرس طويلا قبل أن يتمتم:

- هل أنت صاحبة العنوان؟

- كيف تجهلني إذن وقد بعثت لي رسالة باسمي، بل تصفني بدقة متناهية وتطري على أنوثتي وأشيائي؟!

وقف المحرر واحتار فيما سيقول أو يفعل، ثم نبس:

- الحكاية تحتاج إلى كأس، فهلّا قبلت بدعوتي؟

وقفت ورسمت ابتسامة مبهمة. لهجت:

تانيا الكيالي

- لن أمانع، ما دام في الأمر حكاية يجب أن أسمعها بالكامل.

في الحانة حاول أن يشرح لها بأنه يجهلها بالفعل ولا يعرف شيئا عن عنوانها، فكلّ ما في الأمر أنه وجد نفسه يكتب رسائل من فترة ويرى عناوين تلك النساء في أحلامه، فأخذ يرسلها تباعا لهن.

- وهل تذكر أسماء أولئك النسوة الأربعين؟

سألته في توتّرٍ ذاهلٍ.

- بلى أتذكّر أسماءهن وعذرا إن صارحتك بأني لا أتذكر عناوينهنّ، فما أن دوّنتها حتى نسيتها فورا.

في الحانة بدت له امرأة في الخمسين من عمرها، ذات جمال باذخ وناهب. سحرَه وجهها الغريب، فأطياف نداوتها ثرية وبضاضتها جليلة وإيحاءات أقنعتها مترفة، وفي عينيها تتألق ألوان شتى بين الأزرق والأخضر والكستنائي.

خرق قانون الست جعات منذ رجع إلى السهرة، وشرب بذهول مفرط غير مصدق لما هو فيه من جنون أخرق. ليته كان محرّرا في مؤسسة تعنى بالقصص البوليسية بدل الشعر، ليجزم الظنّ بأن المسألة محض تأثير هذياني من الأعمال التي يشرف على تدقيقها والتصرف في متونها.

في سريرته تساءل وهو يمعن النظر فيها بإعجاب كاسح:

- ماذا لو أن النساء الأخريات حقيقيّات أيضا وجئنه بالتوالي واحدة، واحدة، ترى كيف سيكون جمالهن، أيفوق سحر هذه، أم يقلّ عنها؟

لم يكن قد انتهى من هسيس تخمينه عندما رشفت من جعتها السادسة قائلة:

- ماذا لو اكتشفت أن النسوة الأربعين، ما هي إلا نسخ لواحدة لا غير؟

ضحك وهو يعدّد جعاتها الستّ و تمتم:

- أربعون في واحدة، هل الأمر شبيه بلغز أم مزحة؟
ابتسمت بشكل ناهب كبرق متفرّع الأثر وقالت بحماس صلب:
- قطعا ليس مزحة ولا لغزا!
- مجازيا يبدو الأمر سحريا كقصيدة عظيمة، أما واقعا فلا يمكن لخيالي أن يذهب بعيدا إلى هذه التخوم القصيّة.
شربث ما تبقى في جعتها السادسة، ثم نبشت حقيبتها وأخرجت الرسائل الأربعين بما فيها رسالتها الأخيرة، ونشرت الذخيرة على الطاولة، عندها انتفض في مكانه مصعوقا ونظر شمالا ويمينا في ريبة متفاقمة، ربما يحلم!
رجع بنظرته المتحجّرة إلى الرسائل، ثم إلى وجهها، وهتف بصوت اعتورته بحّة خثراء:
- أي لعبة خرقاء هذه؟
طلب جعة واستأذنها في أن تستزيد وقالت:
- عذرا لا أتجاوز الستّ منها.
لم يباغته أنها مثله لا تتجاوز الست منها، وإن كان تلك الليلة قد تخطّاها، فما يرجّ ذهنه الآن هو لغز المرأة مع الرسائل التي أرسلها من فترة.
- هل لك أن تشرحي لي الأمر، فليس بيني وبين الجنون إلا شعرة كهلة، آيلة للانقطاع الوشيك وشوكا حقيقا وآنيا.
داعبت الرسائل وقالت:
- أنا كل هؤلاء النسوة.
لم تتركه يفرط في الدهشة أو يعجّل بسؤال آخر حين استرسلت:
- كل هؤلاء النساء عشت بأسمائهن، وفي عناوينهن المختلفة بالفعل، للأمر حكاية ترجع إلى طور العاشرة من تقويم سنّي، عندما حدث لي مكروه، فأصابني مرض غريب، شكل من أشكال الفصام يرغمني على أن أتقمّص في كل سنة شخصية امرأة باسم مغاير، وأنتقل للسكن في عنوان غير الأول. من حسن حظي أن أبي كان فاحش الثراء، ممّا جعله يوفّر لي السكن في أكثر من مدينة وبلد خوفا عليّ من الانتحار. وهكذا عشت حياة أكثر من اسم وامرأة بداخلي دون أن أعي ذلك، إلى أن استقر بي الحال في هذا العنوان الذي وصلتني فيه رسالة منك. طبعا لم أكن أعلم حكاية مرضي إلى أن باح لي بها طبيبي الخاص، الذي توفّي من ستّة شهور.

***

كل أولئك النساء كنّ نسخا من امرأة واحدة إذن، هكذا يكون قد أرسل لها أربعين رسالة في أربعين عنوان سكنتها، منذ أن كانت في سن العاشرة، سكان تلك البيوت جئنها بتلك الرسائل التي وصلت بالتعاقب على بريد المنازل. تعاقب يتطابق مع ترتيب تدرّج المرأة ارتحالا من بيت إلى آخر.
ها هي ذي تجلس أمامه أخيرا، وهو منهوب البال واليقظة، ليس بفعل الجعة وإنما بفعل صدمة الحكاية اللاتصدّق. نظر إلى وجهه في مرآة جانبية وتساءل همسا:

- هل يعقل أن يكون الأمر محض هلوسة؟ متى بدأ هذا الهذيان اللعين؟
عندها تذكر ريشة الغراب. كل ذلك الجنون من تأثير الريشة اللعينة.
خمّن. قلّب جيوبه ونهض، ثم ركض باتجاه البيت، وترك المرأة مندهشة من ردّ فعله. تبعته إلى شقته ووجدته قد أخرج الريشة من معطفه المعلق على المشجب وتحجرت نظرتها على الريشة.
قال:
- أعلم أنك لست حقيقية، وكل هذا الكابوس سيزول بعد أن أتلف هذه الريشة الملعونة.
فكّر في أن يحرق الريشة. فكّر في أن يدوسها بحذائه وينتف خيوطها ويدمرها، ثم هرع إلى النافذة محاولا أن يلقي بها إلى الرياح.
- مهلا!
قالت له المرأة صارخة، وتلقفت الريشة منه وقالت:
- هل لك أن تقصّ لي حكاية الريشة فربما ثمة مفتاح لكل هذا اللغز؟
سقط على الكرسي، وفتح أزرار قميصه وحكى:
- كل شيء بدأ عندما كنت أتمشى في الضاحية بجوار النهر، حين سمعت طلقة رصاصة.

***

أشعلت المرأة سيجارة، وصمتت لحظة في ذهول وقالت:
- لم أكن أتوقع أن للغراب علاقة بالأمر ثانية!
نظر إليها منهوبا ونبس:
- كيف؟
- الخطب الذي أصابني، أو المرض الغريب الذي ألمّ بي في سن العاشرة الأولى، كان له علاقة، بصورة من الصور، بالغراب، بريشته تحديدا! ثمّة صبيّ زنجيّ من الخدم السود في بيت أبي، غريب الأطوار، ساحر ووسيم، كنت أحب رفقته وما يقترفه من جنون طائش. ذات مرّة في النّهر، خلع عنّي ملابسي وكتب بريشة غرابٍ على جسدي العاري مئة قصيدة لمئة شاعر، لا أعرف كيف يحفظها اللعين وكيف جاءته الفكرة الطقوسية الغريبة. عندما اكتشف أبي الأمر عاقبه جلدا حتى الموت حيث استغلّ غيابي لأسبوع.
لم يدعها تستأنف الحكي العجيب، حين عجّل بالكلام المهووس وسألها عن المئة قصيدة والمئة شاعر التي دوّنها الصبي الزنجيّ بريشة الغراب على جسدها. انفرطت لآلئ عقله دهشة في كل الاتجاهات، عندما ردّدت المرأة عناوين القصائد وأسماء الشعراء المئة، لقد كانت هي نفسها عناوين مختاراته من الشعر والشعراء التي يعدّها، ويشرف عليها، ويحرّرها في مؤسسة النشر.

كاتب من المغرب

تانيا الكيلي

شرفة الضجر

أمينة شيخ

-1-

لم يكن من عاداتي التجسّس على النّاس أو التدخّل فيما لا يعنيني، وإلى الآن لا أدرك حقيقة ما دفعني إلى دخول هذه المغامرة التي أودت بكلّ حياتي «التافهة» إلى الهاوية، هذه الهاوية السّحيقة التي لا أستطيع أن أتبيّن مدى عمقها وعتمتها.

لم تكن حياتي تسير وفقا للخطّة التي رسمتها، فأحلامي كانت أكبر وأبعد بكثير، في الأخير انتهيت إلى الرضا عن هذه الحياة، افترضتُ لي أن أصير عارضة أزياء جميلة، مشهورة وغنية، كانت أمي مزينة نساء تديرُ صالونا للحلاقة تقصده كلّ نساء الحيّ، وكنت أستمتع بمشاهدتهن وهنّ يتحوّلن إلى حسناوات على يد أمّي السحريّة، ولكنّ أهمّ ما كان يبهرني هو تلك المجلاّت التي اجتهدت أمّي في الحصول عليها من باريس وروما، كنتُ مسلوبة بصور العارضات وجمالهن وكثيرا ما تخيّلتني في مكان إحداهن، ولم تكن أمّي تزجرني حين أحدّثها عن حلمي الأكبر، بل كانت تكتفي بالابتسام «يا سلام، ابنتي الجميلة ستصبح عارضة، ولكن تراها ستتركني أقوم بمهمّة تزيينها كما الآن، أم أنها ستستبدلني بمزيني المشاهير؟»، كانت مثل هذه الرّدود تدفعني إلى الحلم أكثر وشجعني قوامي الذي راح ينمو بطريقة رائعة وجمال وجهي وصفاؤه، حيث أصبحت في سن مبكرة جميلة عائلتي بأسرها والحيّ أيضا، وراح المعجبون يتساقطون أمامي كالذّباب، ولكني في مرحلة ما أدركت أن ابتسامات أمّي لم تكن تعبر عن الرّضا والموافقة، كما تخيلت، بل عن الاستهزاء وكذلك حال كلّ من بثثتهم حلمي.

مررت على الدراسة بلا مبالاة، الذهاب إلى الثانوية لا يعدو أن يكون باباً أتسرّب عبره من البيت الذي يتطلّب العمل والتنظيف، خاصة وأنّ أمّي تقضي النهار في صالونها. في الثامنة عشرة التقيت بشاب وسيم يعمل بالبنك المقابل لثانويتي، كان الشاب يرتدي بدلات رسمية أنيقة زادت من إظهار وسامته وتناسق جسمه، وذاك ما أغراني فيه منذ البداية أنا المهووسة بالأناقة والجمال، ومنذ حديثي الأوّل معه أخبرته عن طموحي وعن مللي الشّديد من الدّراسة، لم يضحك ولم يستهتر بي؛ ولم يفكّر أنني فتاة للّهو، أحسست أنه احترم حلمي غير أنّه راح يحدّثني عن مخاطر هذا المجال، فكم من جميلة راحت ضحية أحلامها لتصبح سلعة في أيادي تجار الرّق، وصارت بائعة هوى في باريس ولندن ونيويورك، أحببت الرّجل مذّاك، ولم يمنعني عنه شيء ولا حتى السنوات العشر التي تفصلني عنه، ولم تمرّ السنة حتى وجدتني زوجة وامرأة عليها مسؤولية رجل وبيت.

الآن، أرأف لحاله، المسكين زارني ثلاث مرات، ولا أعتقد أنّ زياراته ستدوم، فالنّاس لن يسكتوا أبدا ولن يتركونا في حالنا خاصة أمّه، أعرف أنّها لن تكلّ ولن تملّ حتى تقنعه بتطليقي وبالزّواج من أخرى، فهي لم تحبني في يوم مع أنّني لم أكن أعتقد أن امرأة واحدة في العالم لا تتمنّاني زوجة لابنها، ما الذي ساءها فيّ؟

أنا أيضا لم أبذل أيّ مجهود لإرضائها أو لدفعها إلى الاقتناع بي، بل ومنذ البدء وضعت جدارا بيني وبينها، اشترطت على العريس أن يُسكنني في بيت وحدي، واعتقدت بسذاجتي أنّه يستطيع شراء منزل بسهولة فهو يعمل في البنك كمهندس كمبيوتر، ولكنّني اكتشفت أنّه بالكاد يستطيع كراء بيت صغير وتسديد مصاريفنا الحياتية المختلفة.

-2-

كان من عاداتي اليومية الوقوف بالشّرفة، في البداية دفعني الضّجر إلى ذلك، فأنا أبقى طوال النهار وحيدة دون زوجي الذي يعود متأخّرا، ومهما حاولت شغل نفسي بالتنظيف والطّبخ بل وحتى التّسوق يبقى دائما القليل من الوقت الفارغ الذي لا يمرّ سريعا، والحقيقة أنّ التلفزيون وسيلة رائعة لملء ذلك الفراغ، ولكنني تغيّرت فلم تعد تستهويني تلك المسلسلات الأميركية ولا حتى التركية التي كنت أشاهدها وعيني تترقرق من شدّة الانبهار والغيرة، أجساد الممثلات، لباسهن، مشيتهن، الحياة الصّاخبة التي يعشنها، المال والشّهرة وهل هناك أفضل منهن؟ كان ذلك في الماضي، ولكني الآن صرت أغير القنوات في ملل، أطفئ التلفاز وأخرج إلى الشّرفة، علّي أتنفّس بعض الهواء وأشاهدُ بعضا من الحياة الحقيقية، نصحني زوجي بل ألحّ بأن أعود إلى الدّراسة، ولكنني رفضت، نصحني أن أتابع تكوينا في مجال أحبّه كالحلاقة والتزيين، ولكن لا شيء يُثيرني الآن.

هكذا صارت الشّرفة روتيني وونيسي، أستمتع بالتفرّج على

mazen boukai

الأطفال، أراهم ذاهبين أو عائدين من المدارس، العمّال منهمكون في بناء فيلات وبيوت لأغنياء القوم، وهم لا يملكون سقفا يأويهم ليلا فينامون في غرف إسمنتية يكترونها جماعة. الحيّ الذي أقطنه حديث النشأة، بل لم ينشأ بعد؛ فجلّ بيوته في طور الإنجاز وغير مأهولة، ما يجعل الحركة قليلة، بل معدومة في بعض أوقات النهار، ومن شرفتي يقابلني بيت قديم بسطح من الآجر يتوسط هذه البيوت الرّمادية المبنية دونما تجانس ولا اتساق لتشيع لوحة خراب، البيت القديم كان الاستثناء، لا طوابق فيه، كان محاطا كليا بالأشجار والخضرة، ولكن يظهر من كثافتها وعشوائيتها أنّ لا أحد اعتنى بها منذ زمن، خاصّة وأن البيت يبدو مهجورا، إذ لا تصدر منه

أصوات إلا عابرا، به الكثير من الأبواب الجانبية، ما جعلني أستنتج منطقيا أنّ أكثر من أسرة تسكنه.

في أحد الأيّام الحارّة كان الحيّ شبه مهجور فلا عمّال ولا أطفال، فقط أنا أتجرّع ضجري في الشّرفة وإذا بي أشاهد رجلا قصير القامة، أحدب، أشقر الشّعر رغم الضّلع الذي بدأ يمتد إلى وسط رأسه، رأيته يهرول متوجّساً، تجرُّ يده اليمنى ولدا لا يتجاوز سنه الثانية عشرة أو الحادية عشرة، دخل من الباب الجانبي الذي يقع تحت شرفتي مباشرة، بدا الرّجل غريبا فأنا لم أشاهده من قبل، ظننت أنّه جار جديد ربما أجّر المنزل مع عائلته، ولكن لماذا بدت مشيته غريبة؟

صرت ألمخ الرّجل روتينيا، الهرولة نفسها، التوجس ذاته، والنظر إلى الخلف، ولكن كلّ مرة مع ولد أو فتاة مختلفة، أدركت مع الوقت أنّه لا وجود لعائلة هنا فقط هو وهؤلاء الأطفال، تسرّب الشكّ إلى ذهني، ما الذي يفعله رجل في الخمسينات مع هؤلاء الأطفال، أوّل ما تبادر إلى ذهني هو الاغتصاب أو سرقة الأعضاء فأعداد الأطفال المخطوفين في تزايد مخيف، وقصصهم صارت تتحوّل إلى حكايا رعب، مؤخرا قرأ لي زوجي خبرا في الجريدة لم أصدّقه، فقد وجدوا طفلة في الخامسة من العمر في حفرة مقطوعة الرأس والأطراف وعليها آثار اغتصاب، كأنّه فيلم هوليوودي، تبا لهوليوود التي علّمت الإنسان كيف يقطع أطراف الأطفال.

ظلّت الشّكوك والهواجس تنمو، لم أخبر زوجي رغم أنّي وددت ذلك، فقد خفت أن يزجرني أو يمنعني من الخروج إلى الشرفة ثانية؛ فالرجال لا يحبذون وقوف زوجاتهم في الشّرفات دون سبب أو طائل، كما أنّني لا أملك أيّ دليل على ما أقول لذلك آثرت الاحتفاظ بهذه القصّة لنفسي.

-3-

عندما زارني اليوم بدا لي متعبا، حاولت إمساك يده لمواساته، لكنه أزاحها من بين يديّ بسلاسة، لم يكن يريد جرحي، لا أعرف إلى الآن إن كان يصدّق روايتي أم لا، لم نتكلّم كثيرا في الموضوع، أنا كنت أوّد ذلك، وددت لو أسرد الحكاية للمرّة الألف أو الألفين، ولكنّ زوجي لم يكن يوما يطيل الكلام، كان دائما يميلُ إلى الصّمت وتجنّب الجدال والمشاكل؛ والآن زاد غرقا في صمته.

تتجاذبني الأسئلة والتّخمينات ولم أعد أجرؤ على سؤاله في ماذا يفكر؟ الأهمُّ أنّه لازال يزورني، أرى شكّا في عينيه، بل لوما وسؤالا كبيرا واسعا سعة الصّمت المطبق بيننا، ولكن لماذا لا زال يزورني؟ أعرف هذا الرّجل، فيه من طيبة القلب ما يشفي جروح شعوب وأمم، وأعرف أنّ به من الشّهامة ما يجعله يتمسّك بامرأة في وضعي، كم هو مُتعب الآن... كم أودّ لو أضمّه إلى صدري وأنزع عنه الألم والتعب، أحسّه كسيرا وضئيلا، هزمته الحياة وهزّمته، يبدو أنّه لم يحلق ذقنه منذ أكثر من أسبوع، هندامه مبعثر، وشعره أشعث، لم أدر ما أقوله أو أفعله لكسر حاجز الصّمت الثقيل الذي أطبق فجأة على كلّ المكان وليس علينا فقط؛ ليطيل عمر اللّحظات ويجعلها أكثر ثقلا على حلقي الذي أصبح يؤلمني من كثرة ما شددت على البكاء الهستيري الذي يتملّكني ومنعته من الانفجار.

«هل تزاول العمل؟»، قلت.

«لا»، قال.

أدركت سريعا غباء سؤالي، كيف يذهب بعد الذي جرى؟

«كيف مأكلكِ ومنامكِ؟»

سألني بعد أن أحرجته بسؤالي، وكادت الفتاة الغبية أن تنفلت مني لتبدأ بشكاويها المملّة، ولكنني ضبطتها في آخر لحظة:

«الحمد لله» قلت.

سألته إن كان يرى أمّي، فنفى، أنا لم أرها مذ دخلت هنا، استغنى عنّي الجميع إلاّ هو، صرتُ عارا ومرضا يجب تجنبه.

وقف فجأة من مكانه واتجه نحو الباب خارجا، دون كلام، غير أنّه استدار ليقول:

«اعتني بنفسك جيدا - جيدا-...».

لا أعرف لماذا أحسست أن هذه الـ«جيدا» تعني وداعا، أو تعني أنني لن أعتني بكِ مجدّدا، والآن لن تجدي أحدا ليعتني بك، بقيت في مكاني أتأمّل قامته المتعبة، فجأة أدركت أنّه نحل كثيرا وأنّ الظّهر تقوّس قليلا وأنّ معالم تقدّم السنّ بدأت تظهر عليه، أدركتُ أنني لم أكن أنظر إلى زوجي أو أهتم به.

أنا أحببت هذا الرّجل -الآن أشكّ أنني أحببته- ليس ذلك الحبّ الذي نراه في الأفلام أو نقرأه في القصص، بقدر ما كان حبّا هادئا آمنا، فلا مغامرة فيه ولا تحدّيا، كنت أعتقدُ بتفاهة أو طيبة مفرطة أنّ هذا الزّوج الطّيب سيتركني أحقّق حلمي، خاصة أنّه كان يدلّلني ولا يرفض لي طلبا، ولكنّ الرّجل الطيّب لم يكن طيبا للدّرجة التي يقبل معها أن تصير زوجته عارضة أزياء، اتّسع شعوري بالصّدمة وكأنه خان ثقتي به، أنا لم أكرهه لأجل ذلك ولكنّ حياتي أصبحت لا تمتُّ بصلة لي ومرّت السنين، خمس سنوات ولم يحدث أيّ تغيير، ولا ولد جاء ولا بنت، ذهبت إلى الطّبيب، أجريت كلّ التحاليل والصّور وكلّ الأشياء كانت طبيعية، زوجي أيضا أجرى كلّ التحاليل اللازمة مع أنّ أمّه كانت مصرّة أنني السبب، فكيف تحمل امرأة لا تملك حوضا تضع فيه جنينها؟ أمّا أمي فكانت تقول: أنّ ما بي هو سحر وضعته لي حماتي حتى تفرّق بيني وبين زوجي بعد أن يتأكد بأنني عاقر.

في الأعوام الأولى من الزّواج لم يكن يهمّني أمر الحمل، فأنا كنت أعتقد أنني لازلت صغيرة على همّ الولادة والتربية، كما أنني كنت أخاف على جسدي -الذي تربطني به علاقة حبّ ووه كبيرين- من التشوّهات التي قد تحدثُ له، وقد تؤدّي بي إلى الجنون، ولكن بعد ذلك، وبعد أن أحسست بالفراغ الكبير في نفسي وفي البيت وفي جسدي، صرت أتكوّر ألما على ما أفقد، وصرت أكرّر كلام حماتي؛ فما جدوى جسد الأنثى إذا لم يكن قادرا على خلق الحياة، حتى

أنني كنتُ أحسُّ بالذّنب، ربما تكون أمنياتي في سنوات زواجي الأولى قد تحقّقت الآن، ولكن هل يكون الله قاسيا على المراهقة التي كنتها؟

-4-

لم يعد وقوفي في الشّرفة التي أستبدلها مرّات بالنافذة مجرّد عملية عشوائية لطرد الضّجر، ولكن صار موعدا يوميا مضبوطا أكرّسه لمراقبة الرّجل الأحدب قصير القامة مراقبة دقيقة.

الآن، لم يعد يُحضر الأطفال معه، بل صار الأطفالُ الذين يظهرُ على هندامهم الفقر والعوز يتسلّلون إلى البيت إما بمجموعات صغيرة لا تثير أيّ صخب، أو واحدا تلو الآخر، وصار رأسي يأخذني إلى احتمالات عديدة لم يقنعني أيّ منها، وفي لحظة جنون مستقيلة من الوعي، قرّرت قرارا خطيرا، يجب أن ألاحق الرّجل لأعرف ما وراءه. كان الجوّ ممطرا بعد أن لمحته خارجا من بيته، حملت نفسي وخرجت، حاولت أن أؤمن مسافة معتدلة بيني وبينه وتبعته وهو يتجوّل في الحيّ دونما هدف محدّد، ثم دخل إلى محل لبيع الخردوات والعقاقير فدخلت وراءه مدعية أنني زبونة، ورأيته يشتري حبلا من الحلفاء ثم خرج، أثار الحبل الرّعب فيّ، هل يربط الأطفال به، هل يشنقهم؟

عاد الرّجل أدراجه إلى البيت مهرولا كعادته، وعدت وراءه وقد نال منّي التعب بعد أن درت في الأزقة دون جدوى، عدت أُقلّب أفكاري وأتذكّر وجه الرّجل بدا لي بشعا، يتقطّر خبثا ولؤما.

عندما دخلت البيت كانت الندامة والحسرة قد بلغتا منّي مبلغا كبيرا، فما الذي أفعله؟ وما هذه الحماقة التي أرتكبها؟ أتبعُ رجلا لا أعرفه من مكان إلى مكان لمجرد شكوك وأوهام؟ ما الذي سيقوله الناس عنّي لو لاحظوا ما يجري؟ أقسمتُ على نفسي ألا أعيد الكرّة وألا أعود إلى شرفة الجنون تلك أبدا.

في الغد قاومتُ كثيرا نفسي قبل أن تغلبني لأطلّ من المكان نفسه. وجدته لتوّه يفتح الباب، هذه المرّة وخلافا للسابقات رفع رأسه إلى شرفتي، نظر إليّ نظرة خاطفة، ولكن لها معناها وابتسم ابتسامة لم تكد تصل إلى عينيه ودخل، انتفضتُ بكلّ جسدي، نظرته الزّرقاء أخافتني ما الذي تعنيه، لأوّل مرّة أخاف إلى تلك الدّرجة، دخلت إلى الغرفة ورحتُ أسحبُ الخزانة بقوّة لا أدري من أين أتتني إلى أن توارت الشّرفة وراءها ثم استلقيت ونمت، عندما عاد زوجي وجدني لازلت نائمة، استغرب أمر الخزانة فلا أحد يسد شرفةً بخزانة، وألحّيت أنا على أسباب تافهة لا معنى لها، وما لبث أن استسلم هو للصّمت بعد أن قال إنني صرت أتصرّف بغرابة هذه الأيام.

شغلتني تلك النّظرة ليوم أو يومين، وما فتأت أن نسيتها بعدما قرّرت الذّهاب إلى بيت أهلي حتى أرتاح قليلا وأنسى، وعند عودتي كانت هذه الحكاية تكاد تمّحي من رأسي تماما، وفي اليوم التالي من عودتي خرجتُ صباحا لاقتناء بعض الحاجيات، لدى انصرافي إلى البيت سمعت صراخا قادما من جهة الباب الجانبي للمنزل المقابل لبيتي، في الأوّل تجاهلته وأكملت طريقي، ولكن الصّوت اشتدّ وعلا، غلبني فضولي بعد أن تبين لي أنّه لطفل صغير يستغيث، اقتربتُ من الباب، ملتُ برأسي لأسترق السّمع، دنوتُ حتى وجدتني ألتصقُ بالباب وقبل أن أعي ما أفعله تماما وجدت يدا قوية تجذبني إلى الدّاخل.

-5-

«الرجل مات»

هذا ما قاله الشُّرطيُّ لي وأنا مستلقية على فراش المرض والخوف بالمستشفى، لم أستطع كتم صرختي ورحتُ أتخبّطُ تخبُّط المصروع، صرتُ أهذي بكلام ما، دخل زوجي الغرفة جزعا ولم يدر ما يفعله، أيعانقني، أم يضربني أم يواسيني؟ بعد أن استيقظتُ من نومي الذي أحسست أنّه كان أطول ما نمته في حياتي إثر حقنة التخدير، رحتُ أحكي للشرطيّ حكايتي التي لم يصدّق منها كلمة، زوجي بقي مشدوهًا ولم يقل شيئا، وفجأة دخلت أمّ زوجي التي سمعت الخبر لتوها وراحت تصرخُ وتنعتني بالفاجرة

«يا الخامجة، حرام عليك واش دارلك وليدي؟» .

لم يعد بإمكاني أنا أيضا الكلام؛ فالأمر محسوم عندهم والسيناريو محدّد المعالم، الأحدب كان عشيقي وكنت أزورهُ في منزله الذي أجّرهُ مؤخرا، وربما كان هو أيضا يزورني في بيتي، ذهبتُ إليه لأنهي علاقتي به أو ربما تخاصمنا على أمر ما فهدّدني بفضحي، تشاجرنا فقتلتهُ ثم رحتُ أختلقُ قصّة الطّفل الذي كان يصرخُ ثمّ هرب والأطفال الذين كانوا يزورون المكان.

عندما سحبني الرّجل إلى الدّاخل، اندفع طفل لم أتبين لا سنه ولا شكله إلى الخارج، وبقيت مع الرّجل هممت بالخروج والهرب، ولكنه سبقني إلى الباب ليوصده، وراح يحدّثني بأنه لاحظني عبر الشرفة وأنّه يعلم أنني كنت أراوده منذ البداية، ولكنه تأكّد بعد أن تبعته يومها، وعرف أيضا أنني كنت خجلة أو خائفة وأنها كانت الطّريقة الوحيدة لجعلي آتي إليه أخيرا، همّ يلمسني وكأنّ الأمر قد تمّ بيننا، حينها دفعته وبدأت بالصّراخ والتهديد، هدّدته بأنني أعرفُ ما الذي يفعله بالأطفال المساكين، وأخبرته أنني شرطيّة كلّفت بأن أراقبه، ولكن الشّهوة أعمت عينيه وأصمّت أذنيه، عيّرته بقبحه وبحدبته، كيف له أن يعتقد بأنني قد أنجذب إليه؟ جنّ جنونه ودفعني دفعة وضعتني على حافة الموت، سقطت أرضا بينما امتدت يده إلى لباسي فمزّق بعضه، تحسّست بيدي صخرة صغيرة على الأرض لمحتها قبل سقوطي، أمسكت بها وضربته على رأسه سقط أرضا، كان بإمكاني الهرب، ولكني انهلت عليه ضربا وهشّمت رأسه فمات.

كاتبة من الجزائر

مينوش

أنيس الرافعي

سبب، اللقاء الأوّل نبش الفضلات وسدّ الرّمق. ومنذ تلك المزبلة العموميّة الواقعة على أطراف مدينة مراكش لم يفترقا أبداً.

أطلق عليه عباس اسم «مينوش»، وعدّه بمثابة ذلك الابن الذي لم ينجبه.

عباس الذي تلفّ عقله ضبابة عمياء بسبب الحشيش، ومن فرط عبّه لكميات هائلة من الكحول تكفي لإزهاق روح عمارة بأكملها، كان أيضا رساما بوهيميّا يعبر الأيام كريح قلقة.

هو رجل تركض الكثير من الخيول في ظهره كما يقال. اللّيل له، والنهار لهزائم أخرى. لكن منذ أن التصق «مينوش» بحياته وطفق كلّما أكلت ساقاه الطريق يتبعه مثل ظلّه، قرّر أن يتفرّغ لمنازلة الألوان.

ليس ثقة من سبب معقول لهذا الحلف الوجدانيّ الوثيق، لكن على ما يبدو اكتملت دورة روح عباس واستقام تلعثم أفكاره لمّا أصبح له، أخيرا، رفيق دائم يمسّد سواد جلده مثل بيانو جديد، ويرى في وميض عينيه الحيوانيّتين أصباغا لا حصر لها ستولد عمّا حين على أهداب الفرشاة.

في مرّات عديدة، رفض عباس بيع «مينوش» لأيّ كان من المعجبين بأصله التركيّ الرفيع، بغرّة البياض التي تتوسّط جبهته كحروف الزين، أو بالأناقة التي تنساب في سيقانه كراقصي الباليه، غير أنه كان يتخلّى، بأيّ ثمن، لأوّل سائح فرنسيّ التقاه بساحة «جامع الفنا»، على قارعة مقهى «گلاصي»، عن دفاتر التخطيطات التي ينجزها بالحبر الصينيّ لصديق العمر.

كان يقول «كلّما بعت واحدة من أرواحه، استردّها في التوّ».

ولأنّ أرواح «مينوش» لاعدّ لها، وسعرها أضحى يرتفع مع كلّ تخطيط، توجّه عباس، بعد مدّة، إلى المدينة القديمة على مقربة من ضريح «مولاي سيدي عبدالعزيز» بغرض استئجار غرفة بالسطح، ولوضع حدّ نهائيّ لهواية ذرع الطرقات وحيدا ومهجورا مثل قفاز بلا يد.

لم يعرف عباس أنّه دخل إلى المنزل الخطأ. ويا ليته لم يقصد، أصلا، هذا المكان المشئوم، فالمالك، أصلع، قميء الوجه كجرذ، أخذ يقيس جسده الناحل مثل حفّار قبور حقيقيّ، في حين ساومه الابن على مبلغ الكراء بصلافة مستربة جعلت شيئا كالصرصار يصعد إلى حلقه. أمّا الزوجة البدينة، محلولة الشعر كالساحرات، فقد ظلّت رابضة عند ضلفة الباب دون أن تنبس ببنت شفة مثل بئر عميقة تستقبل الحجر ولا يصل صوت ارتطامه بالقعر، وعيناها ذات البريق القاتل تنغرسان بلا هوادة في لحم «مينوش» كأسياخ حامية قدّت من حديد.

وبما أنّ عباس كان متعوّدا على ربط لسانه في وتد السكون، وكذا على وضع شبيه له في محلّه، ثم سحب نفسه والمضيّ بعيدا عن صداع الرأس، فقد تمكّن في نهاية المطاف وبيسر لم يخطر على باله من تسلّم المفتاح.

كانت غرفة السطح صغيرة لا يزيد عرضها وطولها عن ثلاثة أمتار، مقشّرة الجدران، لها نافذة وحيدة مثل عين السيكلوب، وباب خشبيّ منهك غير محكم الإغلاق.الأثاث قليل لا يؤسف عليه، والمضجع متواضع جدا لا يزيد عن سرير من الحلفاء ومخدة خشنة.

لا يهم. إنّها دولة صغيرة لجسدين. «مينوش» يمكنه أن يخرج ويعود متى شاء لتدبّر أمر طعامه. وفي غدوّه ورواحه يقرأ عباس الزمن في عينيه كما يفعل الصينيون. وفي امتزاج حفيف أقدامه بشهقة المواء، تهتزّ صورة شقيق الروح في عقل عباس كأنّها انعكاس لقمر طارئ على بحيرة ساكنة.

وكلّما جرّح الانعكاس اهتزاز مّا، أطلق عباس سراح هواجسه وكسا الحقائق بأشدّ الأوهام إيغالا في الجنون. خطوط ودوائر ومكعبات ومساحات يضرمها زنجيّ وهمي في أصابعه ليحتّه على ملء فراغ القماشة. يرضخ له، فيندفع مثل نهر بدائيّ صوب الأشكال التي يخرج منها في كلّ مرّة «مينوش» متلّبسا لصورة سوريالية ظلها في العمق ضعف طولها.

«مينوش» كان هناك دائما داخل اللّوحة، وعباس كان يخرجه فقط بعد أن يقبض على طيفه، ويجعل النفس تنزل صوب النفس.

لكن «مينوش» خرج، ذات يوم، ولم يعد.

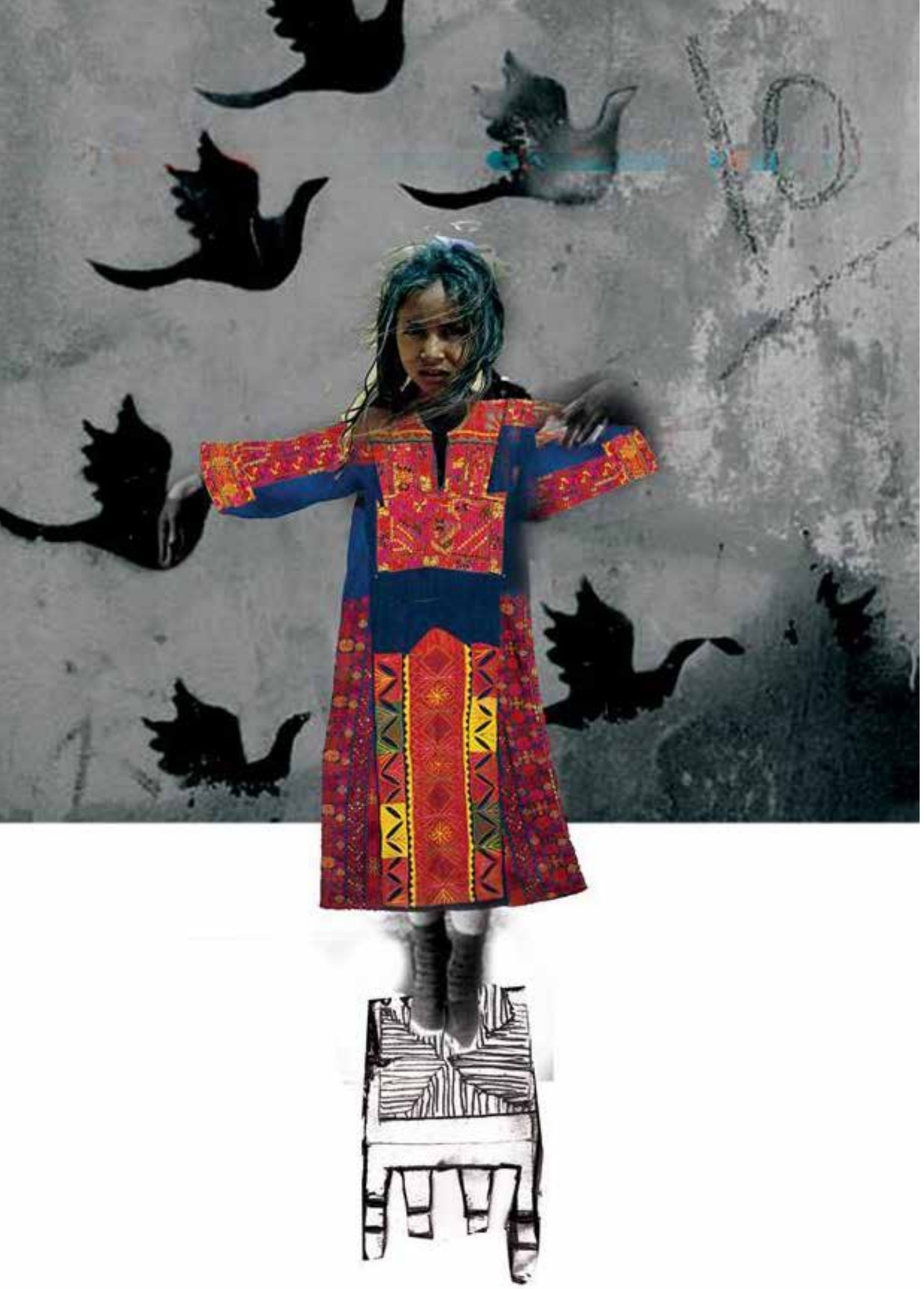

تانيا الكيالي

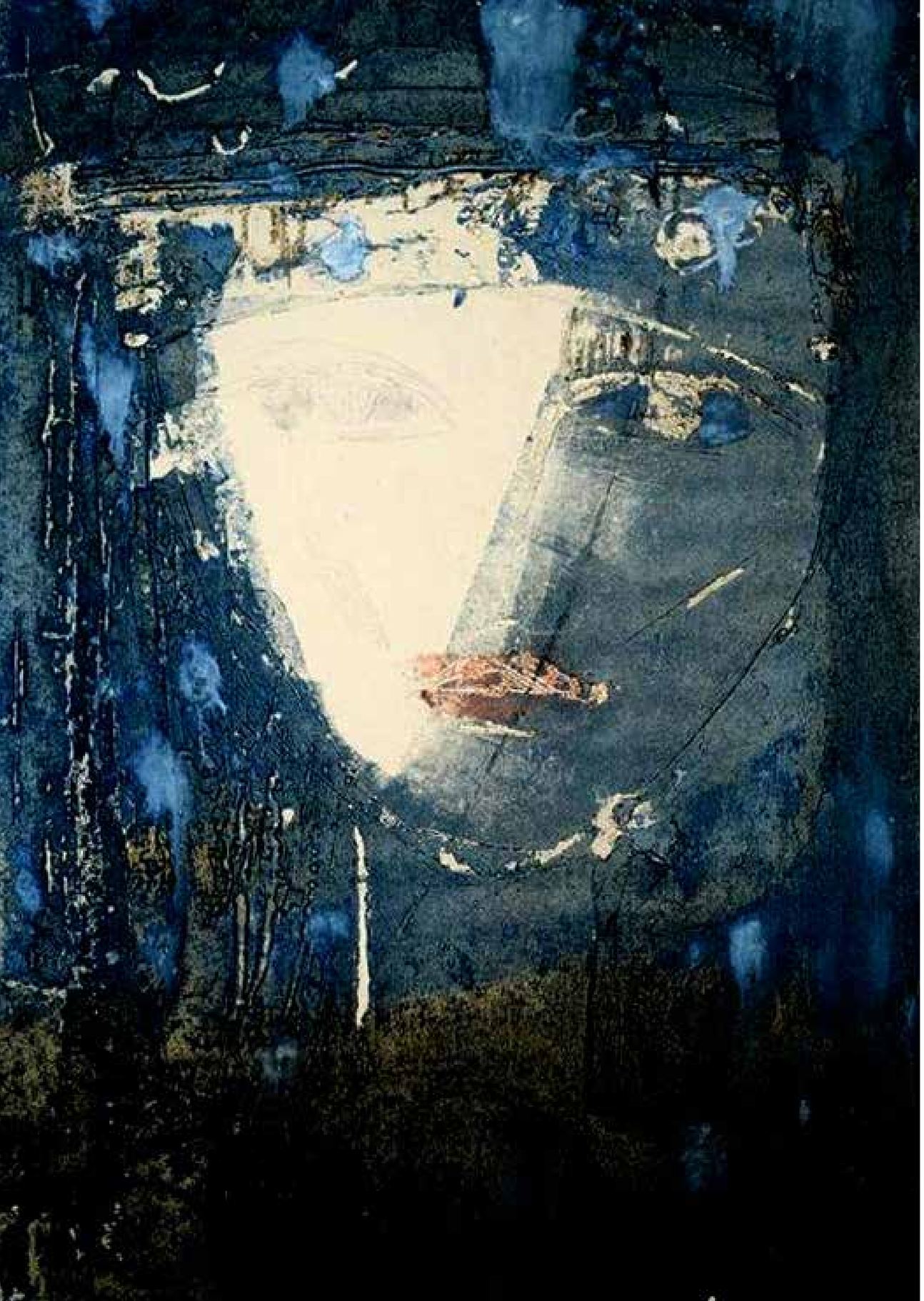

تحسّر عباس على تركه ينسلّ خارج الغرفة، خاصة بعد أن اشتكى أصحاب المنزل، مرارا وتكرارا، من بقايا فضلاته على السلالم، ومن هبشه العشوائيّ لصفائح الأزبال. غير أنّ عباس ربّى الأمل بسطوعه، بين لحظة وأخرى، على شاشة بصره. ولمّا لم يعد ممكنا الاسترسال في الأمل، تحرّك ليختبر حبال صوته مناديا عليه. يموت النداء الملحّ على حافة الأسنان ويواريه الصدى، ليفسح المجال سريعا لفؤاد يخفق كراية ممزّقة ولافتراضات رماديّة من قبيل أنّ «مينوش» جرح في معركة غير متكافئة بعد اشتباك مع الغرماء، أو أنّ سيارة طائشة دهسته في الشارع على حين سهو.

يشعر عباس كأنّ حفرة عميقة انفتحت وسقط بداخلها، ويدرك بغريزته أنه لم تعد ثمّة فائدة ترجى من الانتظار، فينزل السلالم وهو يرى اللّيل أمامه والنهار خلفه، ليلفي كالمصعوق «مينوش» عند مدخل المنزل كأنّه داخل جسد آخر ليس له. يتلّوى من الألم ويصدر مواء وحشيا كالضواري. أظافره استطالت وباشرت خمش الجدار بقسوة كأنّها الرجاء. أطرافه تتشنج وتنتفض عاليا، ثم ترتطم بالأرض بلا رحمة. شيء مّا يفترس أحشاءه والسمّ قطف كلّ الوهج الجميل الذي كان يستوطن عينيه.

حمله عباس بين يديه وضمّه إلى صدره كالرضيع، ثم هرع به إلى الأعلى ليسقيه حليبا. عفّ الحلق وفات الفوات، لأنّ أنفاس «مينوش» كانت قد تسلّلت خارج الحياة.

عندها عوى عباس من شدّة لوعته، وولول كطفل صغير فقد دميته إلى الأبد. هبّ إليه أصحاب المنزل وحدّقوا فيه باستغراب وهم يصطنعون براءة الذئب من دم «مينوش»، بيد أنّ سرّ الجريمة كان ينام في أفواههم المطبقة.

بعد هذه الفجيعة، عمد عباس إلى بتر ذيل «مينوش»، ودسّه تحت زليجة مخلخلة في زاوية الغرفة. أما جثته فوضعها في كيس بلاستيكيّ بلون مشاعره داخل صندوق خشبيّ. شقّ ثوبه كالأرامل وسلب الدمع مآقيه لمدة ثلاثة أيام، قبل أن ينزل ويدفنه تحت شجرة تين كأنّه ثمرة سقطت قبل إبّانها.

عقب ذلك، ربط في عنقه جرسا كالمجذوبين ولزم غرفته لمدة أربعين يوما، لا يشرب سوى الماء ولا يأكل سوى الخبز الجاف. كان يخاف من هجمة الخواء وانقراض الذكرى، لذا جعل أمواج الحزن تضرب بلا توقف على شواطئ روحه وسقى عزلته بجدول الأرق. أقام جنازته الداخليّة هناك في ركن قصيّ من الغرفة لا يبارحه، يجفل فقط حينما يظهر له ظلّ «مينوش» مرصوصا على الحائط أو يمرّ شبحه خفيفا من بين عينيه.

أضحى غامضا ككل الذين لا يملكون أنفسهم، بل لم يعد قادرا على استرداد صوابه ولا على التوقّف عن حفر مئات الصور لـ«مينوش» في ثنايا الجدران.

أراد أن يكون خفاشا وأن تصير الغرفة توأما للشيطان، فسوّدها بالسّخام حتى يصبح الظلام عزاء طويلا لا ينطق بكلمة. لبث عباس داخل حلكة الديجور إلى أن أذعن بصره لبداية العمى وانفلت خبله من القفص.

بعدها، مزّق كلّ لوحاته وهو يدعو دعاء الكظيم المكلوم على من جعله يسهر داخل جرحه وفي قلب دكنة ما حول العينين. ولمّا صار ضريرا بالكامل، بدأ يرسم. وامتدّ حبل الودّ بينه وبين لوحته التي سينتقم بها لأيام طويلة، أضحت فيها الفرشاة في يده طيّعة وممسوسة تشبه حركة الأفعى ذات الأجراس. رسم زوجة صاحب المنزل عارية، محلولة الشعر، تجرّ ثدييها المدميتين سلاسل تصعد إلى عنان سماء من فسيفساء، وبالموازاة معها رسم «مينوش» ضاحكا ينتصب واقفا فوق سلالم تضيق من الأسفل وتتّسع في الأعلى لتطاول النجوم. رسم نسخة أخرى من «مينوش» بضحكة أوسع تقف أمام المرأة المعذبة، وفوقها غيمة تركبها نسخة ثالثة من «مينوش» تبكي بحرقة المغدور.

عند متمّ اللوحة، غادر عباس غرفة السطح دون رجعة.

وبعد مضيّ عدّة أشهر، عاد إلى المنزل ليسترجع بعضا من أغراضه القديمة.

فتحت له الزوجة الباب، ضامرة كحبل، ومجلّلة ببياض الحداد، ثم ارتمت في حضنه باكية. لقد فارق كلّ من ابنها وزوجها الحياة جرّاء حادثة سير بعد محاولتهما تفادي الاصطدام بقط خرج من تحت إبط الطريق ومرق من أمامهما!

(*) السند: جزء من التفاصيل الواردة بين ثنايا هذه الحكاية عن علاقة الفنان التشكيليّ المغربيّ الراحل عباس صلادي (1950-1992) بقطه «مينوش»، وكذا عن اختياراته الوجوديّة في الحياة والفن، استقيت شفهيًا ممّا رواه لنا شخصيًا صديق طفولته وابن حيّه الفنان التشكيليّ العصاميّ عبدالفتاح أبوالذكاء. كما اكتست عظام هذه التفاصيل بلحم أكثر وتأويلات ضافية، في نقاش بمرسم الفنان التشكيلي لحسن الفرساوي بمعية الشاعر عبدالعاطي جميل. ومن أجل الاستزادة، أنظر (بالفرنسية): الكتاب المونوغرافيّ عن صلادي، سلسلة «نظرات-آثار الحاضر»، منشورات مرسم، 1993 (إشراف الناقد فريد الزاهي).

كاتب من المغرب

تانيا الكيالي

صحفة من الملح

بنميمون أحمد

سبقته إلى مائدة الإفطار التي اعتادت تهيئتها بمختلف محتوياتها بنفسها، وشرعت في تناول ما تفضّله في العادة، دون أن تكون مضطرة إلى انتظاره، وهي تستمع إلى ما يأتيها، من مذياع متوسط بيضاوي موضوع على المائدة الزجاجية الصغيرة المستديرة، من ثرثرة ثقيلة، أو موسيقى أغان صباحية خفيفة أما هو فقد تعوّد في الأيام الأخيرة أن يكون آخر من يغادر الفراش محتجّاً أحياناً بما يكون قد عاناه من أرق، ساعةً قبيل الفجر أو بعيده بقليل فلا يعود إلى الاستغراق في النوم إلا بعد مكابدة هواجس، وتذكّر مواقف يعتقد في ساعات صحوه أنها رسبت إلى أغوار بعيدة في دواخله، لكنها تنتهز وقت أرقه، لتعود إلى ذاكرته حيةً كأقوى ما تكون، وأحياناً يفضل ألا يسارع إلى مغادرة فراشه، إما لكسل أو «لله في سبيل الله».

وهو يظنّ أنها إذا جلست إلى المائدة، فليس لها ما يشغلها إلا تذكّر ما تكون مطالبة بإنجازه منذ صباحها، من شؤون البيت، ثم ذهاب إلى دروس موسيقى، ثم المرور في طريق عودتها منها على سوق السمك أو مجازر لحوم بيضاء أو حمراء ثم تختار ما يناسب هذه أو ذلك لدى أصحاب عربات بعض ما تشتهيه من خضار، وتنتقي بعدها فاكهتين أو أكثر قليلاً.

وهو على يقين من ذلك، إذ لا يتصوّر عنها مثلاً، أنها يمكن أن تذهب مع ذكرى بعيدة عن علاقتهما، ولا يسمح لمن ينعت أمثاله بشيء من السذاجة أو بعض غباء، وإن كان قد عرف ما حدث لكثيرين من صحو مفاجئ ذابح على ما لم يكونوا يتوقّعونه، فالزوج آخر من يعلم هكذا يقولون، فكم صدموا حينما وقفوا على لحظات انقلبت حياتهم معها بعد انتباه صحو مداهم، إلى حمأة عفنة من فساد وفجور لا يصدّقان.

- «لا قـدّر الله».

قالها بصوت ممعن في الثقة بما يطمئن ويريح.

فهو إذن كان مثل كثيرين، يتصوّر أن الموت مصيبة لا تحلّ إلا بالآخرين، وهو في ذلك على قدر من السذاجة، يحببه إلى نفسه كونه لا يريد لها أن تسقط بين براثن قلق لا يرحم، فإنه واثق أن سقوطاً في محذور مثل هذا -إذا حدث- لا يمكن أن يمسّ طهارة ونقاء عشّه في أيّ حال، هذا ما استراح إليه منذ وقت بعيد، استراحة شبه مطلقة، ونام على يده اليمنى، إلى حدّ أنه يتمنى ألا يغادر دفء فراشه، صبح مساء.

وهو يفكر في كل هذا بينا موسيقى أغاني الإذاعات الصباحية الخفيفة تملأ سمعيه، حملته أجنحة غفوة لذيذة لكن لم يدر كيف وجد نفسه في جلسته المألوفة في المرحاض، فسمع وهو لا يزال محتاجاً إلى وقت لتنظيف أطرافه، وجوانب خفية من جسده، بأن هناك من يمسك بمزلاج الباب يريد أن يقتحم عليه حديقته السرية، فهبّ إلى الزّتاج يثبته حتى لا يدور ويستعمل أيضاً إحدى ركبتيه وهو يجلس القرفصاء، توقّعاً لاحتمال انفتاحه بأيّ ضغط خارجيّ يـفاجئه لم يكد يأتي بما قام به خلف الباب، حتى أحس أنه يميّـز أصوات نسوة جئن إلى زيارة صاحبته، وقد تبين من بينهن أصوات بعض من يعرفهن من بينها، كان لا يريد أن يرينه وهو في حال عريه كما هو الآن، داخل التواليت، فكان أن أمعن في إغلاق الباب عليه، لكنه رفع نظره إلى أعلى جدران التواليت فرأى هناك، كوىً عديدة تفتح ومن كل كوة يطلّ وجهٌ جميلٌ لفاتنة كانت ذهبت بصوابه ذات يوم، كم تمنى أن لو كان يقدر على الوصول إليها في أيّ مكان أو زمان كان، فهو لم يكن يستطيع أن يصدّق ما تبديه الفاتنات من حياء إزاءه، إذا حدث أن قابل إحداهن في جمع عام، حفلاً كان أم جلسة عائلية عادية، أم صدفة على الطريق.

الله... الله... الله

ها هو ذا يرى فتحات في كل الجهات على شكل نوافذ صغيرة على جدران التواليت، شبيهة نوافذ هذه العمارات شاهقة الارتفاع التي تحيط بسكناه، عدداً وشدة اتساع، يتدفق من كل منها نورٌ باهرٌ، وفي سماء التواليت أيضاً، وجوه فائقة الجمال، تكاد تتدلى كألذّ ما تكون أحلى الفواكه المشتهاة، فوق أن هذا العرض أيضاً كان مصاحباً بضحكات مرتفعة، وأصوات أشبه بالبغام أو فوق ذلك بقليل، تأتي بغير انتظام منها ما يذكرك بأصوات بعض محارم من محيطك، فيمنعك ذلك مع الانسياق مع استيهاماتك المثيرة التي تتلاعب بك، فتلقي بك على أكثر من طريق أما حين لا تأتي إلا أصوات من تشتهيهنّ بكامل شغفك مما تتصور أنك حرمت منه

خلال عمر طويل فإنك تنساق، ويحملك الحلم الذي لا تريد أن يصل بك إلى نهاية خاطفة دون أدنى شعور بالإثم أو تأنيب ضمير، حتى وأنت تعرف حدود أقصى ما تبلغه من ذلك، مع أن خطوك مقيّدٌ وأنت إذا صحوت على نداء أيّ منهن، تعرف إلى أين ينبغي أن تسير. وستظل الآن تحت هذا الحصار الذي لا تتمنى منه فكاكاً، رغم أنك رفعت صوتك ساخراً، وأنت تردد في فرح من عثـر على كسب، فلم تبق واحدة ممن تمنيت ذات يوم إلا وحضرت في كامل زينتها، تنتهي إلى سمعك نوبة عشاق بأصوات فتيات:

- «وجه الحبيب... ما كان أحلاه

غاب الرقيب... لا ردّه الله»...

فتذهل عن مكانك حيث تقبع مثل أسير، ويملؤك زهـوٌ فترفع صوتك بالغناء معهنّ وأنت تحاول أن تخفي فرحتك التي تخشى أن يفضحها ضحكك ولو من وراء حجاب.

لكن صوته يبلغ إلى مسامع المطلات عليه وهنّ يريـنه غارقاً في مباذله، فترتفع أصواتهن بالضحك الماجن والتعليقات الساخرة وبقدر ما كان يتضاعف اضطرابه وقد بدت لهنّ سوءاته، كانت الكـوى تزداد انفتاحاً، ووجوه الفاتنات المطلات منها عليه تتألق كثريّات باهرة الإضاءة، فيمعنّ في الاقتراب منه وقد كشفن عن مزيد من مفاتنهن.. مع ذلك لم يكن يبدو عليه أيّ ضيق، رغم أنه كان قد ضيّع مع اضطرابه كل تركيز، فلم يعد يعرف من أيّ جهة يطلب الماء وهو في بيت الماء، ولا أين يصبّه، ولا أين يعثر على ما يجفّف به ما ابتلّ من أعضائه.

ثم فجأة رأى نفسه يطير مجتازاً وسط البيت، في عودته إلى فراشه، وهو يسمع ردّ صاحبته، على ما سمعته من احتجاجه على سلوك من يزرنها، في وقت غير مناسب:

- يبدو أنك لن تتخلّى عن حيائك الشديد في مواقف لا يستحيي منها في العادة أحدٌ في الأسرة. فهؤلاء قريباتي، أتريدني أن أطردهن؟

فلم يعرف وقد فاجأه كلامها أيستريح إلى ما يسمعه منها أم أنها كانت تسخر مما لا تريد أن تكشفه أمامه مما تعرف عنه من أسرار.

أتكون تقصد لحظات خلوتهما التي لم تكن ترضيها، كما تستطيع أن تثبت ذلك بأقرب الحجج وأوضحها، فهي كانت متأكدة منذ أول لقائها به، أنها تقف أمام من انبهر بها عشقاً، فلذلك فهي لا تتصور -دون أن يكون فيما تتصوره أقل غرور منها- احتمال أن ينتقل منها إلى غيرها يوماً ما أما هو فقد اكتشف أنه كان قاصر التجربة إذ أدرك أنه كان عديم الممارسة، بل هي لم تعدم بين قريباتها من لاحظت حالته فلقبته سراً بينهن بالأبله، وأنها كانت أكثر واقعية منه، في كل عمره السابق على الارتباط بها، فقد بدا دائماً كأنه لا يعرف شيئاً عمّا حوله بل وعمّا ينبغي له أن يخوض فيه، كمحارب افترض فيه، كل من سمع عنه، أنه مجرّب خبير.

حقيقة أنه حمد منذ لقائه الأول بها حظّه الذي وضع بين يديه من الفتنة والسحر ما يفوق ملء ما كان يحلم به، لكنه بعد أن بدأت سلسلة الأخطاء تحيط به، منذ ليلتهما ألأولى، لعن أيامه، وما كان عليه من قصور جذوره الحقيقية كانت تمتد في أعماق ذاته وأساليب تصرفات الكبار والصغار معه في كل مراحل حياته الماضية وتمنى أن لو كانت له تجربة زواج سابق، على ما ووجه به في ليلتهما تلك..

ورغم ذلك لم تـر بأساً في ما كان من ترديه أمامها، في أكثر من مرة، رغم ألا شيء كان ينقصه منذ أول خطوة مشتركة في ما كان يتمنيانه صعودا نحو قمّة، لا انحداراً إلى حضيض:

- لا رجل يستحق ثقة امرأة، ولو أكلت معه «صحفة من الملح»*.

كان، وهي تقول ذلك، يستعرض في سورة شبق، تلك الوجوه رائعة الفتنة التي حاصرته، قبل قليل حتى وهو في أخس درجات ضعفه، من عريه الفاضح.

لكنه رفع صوته، وهو يريد أن يتستر على كل ما وجد نفسه مضطراً إلى إخفائه، من حقيقة أمره التي كان يخشى أن يصدر عنه ما يدل عليها:

- ما أصعب أن نتعرّض إلى الاختبار.

«لا جرّبنا الله» تذكر قول والدة أحد الشيوخ من أصدقائه، كان كثير الاستشهاد بما زوّدته به وكان ترحم عليها، يذكر دائماً أنها كانت معلمته الوحيدة.

- لم أفهم، أم تراك تهلوس أم أنت تهذي؟ قالت وكأنها تحتجّ.

- عنيت: أن الفرد منا قد ينهار أمام مفاجآت الطريق. أجابها.

- ماذا؟ علا صوتها في احتجاج حقيقي هذه المرة.

- صحفةٌ من ملح... لا أحد يقوى أن يأكل حتى مجرد صحن ملح صغير فكيف إذا كان كبيراً.

قال هذا ممعناً في تضليلها، وهو يعرف أنها على حق في كل ما قالته من قبل وفي كل ما تقوله الآن أيضاً، ف آه.. لو كان في سعة لكان كرّر تجربته، دون أن يخشى لوم أحد، ولكان اختار بالفعل، ودون تردد أن يغيّر في النساء، وينكح من الزوجات ما طاب له، ويغير في ما ملكت يمينه منهنّ، باستمرار.

انتبه إلى وضعه، وهو يكاد يرفع صوته بما تهجس له به نفسه أو شيطانه، لو كانت أسعفته حباله الصوتية.

لكنه لعن ضيق ذات اليد: وهو يفكر في فقره وعذاب النار ولعن الظروف التي ما زالت دائما تجبره على الرضى بالقليل والخضوع لما يقيّده به واقعه المرير، بل هو يجتهد ألا يظهر ما يظهر من خضوع زائد، إلا استسلاما منه ومجاراة لما يسقيه الناس الظروف، ولعن ظروفه أيضاً، فهو في أعمق أعماقه ينطوي على ما لا يوصف من تذمّر سوداوي هائل، ورفض عدميّ كبير، ورغبات وحشية ضارية لا تقاوم.

كاتب من المغرب

على حافة الجحيم

حميد ركاطة

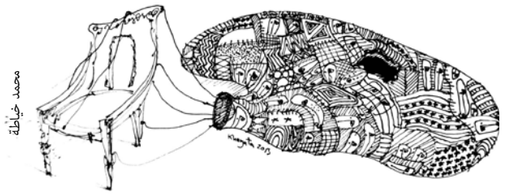

أتذكر اللحظة التي اصطففنا فيها في طابور طويل، كنا ننطلق تباعا الواحد تلو الآخر لنقبّل يد الزعيم. ننحني دون أن نجرأ على رفع رؤوسنا إلى أن يأمر هو بذلك، أو يسحب يده متذمرا من روائحنا الكريهة.

سرت بخطوات مترنحة نحوه، انحنيت على يده لأقبّلها، بدت ذراعه الممدودة نحوي كرافعة جبارة في ورشة بناء؛ تلقفتها برهبة، لثمتها بقبلة حارة طويلة. انجرفت لحظتها بقوة نحو ماض سحيق، نفس اليد الذي كانت تكيل لي صفعا، ولكما قويّين. نفس اليد التي كانت تهددني بالموت وسبابتها ترتعش فوق زناد مسدس كان مصوبا نحو صدغي، ويداي مكتوفتين إلى الخلف..

كان الزعيم يهدّدني بالقتل وأنا مثبتة إلى دعامة خشبية وسط ساحة عارية.. جسدي الهزيل لم يكن قادرا على تحمل الأمطار الغزيرة، أو البرد القارص..

وجدتني أحدق فيه بشرود، وصمت، بينما كان ينهش صدري بعنين صغيرتين تنبعث منهما شرارة حب دفين..

يد باردة كالموت، ما فتئت تعبث بنهدي، ومؤخرتي لليال متوالية.. تشدني بقوة من شعري دون أن أنبس ببنت شفة، أو أمتعض، أو أعبّر عن آلامي أو أبدي رأيا أو موقفا.. الآلام كانت تجتاحني تزلزل كياني.. ويد الزعيم المتخشبة، الخشنة تنبعث منها رائحة الموت، تغرس أظافرها في جيدي تطوقه بحنق..

طالت انحناءتي التي أحسست أنها دهر كامل، تحوّل معها ظهري إلى جسر لعبور أحذيته الثقيلة نحو الجحيم..

التف بكرسيّه نصف استدارة موليا لنا ظهره، وهو يشبك يديه إلى صدره. بدت لي قامته أصغر بكثير ممّا توقعت، لقد هزل كثيرا، رفع سبابته فهبّ نحوه أحد حراسه الشخصيين، همس في أذنه ثم بصق متقززا على الأرض، أمده الحارس بعلبة مناديل ورقية مسح وجهه المتفصّد عرقا، ثم استدار نحوي من جديد. كنت لا أزال واقفة في مكاني.. أشار إليّ بيده، أمرني بالانصراف. ما كدت أفعل حتى صوبّ نحوي طلقة نارية من مسدسه، فتسمّرت في مكاني مرعوبة.

ضحك الزعيم، عقبت قهقهاته تصفيقات الحاضرين معه داخل خيمة نصبت فوق مصطبة عالية، لينخرط بعدها في نوبة سعال حاد.

ارتعشت فرائصي، خارت قواي، ولفّني دوار لعين. سمعت همهمات ووشوشات في كل الأنحاء..

عبّ الزعيم من كأس مثلّجة، أشعل سيجاره الكوبي، وتكاسل فوق كرسيّه الوثير، واضعا ساقه النحيفة فوق ركبته. بدت لي فردة الحذاء الأسود التي كان ينتعل، أكبر بكثير من مقاس قدمه التي كان يحركها بعصبية كبيرة، وهو مدسوس في سترته العسكرية الفضفاضة، المثقلة بالنياشين والأوسمة. بينما شاربة الأبيض الكث، يحجب عن الناظرين فمه الأدرد، ليبدو أنفه معقوفا كمنقار صقر، يحمل أثقال جسد مثبت إلى كتفين بارزين بينهما رأس حليق تحت قبعة عسكرية أكبر حجما.

علت موسيقى عسكرية على حين غرة، فوقف الجميع، وأعينهم شاخصة نحو الزعيم. في الوقت الذي كان هو لا يزال يحدق في مؤخرتي، التي بدت له لحظتها كمنطقة جديرة باجتياح عسكري مباغث، يرفع في رحابها علم تجريدة حرسه الخاص.

بدأ الاحتفال بيوم النصر، على منصة خشبية تتوسط الفضاء الفسيح، توالى شعراء مفوّهون، وكتاب مأجورون، قوبلت خطبهم المزخرفة بسيل من التصفيق العارم، والتهليل منقطع النظير.

من خلف نظارتيه الطبيتين بدا المكان للزعيم، غارقا في ضباب كثيف. وهو يسلم جسده المثقل بالأحقاد، لرصاصة قناص أصابته في مقتل.

كاتب من المغرب

سرقات صغيرة

فاطمة الزهراء الرغيوي

إنني خائفة من كل شيء. أمشي بجسدي الغريب. لم أتقبّله بعد، هذا الجسد الذي يمتدّ في كل الاتجاهات. لديّ الآن كرتان في الصدر، وعشب ينمو تحت إبطي وما بين ساقي. ولديّ هذا الخوف الذي يتغلغل عميقا بداخلي.

كنت صغيرة عندما قال لي أبي:

- أنت كبيرة الآن. لن تحتاجي لعبا لأنك كبرت.

أبي الذي لم يشتر لعبا لأخي الصغير أيضا، كان يتحاشى النظر إليّ. وأنا منذ ذلك الوقت أردته أن يراني فقط. عندما كان يعود مساء من العمل، كنت أستقبله مثلما كانت تفعل أمي. ولكنني فشلت دائما في أن أردّ ابتسامته. كان يجلس على طاولة الأكل، يقسم بيني وبين أخي ما طَبَخَتْهُ. وأحيانا يتوقف عن الأكل كأنه تذكر شيئا، ثم يقول لي:

- أحسنتِ.

هكذا كنت أنمو بين رجلين وبين الفراغ الذي خلّفه رحيل والدتي. لا أعرف سبب موت أمي. أتذكر فقط أن شيئا ما كان ممدا وسط الدار. كان مغطى بثوب أخضر ذي نقوش مذهبة. قالت لي صديقتي التي توقفتُ عن اللعب معها لأنني كبرت:

- إنها أمك الميتة.

ثم لم أر أمي بعد ذلك. وكبرتُ. وكبرَت أشياء أخرى. وأبي الذي لم يكن ينظر إلى وجهي ابيضّ شعره وانحنى ظله قليلا.

في بداية الأمر، كان يذهب إلى السوق، ويجلب لنا خضرا وفواكه وقطاني وسمكا وأحيانا دجاجا أو لحما. كان ينسى غالبا أن يقتني لنا ملابس جديدة، حتى نبّهته جارتنا الطيبة. ثم أصبح يشتري لنا ملابس فضفاضة نكبر بداخلها أنا وأخي ونحن نضحك من الأكمام الطويلة وندفئ بها أصابعنا كلما اشتد برد الشتاء. لاحقا -ولأني كبرت حقا- بدأت أذهب إلى السوق. كان عليّ أن أشتري لوازم البيت، وثياب أخي وفوطا صحية.

ثم بدأت أنتبه للثياب المعلقة في واجهات المحلات. وبدأت أنتبه لصديقاتي اللواتي لم ألعب معهن وهن يتزيّنّ بالملابس. ولكنني لم أتخذ قرارا حقا. لقد فعلت ذلك فقط. وقفت أمام البائع وسألته عن ثمن القميص المدرسي. طلبت منه واحدا يناسب مقاسي، وإذ استدار ليجلبه، مددت يدي والتقطت علبة جوارب النايلون ثم وضعتها بخفة في حقيبة المشتريات مع الخضر ونصف كيلو السمك وكيلو التفاح.

لقد كان أمرا يسيرا جدا. كرّرت ذلك كثيرا. اشتريت بالمال كل الأشياء إلا جوارب النايلون تلك، كنت أمد يدي إلى كل أنواعها وآخذها. من قال إن ذلك أمر يصعب فعله؟

أبي الذي لم يكن ينظر إليّ، لم يكن لينتبه. أخي الذي كان قد كبر كفاية ليبدأ اللعب مع أطفال الحي، لم يكن قد كبر بما يكفي لتثيره جوارب النايلون. واعتقدت الجارات أن أبي يبالغ في دلاله لي تعويضا عن خسارة أمي. صديقاتي كن يحسدنني. وأمي... لقد كانت ميتة وصامتة. وأنا أحببت تلك الجوارب الشفافة بكل أنواعها. ثم كبرت حقا. مرات كثيرة كنت أكبر. في المرة الأولى ماتت أمّي وتوقفت عن اللعب. في المرة الثانية ذهبت إلى المدرسة وحدي، ثم رافقت أخي ممسكة بيده الصغيرة كأنها يد الله المُطَمْئِنَة. في المرة الثالثة ذهبت إلى السوق. وكان أخيرا عليّ أن أكبر لأذهب إلى الجامعة. عندما مددت يدي لآخذ رواية L'amant توقف حبي للجوارب. بدأت أمدّ يدي لآخذ الروايات بينما أشتري كتبي الدراسية.

لم أكن محتاجة لأخذ شيء آخر. كانت الروايات تكفيني وهي تهربني أبعد من نظرة أبي الغائبة، ومن غياب أخي الذي انتقل ليلعب في ساحات الكرة. وظللت أكبر. تعودت على تلك الامتدادات التي التصقت بجسدي حتى كأنها صارت جزءا منه. لن يصدق أحد أنها إضافات غير ضرورية لطفلة لم تلعب كفاية. ونما الخوف أيضا. الخوف اللذيذ الذي كان يجلس بداخلي ويجعل كل فرائصي تهتز وأنا ألبس جوارب النايلون في البداية، ثم وأنا أتكوم فوق سريري لأقرأ الروايات.

ثم كبرت مرة أخرى -أدرك الآن أننا لا نتوقف عن التقدم في الحياة-. كبرتُ ولم أعد أسرق الروايات، أنا أسرق الحياة الآن. أمشي ببطء وأبتسم للأطفال وللسماء وللنهر الذي يختطف منّي قبلة كلما حاذيته. قالت لي المرأة التي كانت تتنفس بصعوبة «لا تأخذي زوجي منّي». وكان يجب أن أنظر طويلا إليها، وأن أتعاطف قليلا معها: يمكنني أن أسرق كل الأشياء ولكن زوجك ليس شيئا، أردت أن أخبرها بينما كنت أنزع عني الخوف، أقشره مثل قشرة برتقالة وأرمي به في وجه المرأة والناس الذين كانوا يتفرّجون في الفضيحة. لستُ فضيحة، أردت أن أصرخ. أنا طفلة تلعب.

كاتبة من المغرب

مغلق أو خارج نطاق التغطية

الخير شوار

شعر بالأرض تضيق وتضيق، وهو يتكئف معها. تحوّل إلى عبوة مهددة بالانفجار في أيّ لحظة.

وجد نفسه يحدّق في الشمس الملتهبة. شعر بألم غامض في عينيه، لكنه واصل النظر بشيء من التحدي اليائس. الشمس تلمع في صلعته، حوّلتها إلى ما يشبه الشمس الصغيرة، وهو يواجه الأشعة بعينيه. عادت به الذكرى إلى فكرة نسي مصدرها، تقول بأن الشمس حقيقة لا نستطيع التحديق فيها.

شحن نفسه بما يلزم من الإرادة، واستمر في النظر إلى شمس حقيقته. شمس الزوال متعجرفة. بدأت إرادته تخمد مع الثواني، شعر بألم في صلعته وفي عينيه. وضع يديه على عينيه وصلعته تغلي بألف سؤال وسبعة أسئلة.

الهجير يأكل القرية. والشوارع خالية من المارة. لم يكن يدري بالعرق يتصبّب من جسده والهواجس تأكله أكل الذباب للقمامة.

شعر بحركة غير عادية. رفع رأسه فوجد قطا أسود. قال في نفسه «ماذا لو كان القط عفريتا، يقال بأن العفاريت تظهر على شكل قطط بهذا اللون»، ثم قال في نفسه إن القط ليس عفريتا لأنه بظلّ. نسي أمر القط وانخرط في ذاته. تكثّف حزنه وما مر به يعود بقوة. ما الذي أتى به إلى هذه الناحية في هذه الهاجرة؟ الشوارع خالية. ظلّ الشجرة يتقلص مع الزوال. شعر فجأة بحركة غير طبيعية. استعاد مشهد القط الأسود. ربما يكون قد عاد.

التفت فجأة. رفع عينيه، فوجد رجلا ينظر إليه دون أن يحييه. كان الرجل يلبس قميصا أصفر، وسروالا أبيض ويحمل وردة بلاستيكية. نظر الرجلان إلى بعضهما في صمت. عندما زال الحاجز النفسي سأل الواقف الجالس:

- من أنت؟ لم أرك في مدينتنا قبل الآن؟

- ومن أنت؟ وماذا تحمل؟

- كما ترى. طلبت مئي أن أحمل وردة حمراء، ولم أجد في مدينتنا إلا الورود البلاستيكية.

- ومن هي؟

- التي أنتظرها.

- ومن تنتظر؟

فتح السؤال شهية صاحب الوردة البلاستيكية للكلام. أمسك بالوردة، استنشق شذاها المتخيل، وقد نسي فعل الحرارة في جسده، وهو يقول «لم أكن أصدق أذني عندما كنت في الغرفة الهاتفية، أردت أن أكلم صديقي الحملاوي الذي قضيت معه أياما لا تنسى في الخدمة الوطنية، وما إن طلبت الرقم حتى فاجأتني بصوتها الساحر، وهي تقول «نظرا لازدحام مؤقت يتعذر وصول ندائكم. الرجاء إعادة المحاولة بعد حين». عندما سمعت صوتها، لم أنتبه لنفسي وقد سحرني ذلك الصوت. أخذت أقلده بطريقة مضحكة «نظرا لازدحام مؤقت لم يصل نداؤكم. الرجاء إعا....»، ولم أكمل الجملة فقد انفجرت ضاحكة. في تلك اللحظة شعرت بسعادة مطلقة. قالت لي بأن صوتي سحرها، أصرّت على لقائي حالا. وطلبت مني أن أحمل وردة حمراء وأقف في هذه الساحة حتى يتسنى لها معرفتي».

كان الأصلع مذهولا، وهو يقسم في داخله بأن صاحب الوردة البلاستيكية الحمراء، إما أن يكون مجنونا أو مسطولا أو مخمورا، نهض واقترب منه لعله يشم رائحة ما، لكن المفاجأة أذهلته.

رأى حسناء تقترب منهما. رائحة عطرها تسبقها. تحمل مروحة وردية اللون، وترتدي ملابس مثيرة. اقتربت من صاحب الوردة البلاستيكية، وقالت بصوت مبحوح:

- أنت إذن؟

ردّ عليها، وهو يطير فرحا أنا نعم. ساد الصمت برهة، ثم مدت يدها له. وضعا الذراع في الذراع، وقبل أن يسيرا طلب منها مرافقها وهو يستنشق ملئ منخاريه الشذا الافتراضي للوردة الاصطناعية «أعيدي عليّ تلك الجملة الجميلة التي ترددينها في الهاتف»، فقالت بصوتها المثير «نظرا لازدحام مؤقت يتعذر وصول ندائكم. الرجاء إعادة المحاولة بعد حين».

بقي الأصلع وحده يمسح العرق بكفيه، ثم يتحسس صلعته، ويتساءل في نفسه، هل ما يراه حقيقة أم أنه فقد عقله؟ أو كان يكلم الأشباح؟. فقد القدرة فجأة على الوقوف، فجلس تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم تدحرج نحو ظل الشجرة.

بقيت الهواجس تتصارع في داخله. أصبح يفكّر بصوت مسموع، ويتفوّه بكلام غامض والهواجس تترجم فوضاه. ما الذي جاء به إلى هذه الناحية في هذا الوقت؟ أين المواصلات؟ بل أين سكان

أحمد المرخي

الحي؟

استعاد صورة الحسناء التي ذهبت مع صاحب الوردة البلاستيكية، وهي تتكلم بتلك الإثارة. تأججت هواجسه، ثم خطر في باله أن يبحث عن غرفة هاتفية لحاجة في نفسه.

عندما دخل إلى الغرفة الهاتفية لم يجد رقما في ذاكرته. تحسس جيبه فلم يجد مفكرة. فكر في مغادرة الغرفة، ثم قطع تفكيره هاجس يقول له «يجب أن يكون الرقم خاطئا أو مشغولا. حتى تستمع إلى ذلك الصوت العجيب»، ثم قال في نفسه إن صاحبة الصوت المطلوب ذهبت مع صاحب الوردة البلاستيكية، ثم استطرد قائلا مع نفسه «لا بد من وجود عدد من الحسناوات يشتغلن بالتناوب على مدار النهار والليل، فلأجرب رقما خاطئا».

وبالصدفة طلب رقما تشكل تلقائيا. رن الهاتف قليلا، وتفاجأ بمجيب يقول له بعد مقدمة من الكلام البذيء «أيها الوقح. إن رقمك مسجل، وسوف تأخذ جزاءك. لماذا تتلاعب بمشاعر الناس أيها الخنزير الوسـ...»، ولم يدعه الأصلع يكمل الجملة، فقطع الاتصال فورا والعرق يتصبّب باردا من كل ناحية في جسده.

بقي مسمرا في الغرفة. انتبه لنفسه بعد ذلك وتخيّل نفسه في البيت الساخن لحمام عتيق. وجد صعوبة في استيعاب الحالة. فكّر في مغادرة الغرفة، ثم عدل عن الفكرة.

امتدت يده إلى السماعة مرة أخرى، وجرب رقما آخر تلقائيا. جاءه على الفور صوت يقول له «إن الرقم الذي طلبتموه خاطئ. الرجاء الاتصال بمصلحة الاستعلامات رقم 19». في أثناء ذلك حاول مقاطعتها، وهو يقول «أهلا. أيتها الجميلة. أنت فاتنة حقا. أنت. أنـ...»، ولم يظفر بجواب.

انقطع الاتصال. شعر بشلل في مؤخرة رأسه. وبرودة العرق. حاول تجاوز الموقف والاتصال مرة أخرى، لكنه شعر بما يشبه الشلل في يديه. ترك السماعة في غير مكانها وخرج من الغرفة. مشى على غير هدى. تفاجأ بصاحب الغرف الهاتفية يقول له « يا سي محمد... هل نسيت؟ أين ثمن المكالمة؟». أعطاه الأصلع الدنانير المطلوبة وهو يعتذر له بإصرار، ثم استقبل شمس الهاجرة بخواطر جريحة. شعر بالأرض تضيق وتضيق. وهو يتكثّف معها. تحوّل إلى عبوة مهددة بالانفجار في أيّ لحظة.

كاتب من الجزائر

تهاويم ليلة باردة

زهرة زيراوي

1--

هكذا بدت المدينة رابضة في العياء والاجترار، في فضاءاتها يحلق طائر خارج السرب. مطر أيلول يحيل الذاكرة على أشياء مضت.

كغرف الأطباء المغموسة في لجة من أضواء النايلون كانت غرفة نومنا، وأنت ترقد إلى جانبي، تخرج من غطائك وتقف قبالتي تسألني:

- من كان ينام حدك؟

كنت أنت تنام جانبي، وكنت أنت قبالتي، كنتهما أنت وحدك أنت وأنا معا.

الأغطية كلها كانت غارقة في البياض. هناك فقط بعض ثنياتها ظلت مائلة إلى زرقة بفعل ظلال التكون، اعتقدتك في الأول مازحا، ابتسمت، نحوك... نحو أنت دفعتك. سألتك:

ما تقول؟..

يسلمني شرك إلى شرك، الآخر وأنا المقصودان. أعرف، هكذا ترتب اللعبة، الآخر ليدنيني، وأنا ليجتث المبهم كل حصون قلعتي.

رميت بالأغطية تحت. صرخت:

« تعال أيها الحجر نتعرى معا في غرفة أكثر ضياء

2--

ينهمر الشلال على جدار الفندق، الجدار تعرش عليه شجرة لبلاب عازف القيثارة يعزف معزوفته، تغني مرافقته. هو إلى جانبي يرتدي قميص» الكاشاريل» يفتح النادل زجاجة خمرته، يسألني رفيقي:

- تشربين؟

قلت:

- لا.

- لماذا؟

- هكذا.

عندما كان يتحدث عن أشيائه، عن خمرة « اتشيفازا «المعتقة وعن اقتنائها من المزاد العلني بإحدى أسواق «جان زاك» بمليوني فرنك.

كنت أنا أسند رأسي إلى كتفه، وأنغمر في رسم لوحة تسكنني، هكذا بدت اللوحة في النهاية، امرأة تتمدد على أريكة بنية قاتمة، تجعل رأسها بين ذراعيها وتشكل يداها انسيابا هادئا، على المخدة يشكل الانسياب رأس حصان يهادن المرأة، في النهاية التحم جسدها بجسده لتبدو فعلا كأنها المرأة الحصان.

هكذا أنا، هكذا هو.

شيء داخلي يقارن بيني وبينه، عندما كان يتحدث لم يكن يتحدث لي قطعا هو قميص «الكاشاريل» وزجاجة «اتشيفازا» وأنا الضاربة في جسد النفّري.

تردّدت في أن أظل إلى جانبه، كسرت هذا التردد عندما اعتبرته خارجا عني. سرت في الطريق الممتد، وضعت يدي في جيبي معطفي، وأحكمت الياقة حول عنقي. الخريف يعلّم أشياء كثيرة.

تساءلت:

- ثمة امرأة راحلة داخلي باستمرار، من يقنعها بجدوائية السؤال؟

هكذا رأيت، تقلّني طائرة زرقاء بخطوط صفراء، أقلعت من نافذة حجرة ضيقة، لامس ذيلها إطار النافذة ولكنها أقلعت نحو الفضاء الواسع.

قلت:

- إن من يملك قوة الضغط في الداخل لا يبحث عنها في أيّ نبيذ كان.

لكن ما حدث الليلة كيف يمكن تفسيره لي أنا على الأقل؟

قلتها وجاست يدي داخل صدري. تساءلت:

- لماذا وضعت رأسي على كتفه؟

تلاحقت الأشياء. لا اتشيفازا ولا الكاشاريل ولا... ولا.

كانت السطوة قادمة من شيء آخر، سلطة المكان هو كلّ ما أسندت إليه لحظة الضعف.

القيثارة، الماء، شجرة اللبلاب، تأثيث المكان.

عندما كنت أخرج وحيدة كان الليل يعدو، وكانت الأشياء تتتابع، وكان كلب يخالف أرجله الأربع يقبع وسط الطريق، يغرب عينيه لامباليا.

بدا وحده خارج هذه اللعبة يضحك.

3--

عندما كانت هي تطارد المدينة كان هو يرتب زهورا برية في آنية الفخار. يبتعد قليلا وينظر إليها. ما يزال بعض النشاز.

mazen boukai

زهرة الخابور كانت تحبّها كثيرا. لا يعرف لماذا يأتي بها للبيت كل أسبوع. هل ذلك آيل إلى العادة أم لأنه يثير داخله شيئا ما؟ يسلّ قسمات وجهها من ذاكرته. يراها تفك أزرار روب «ديشامبر»، وتلقي بها على السرير. كان خطوها مبرمجا على ضابط روبو. تتجه صوب الحمام تفتح الصنبور، تجمع أصابعها المرتعشة لتحتفن ماء تبلع به حبات مهدئة.

- لم جف جسدها من كل أنوثته؟ لم يبق به غير حزمة أعصاب متوترة.

هكذا كان يتساءل. يحدث نفسه، يحاول تذكر تفاصيل طقوس ذلك الليل. قال لها:

- ها أنذا كذي النون البصري إليّ بزانية.

عقبت:

- شبيه بذاتك فقط. ما تكاد المرأة تكتمل حتى تتزوج، وما تكاد تتزوج حتى تنتهي.

هكذا تردد كلما شعرت بأنه قد باتت لكل منهما حياة تخصه وحده.

رحلت. قالت ستبقى ولكنها رحلت.

ذلك ما قاله. امتدت يده إلى المزهرية، ودون أن يدري قطفت أصابعه زهرة خابور. ممّ كان يهرب؟

هذا الفعل كان يوقف زحف لحظاتها المرصوصة كحجر الصوان داخله.

كاتبة من المغرب

ميت عائد من الحرب بسفرجلة

سعيد منتسب

تمتطي بقرة سَلْقِيّةُ العينين وتراقب بانتباهٍ رجلا في عقده الخامس يشعل نارا على شاطئ رملي. كان يمسك غصنا صغيرا بيده اليمنى ليُقلِّبَ الحطب الذي يُزغي ويطقطق غبارا أزرق كثيفا، وفي اليد الأخرى يمسك علبة «الهنيكن» يعب منها جرعات متباعدة. ممدّدا كان على جنبه الأيسر، يفترش معطفا طويلا من الكشمير الكاكي ويداري نصف ابتسامة علقت في نصف فمه المتورم. كان يبدو من عينيه الناعستين أن خياله يحلق بعيدا، وأنه لم يكن راغبا في الحديث مع امرأة تمتطي بقرة وتخفي نحرها العاري بوشاح أندلسي أسود مطرز بأزهار قرمزية.

رفع بصره نحوها فترجلت عن بقرتها واقتربت منه. مدت له يدا تنضح برائحة الخزامى. قربتها كثيرا من وجهه، فاستغرق وقتا قبل أن يتخلص من الغصن ليأخذها إلى فمه. ودون أن يدعوها للجلوس، اتخذت لها مكانا قرب النار، وقالت:

- أنت ربما لا تعرفني، ومع ذلك، فأنت أكثر قربا مني من جميع الناس. كنت تعرف أنها ستموت، ولم تفعل شيئا لمنع ذلك. لو كنت مكانك لفعلت الشيء نفسه. لست عاتبة عليك. قمت بما يتوجب عليك القيام به. سقيتها وأطعمتها، واعتنيت بها كأخت.

أجابها دون أن يرفع عينيه عنها:

- أخبرتني أنها كانت تريد ولدا تعتني به ليشتاق إليها، وكنت أعلم أنها ستستعيد تدريجيا هدوءها وتمضي.. لم يكن بوسعي أن أنقذها منهم.

- هل تدري أنها تعطرت في يومها الأخير، وأخرجت من دولابها ملابس الأعياد. انتظرتك طويلا قبل أن يبرد جسدها.

أنا اللوز الذي بكى في غمده

ناولها علبة بيرة، وطلب منها أن تغلق ستائر الغائبة كي لا يستيقظ ندمه الكبير. لم يكن يريد أن يلتقي في هذا الشاطئ مع امرأة غريبة تحدثه عن امرأة كان يظن أنه يعرفها. حين رآها تغط في النوم، أقفل الباب وتمنى لو كان قوة نووية كبرى ليقصف الأرض. في ما مضى كانا مثل مزمارين أنيقين يعزفان من شفاه واحدة. يتحدثان بحرارة وأمل عن الذهاب إلى فينيزيا، وعن الرقص ليلا في حدائق فيرساي، ويتذكّران، وهما متعانقين، الجارات اللواتي ينشرن أقدامهن في الظل ويتحدثن بإسهاب عن الأزواج الذين يتغيبون أياما طويلة. بدأ يراقبها وهي تتكور داخل اللحاف، لا يظهر منها شيء. وضعت الوسادة على رأسها ونامت. لم تأبه له حين رجاها أن تعود إلى مدينتها عوض أن تتسلل كل ليلة إلى سريره مخمورة وحامضة.. كانت تضطجع ببرود وتخبره عن الزبائن الجدد الذين مروا تحتها «أنا اللوز الذي بكى في غمده، وامتلأت يده بالعقيق اللامع الحلو. أنا النار في الحصيد، والضوء الذي يغسل عشه في خاصرة الماء».

ينظر إليها مثل غريب الساحة العامة، ويترك خيالاته تستغرقها ببرود: يمسح جسدها بماء الزهر كي تزول تلك الرائحة التي تذكره بعرق الزنوج حين أحاطوا به، ذات ثمالة، في ساحة الماريشال في ساعة متأخرة من الليل. كان يحمل علبة أحذية ومحفظة جلدية حين غطته رائحتهم الهائجة فنزل قلبه إلى ركبتيه، وغاب. يحتاج إلى التأكد من أنه يريدها أن تختفي من حياته إلى الأبد، لا يريد أن يشتاقها، ولا أن يتسكع في شوارع مدينة كازا باحثا عن رائحتها التي كانت تستفز رجولته. حين يفكر أنه يشفق عليها، يمتعض ويفترض أنها خارج حياته التي تحتاج إلى ضربة يأس. أحس أنها أوقعته في فخ طالما تحاشاه. وأنه يمتطي بقرة سلقية العينين، ويخفي كتفيه بوشاح أندلسي.

- هل تشعر بالاختناق؟ سألته المرأة وهي تسترد ضحكتها التي رأتها تبتعد خطوة واحدة.

- لا أدري. لم أجد مكانا آخر أذهب إليه. تمنيت لو كنت قطارا بخاريا يخترق غابة لا نهاية لها..

- ألم يخطر ببالك إطلاقا أن تنتحر لتنسى؟

- ليس لديّ شيء لأنساه، ولا أشعر بالندم على أي شيء؟

- أخبرتني أنك عرضت عليها مبلغا ماليا لترحل إلى مدينة أخرى، وأنك هددتها بالقتل.

- هل كان بإمكانها أن ترفض عرضا كهذا؟ هل عرضتُ عليها المال بالفعل؟

- قلت لها إنك تحتاج إلى امرأة نظيفة، وبأنك ستبيع البيت!

- دعوتها كثيرا للاحتماء من البرد، لكنها كانت تصر على العودة في وقت متأخر وهي ترتجف. أتجمع حولها، وآخذها إلى السرير. أغطيها وأنام. لم تكن قذرة، بل كانت تائهة.

معتوق أبو راوي

- وأنت هل وجدت نفسك؟

فوجئا معا بعويل باخرة يلوح ضوؤها من بعيد. فتق علبة «هينيكن» أخرى أخرجها من جراب جلدي، وعبها في ثلاث جرعات. بينما كانت البقرة تسرح بعيدا إلى أن كادت تختفي. قالت له:

- حقا، أخبرني.. ما الذي أتى بك إلى هذا المكان؟ ولماذا تبدو مثل ناج وحيد من زلزال؟

- أشعر بحزن عظيم. هذا كل ما في الأمر. أشعر بأنني ممتلئ برائحة تبن محترق.

الموتى لا يحتاجون لشيء، كل أشواقهم موسيقى

لم يحدثها عن رفاقه الموتى الذين ذهبوا إلى الحرب ليعزفوا ألحانا على مسرح نظيف. لم يعرف كيف جاء إلى هذا المكان، ومن أتى به إليه. الأرض كانت مكتظة بجمهور متحمس لا يراه سواه.. وهو لا يرى أيّ باب خلفي يمكن أن ينسلّ منه من هذا الذي يشعره بأنه جرذ مهدد بعشرة آلاف مصيدة.. الموتى لا يحتاجون لشيء، كل أشواقهم موسيقى، مجرد نوتات تقفز من حشرجة إلى أخرى، تنساب وتتجمع في ثقب أسود عائم كساعات سلفادور دالي.. لم يحدّثها عن رفاقه الذين كانوا يقطعون أصابعهم بسواطير حادة ليطعموا أطفالهم المحاصرين بالدبابات والقنابل والراجمات. استجمع كل أنفاسه وقال:

- لم أعد موجودا، الدخان يلتهم كل شيء، والمخبأ الذي انبطحنا على أرضيته مثل كيس محشو برائحة الموت. لم أحدثها عن خوفي من أن يلتهمني أحدهم. وإنها لمهمة شاقة أن أظل متيقظا في هذا الكابوس الذي رسمته أصابع الله الخبيرة؛ طيلة أربعة أيام لم أنم ولم آكل سوى سفرجلة متشمعة. لماذا أنا هنا، وليس هناك في غرفتي التي تطل على «جردة مردوخ»؟ لماذا أمتلك هذا الجسد، أنا لست بحاجة إليه، أريده أن يبتعد عني، أن يختفي، أن يتوقف عن استعبادي. لا أريده. لا أريده!

- ألم يكن بوسعك التصرف على نحو آخر؟ لماذا تركتها تذهب؟

سألته المرأة، وهي تسمعه يحدثها عن السلطعونات التي تختفي بذعر تحت حراشفها لائذة بعشب الصخور، في مكان تنام فيه كالحجارة الصماء. أزاحت وشاحها الأندلسي وألقته بتثاقل على وجهه، رفع رأسه نحوها ففمره صدرها السخي، وصارت تشبه ليز تايلور التي أحبها كثيرا، واغتصبها كثيرا في أحلامه. أجابها:

- إنها لذيذة ولا تحب حبوب منع الحمل..

- لم يكن يصغي إليها أحد. صرخت قبل أن يسمحوا لها بالذهاب.

- لا أعلم أين ذهبت.. لكنني كنت أميز رائحتها الريفدور. لم أكن أطيق الغرفة.

- كنت تعرف أن حالتها تزداد سوءا؟

- كنت أعرف أنها تريد أن ترحل.

- ولماذا لم تمنعها؟ لماذا لم تساعدها على البقاء قربك قليلا؟

- هل كان ذلك سينفع؟

- كان يمكنها ألا ترحل. كانت بحاجة إلى إلحاح منك.

- لن ينفع ذلك. لم أعد متمسكا بشيء.

بقرة سلقية العينين تجفل أمام أفعى

ليز تايلور تمسح فمها بكُمّ فستانها وتطلب منه أن يكون «أنطونيو»، لكنه حدجها بنظرة كاوية، وأخبرها أنه يفضل أن يكون الأفعى. حرك النار بالغصن الصغير، ورأى فيها أفعى الجرس التي كانت تراقبه وهو ممدد على ظهره نصف ميت. لاحظ أنه بقدم واحدة، وأن الأخرى مرمية بحياد على بعد مترين، كأنها لم تكن منه. لم يشعر بالألم. شعر بالجوع يأكل معدته. وشعر بالبقرة السلقية العينين تجفل أمام الأفعى في بركة من الدم القاني. بينما كانت المرأة تعب ما يكفي من البيرة وتدعو الرجل الخمسيني إلى أن يعض يدها لأنها لم تعد تأبه بالرحيل.

كاتب من المغرب

أحلام مؤجلة

فدوى البشيري

أشرق الصبح، أشرقت معه أحلام سرمدية، رفرفت بجناحيها فأصابت قلب هذه الطالبة التي كانت تحمل أفكارا قاتمة عن الرجل الذي لم يجد قط مكانا في قلبها، معتبرة أن الحبّ نسج خيال، وتزهات شعراء، وحكايات أفلام تبدأ بالعشق والمناجاة لتنتهي بمآس تكون ضحيتها تلك الفتاة البريئة التي أعطت كل شيء للرجل، ولم تأخذ منه إلا العار والفضيحة.

أفكار مرّت بخيال «أحلام» وهي ترتدي ملابسها استعدادا للقاء هذا الطارق، الذي فتحت له أبواب قلبها دون استئذان، حملت حقيبة يدها، ونظرت طويلا في المرآة تتأمل هذا الوجه الصبوح، وهذه العيون الشاردة، ابتسمت ابتسامة عريضة، وهي تسأل نفسها بثقة وأنفة، يا إلهي كم أنا جميلة هذا الجمال يستحق عشق ملايين من الرجال.

هرولت «أحلام» مسرعة خارج البيت لتستقبل سيارة الأجرة ودقات قلبها تتسارع، ويدها ترتجف، لم تعرف بالتحديد كنه هذا الشعور، توقفت سيارة الأجرة أمام باب الكلية، سارت «أحلام» تجاه المدرج لتأخذ مكانها بجانب زملائها الطلاب وعيونها تبحث عن شيء، متلهفة للظفر به، إنه إحساس المحبّ.

فجأة لمحت «صلاح» وهو قادم يحمل محفظته الجلدية. تضاعفت دقات قلبها، التفت «صلاح» صوب مقعدها باحثا عمّن سرقت قلبه وملكت فؤاده، فكان لقاء العيون أقوى من لغة الكلام.

بدأ «صلاح» في إلقاء محاضرته، كان موضوعها، «الرواية العربية» طرح الأستاذ «صلاح» سؤالا وجيها على تلاميذه:

- هل استطاعت الرواية العربية عبر العصور السالفة إيصال المشاعر والأحاسيس التي يمر منها البطل إلى قلب القارئ العربي؟

تعددت الأجوبة بين النفي والإيجاب، البعض قال إن الرواية العربية جزء لا يتجزأ من معاناة الإنسان العربي بكلّ همومه وأفراحه، خصوصا المرأة التي تعتبر عند الرجل العربي مجرد جسد يشتغل لإشباع نزواته البويهمية ولإفراغ مكبوتات هذا الإنسان الضعيف.

البعض لم يستسغ هذا الجواب، واعتبر أن الرواية تحمل كل ما هو جميل ومعبر عن العلاقة بين الرجل والمرأة، على اعتبار أن المرأة نصف الرجل، وأن أجمل ما يجمعهما علاقة تلتئم فيها الأرواح، وتسمو إلى عالم الجمال والحب، فليس كل ما قيل في جلّ الروايات أو القصص مشين وماجن.

استحسن الأستاذ الردّ الأخير، وختم محاضرته قائلا:

- يا ليت شبابنا اليوم يدوّن كل أحاسيسه ومشاعره في روايات وقصص إبداعية، ليسود الحب بين الرجل والمرأة في أقطار المعمورة.

- ابتسمت «أحلام» ابتسامة عريضة فأجابته:

- في ظل العولمة، يا أستاذ والاختراعات والتكنولوجيا المدمّرة، طغت العلوم التي كان ضررها أكثر من نفعها، علوم دمرت أوطانا وأثكلت نساءً، ويتّمت أطفالا وأعطبت رجالا، في ظل هذا يا أستاذي، كم نحن في أمسّ الحاجة إلى شباب يحمل مشاعر رقيقة وأحاسيس مرهفة، وينشر داخل صفحات الكتب والمجلات نداءً مفعما إلى القلوب كي تعشق، وتبتعد عن الكراهية والحقد ليسود السلام أقطار العالم قاطبة.

كانت هذه الكلمات بلسما شافيا أوصل رسالة إلى الأستاذ، فكانت جوابا عن كل ما يريد أن يعرفه عن معشوقته.

غادر الأستاذ المدرج شارد الذهن يفكر في خصال هذه الطالبة الشابة المجدّة التي تحمل هذا القلب المليء بالمشاعر الفياضة، بينما كانت «أحلام» وراءه تتأمل خطواته، بالقلب العاشق الذي لا يخطئ حدسه، التفت «صلاح» وراءه باحثا عن «أحلام» قصد إيصالها معه بواسطة سيارته إلى منزلها.

أدركت «أحلام» ما يريده «صلاح» وبحشمة وخجل طفولي، صعدت «أحلام» إلى المقعد الأمامي بجانب «صلاح».

انطلقت السيارة تشقّ الطريق، لحظة وجيزة ساد الصمت فما كان من «صلاح» إلا أن بادرها قائلا:

- هل تسمحين لي بفرصة لقاء مساء هذا اليوم.

- فأجابته «أحلام» بعد برهة من الصمت، وهي تشعر بسعادة غامرة:

- لا مانع عندي.

اتفق العاشقان على العشاء في مطعم راق رومانسي، كانت المسافة طويلة بين البيت والكلية، رغم ذلك أحست «أحلام» أن الوقت مرّ بسرعة وهي بجانب «صلاح»، نزلت أحلام وعيون «صلاح» تتشوق النظر في هذه القامة الممشوقة التي ينسدل فوق أكتافها شعر أسود فاحم، يغري الشاعر بنظم أبيات كالتي قالها شعراء الجاهلية، حيث كان الشعر والعيون مقياسا لجمال المرأة المغربية.

اتجه «صلاح» صوب بيته ليجد زوجته «كريمة» في انتظاره، أسرعت نحوه لتحمل عنه المحفظة، وتنزع عنه معطفه، لم يبال لتحيّتها ولابتسامتها المعهودة، وبلهفة المشتاق سألته:

- هل أقدم الغذاء الآن؟

- أجابها «صلاح» وهو يدير وجهه نحو أطفاله الجالسين على مائدة الغذاء في انتظاره:

- طبعا إن اليوم بالذات لديّ شهية مفتوحة للأكل لم أكن أعهدها قبل.

- ابتسمت «كريمة» بعفوية سألته:

- ما السبب؟

نظر إليها «صلاح» يتأمّل وجه زوجته الجميلة، وشريط لقائه الأول بها يمرّ أمام مخيلته، كان اللقاء الأول بها يوم زفاف ابن خالته، كانت في أبهى حلّتها وهي ترتدي فستانها الأسود الجميل المرصع، تلك الليلة ملكت «كريمة» قلبه، وشغلت فكره، فتعددت المواعيد واللقاءات الحميمية، لتنتهي بالزواج، ثم بإنجاب أبنائه الثلاثة

جلس «صلاح» فوق مائدة الأكل، يتأمل صحنه، وبدأ يلتهم الأكل بشراهة، كم هو لذيذ طبخك، اليوم، قالها «صلاح» في قرارة نفسه، بينما كانت «كريمة» زوجته تحدق في هذا المشهد الغريب الذي لم تعهده من قبل، وقد غمرتها سعادة لا توصف، وهي لا تدري ماذا يخبئ لها القدر، امرأة أخرى خطفت قلب زوجها العزيز.

انتهى «صلاح» من الأكل، وذهب إلى فراشه ليخلد دقائق إلى النوم، فكان ذلك أبعد من أن يتحقّق، لم يستطع أن يغمض جفنه، وكيف له ذلك وخيال «أحلام» ملأ فكره وسلب عقله.

أما «أحلام» فكانت معنوياتها مرتفعة، تنتقل بخفة ومرح داخل بيتها تنسج داخل مخيّلتها مشهد اللقاء الذي سيتم بينها وبين حبيبها، تبحث عن كلمات معبرة تبثها إليه وتصور له ما يعتلج داخل قلبها.

حان الوقت المحدّد للقاء، تعطرت بأجمل عطر لديها، واحتارت في اختيار فستان سيظهر هذه المفاتن التي كانت حبيسة فيما قبل، بين الحشمة والتقاليد التي فرضتها عليها بيئتها المحافظة، استقر رأيها أخيرا على فستان أهدته إليها خالتها في عيد ميلادها، فمنعها والدها من ارتدائه، بدعوى أنه فستان مكشوف لا يليق بها كطالبة وفتاة من أسرة محافظة أما اليوم فقد تغيّر كل شيء في حياة «أحلام» تغير الوضع وانتهت العادات والتقاليد بالنسبة إليها. ولم لا؟ إنه الإحساس بالحب، وأمام الحب يمّحي كل شيء.

أسرعت «أحلام» إلى غرفة والدها، وهي تبحث عن سبب وهمي لتبرير خروجها وسهرها خارج البيت، في وقت متأخر من الليل، كانت الوالدة جالسة أمام آلة الخياطة، تخيط فستانا لها. عندما رفعت رأسها وشاهدت ابنتها وهي في أحلى أناقة، وأبهى منظر لم تره من قبل، اندهشت لهذا المشهد، سألتها:

- إلى أين أنت ذاهبة يا ابنتي؟

- تلعثم لسان «أحلام» وهي تحاول الردّ على سؤال والدتها:

- إني ذاهبة يا والدتي لحضور عيد ميلاد صديقتي شذى.

انتبهت «مريم» والدة «أحلام» إلى عقارب الساعة، إذ كانت تشير إلى الثامنة مساء فسألتها:

- أتدرين كم الساعة الآن، متى ستعودين؟

- حين ينتهي الحفل سأعود.

كانت الدهشة تخرس لسان الأم، انتابتها شكوك في أمر ابنتها «أحلام» التي لم يسبق لها أن قبلت دعوة، تبقى ساهرة من خلالها إلى وقت متأخر في الليل.

غادرت «أحلام» مسرعة إلى الشارع تبحث عن وسيلة نقل تقلها إلى حبيبها، وبداخلها تعتلج عبارات التأنيب واللوم عن هذا التصرف الغريب عنها، إنه الكذب، يا إلهي إنها أقبح صفة، كنت أكره مستعملها، سامحني يا رب.

وما هي إلا ثوان معدودة حتى كانت «أحلام» تقف أمام عشيقها الذي حطّمت من أجله كل القيود والأعراف، مدّ يده إليها ليصافحها، فأحست من خلالها بدفء غريب سرى في جسدها كله، إحساس غريب شعرت به «أحلام» هذه الليلة. إنها المغامرة، بدأت تلعب أطوارها في حياة هذه الشابة.

جلس الاثنان على مائدة العشاء، بينما كانت موسيقى حالمة تنبعث من جنبات المطعم، لأنها أنغام وأضواء الشموع الرومانسية التي زادت اللقاء حميمية، بادرها «صلاح» بالسؤال:

- هل أنت سعيدة بوجودك معي هنا؟

- كل السعادة.

وقف النادل ليقدم لهما ورقة أنواع الوجبات، فوقع اختيار «صلاح» على وجبة السمك، أما «أحلام» فقد فضلت أكلة الدجاج والخضر المسلوقة.

ساد صمت أثناء الأكل، قطعه «صلاح» مستهلا حديثه عن مدى استعداد «أحلام» للامتحانات المقبلة، فكان ردّها كل الاستعداد. شعر «صلاح» بارتياح وكأنه أزاح عبئا ثقيلا عن كاهله، ولحظة تلو الأخرى كان «صلاح» يسرق النظر إلى «أحلام» وهي تمسك بين أناملها الشوكة والسكين، تحاول من خلالها تقطيع الدجاج، إلا أن محاولاتها باءت بالفشل، لإحساسها بالخجل من تجربة هذه اللحظات، التي لم يسبق لها خوضها، أن تجالس شخصا غريبا عن محيطها في وقت متأخر من الليل، أحس «صلاح» بصعوبة الموقف المحرج الذي تخوضه حبيبته، فما كان منه إلا أن بادرها بالسؤال:

- أراك لا تقبلين على أكل ما في صحنك؟

أسدلت «أحلام» جفونها وهي تنظر إلى الصحن أمامها دون أن تجد مبررا للجواب على سؤاله، سوى أنها حاولت أن تعيد الكرة مرة أخرى دون أن ترفع عيونها إليه. وفي هذه المرة أفلحت «أحلام» في التهام جزء يسير من الدجاج الموجود أمامها محاولةً إقناع «صلاح» أن كل شيء يمر عاديا بالنسبة إليها.

كاتبة من المغرب

انتظار

عبدالرزاق بادي

نصر وردر

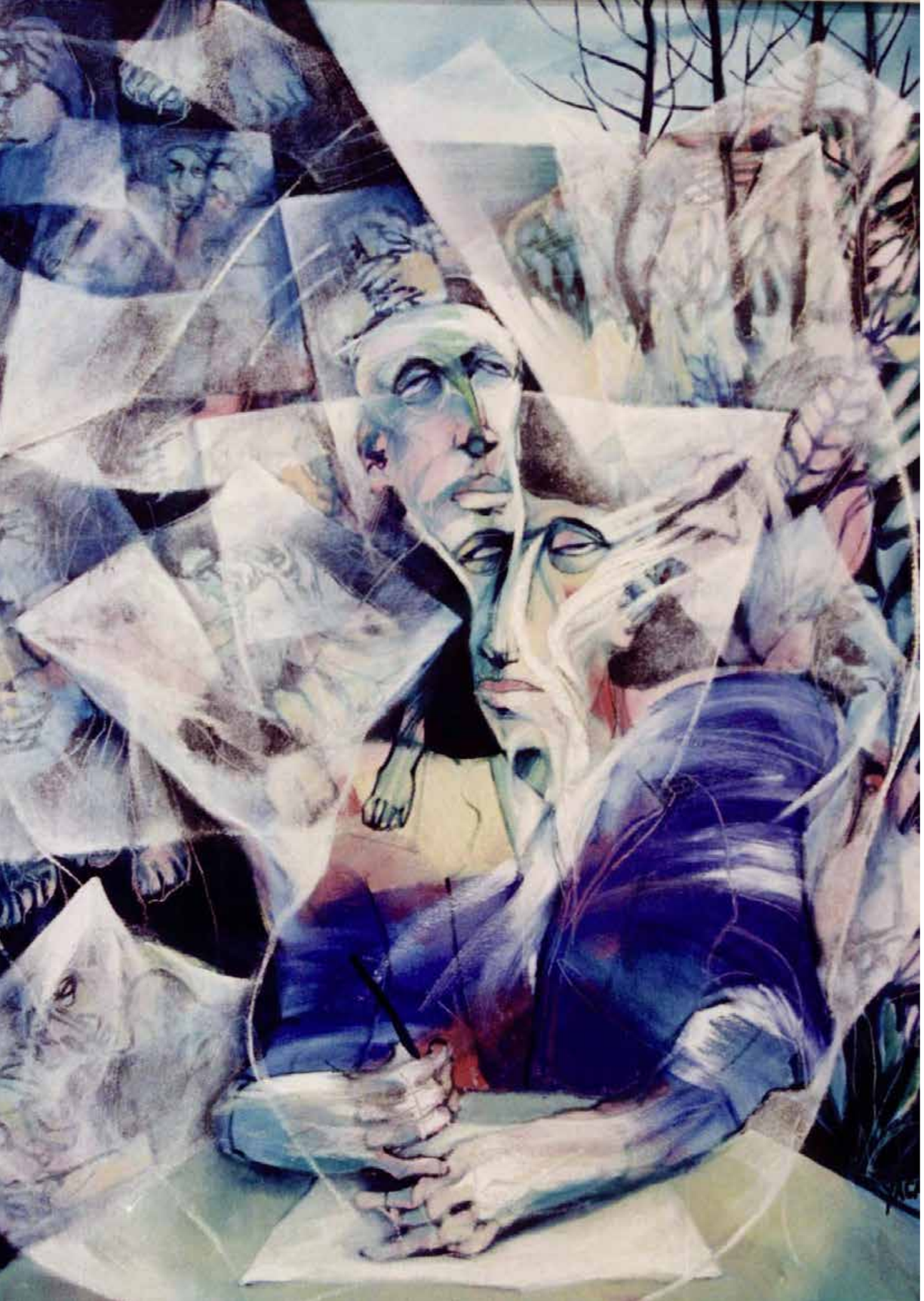

سعد بكر

المعبر الضيق الذي يفضي إلى الوادي يلتوي نزولا. رائحة الزان تحت المطر تبعث في الروح فرحا عميقا، لا يمكن الوصول إلى مصدره، فقط هو يتأرجح دونما سبب، الناصية الحجرية تمتد نزولا على طول المجرى. هي بعينها الفاحصة الدقيقة تتحسس الجمال، تتعقبه بالزوايا والوهاد المحيطة، تبحث في شغف عمّا يمكن أن يكون صورة متفردة، مختلفة لا تراها كل العيون، الحدقة على العدسة لا تطرف، راحة اليد تزيح خصلة تتمرد عن تصفيفة الشعر. القلب ينبض في هدوء كي لا يفسد نقاء الصورة.

بخطى وئيدة تنزل الدرج، الطريق للأسفل طويلة، الحمل على رأسها ثقيل والضغط على الرقبة لا يطاق، الألم يسري عبر الظهر المتعب من رحلة الحياة الطويلة، العجوز لا تتوقف لكنها تتحرّك في بطء شديد، لا تسابق الزمن فهي تعرفه لا يتوقف لأيّ كان، لكنها موقنة أنها ستصل إلى كوخها عند طرف الوادي في آخر المطاف، ملامح الوجه المتعبة، أخاديد الزمن على صفحته تبدو كأن أنامل فنان تجسّدها بألوانه، عينها مطفأة، لون الرماد القابع في عمق نظرتها تبدو منه كأنها كفّت عن متعة النور.

قبل أن تضغط زر الآلة وتلتقط صورة لاحظت ظل العجوز ينحدر عن أقدامها، تبتعد الأنامل في هدوء، تترقّب دخولها مجال العدسة حتى تلتقط ما تسرّب في نطاق الرؤية، تتحسس بالعين الثانية خطواتها المتأنية، الهادئة.. الزمن لم يكن مهما ولا حرارة الشمس المسلطة على رأسها، ولا العرق المناسب على ملامح الوجه، ولا خصلة الشعر العنيدة.. ما كان يهمّ في ذاك الزمن الهارب من عقاربه أن يتوسّط خيال العجوز مرمى العدسة.. لكنها تتوقف فجأة ولا تكمل رحلتها لتصبح هدفا، تهدأ الأرجل المتشققة، المتعبة، المنتعلة خفها المهترئ، لم يكن وقتا للراحة، إنما كان هروبا صريحا من دخول مجال الصورة، لتنتهي اللحظة وتختلف الدروب ويمضي كل إلى هدفه في صمت.

كاتب من الجزائر

جناح لثغاء الأبجدية

عبدالرزاق بوكبة

- أ-

تضحك، وقد تذكّرتَ النّساء يغسلن الصّوف في الوادي

الزّمان: 15 مارس 1977.

المكان: وادي أولاد جحيش، حيث جفنة حجرية تسَعُ ثوراً.

تذكّرتَ ذلك من قرينةٍ تحتفظ بها في رأسك: يا له من محظوظ ابنُ عمّك موسى! في المدينة يدرس/في المدينة يعيش! وفي ذلك الربيع جاء قرية أولاد جحيش يتذوّق العطلة. قليلًا ما كنتَ تحلم بأن تكون غيرَك، ومع موسى عندما يجيء، كنتَ تحلم بأن تكونه: أمير في كلّ بال، والبالُ مرتاح.

في بال الرّجال: أبوك رجل، والشّوق إليه كبير يا موسى.

في بال النساء: أمّك امرأ ة، والشّوق إليها كبير يا موسى.

في بال الصّبايا: ليتنا نستطيع أن نقول لك: أنت ابنُ رجل وامرأة فعلاً يا موسى.

في بال الرّاوي: كنتُ أحسّ بالنّار تأكل قلبي. هل كنت سأبدو ابنَ رجل وامرأة فعلاً لو أنا ذهبتُ إلى المدينة؟ النّساء كثيرات والصّبايا كثيرات، وسوف لن يربطنني إلّا بالنّعجة والعنزة والبقرة!

في الأسبوع الفارط، قرّر أبي أن يمنعني من العودة إلى المدرسة، بعد عطلة الرّبيع، لأرعى الثلاث. قال «أختك كبرت، ولا بدّ أن تخشّ إلى الدّار».

كانت نهايةَ أسبوع قاسيةً عليّ. بكيت وأنا أمسح السّبورة لآخر مرّة بأمر من المعلّم، فتهيّأ لي أنّ الحروف حيوانات في طريقها إلى الزّرائب.

الألف: كبش

الباء: نعجة

الجيم: خروف

الدّال: جدْي

الواو: بقرة الحليب المدلّلة.

في رمشة عين، استجبتُ لصوت المعلّم «امسحْ»، وكأنني ذبحتُ كلّ الزريبة، فلم أترك إلا تاريخ المجزرة في أعلى السبّورة، وقد تحدّى قامتي: 15 مارس 1977.

عند العودة: سألت عن أمّي، فقيل لي إنها في وادي أولاد جحيش تغسل الصّوف.

هرعتُ إلى الوادي: ثلاث نساء يتولّين الخشين من العمل في الجفنة الحجرية/ثلاث صبايا يقطفن الجهد براحة كبيرة، بأن يضعن الصّوف على الأعواد تقطر، وثلاث عجائزَ فقدن الأعوامَ والأزواجَ، يحرسن الشّرف تحت زيتونة برية فوق المنبع.

تهاويتُ على ظهر أمّي باكياً: أمّي.. لقد ذبحت النعاج، [كنت أقصد الحروف]. تحجّرتْ يداها كأنهما جزء من الجفنة. تصلّب ظهرُها كأنه جزء من الصّخرة، وفقدتِ الكلمات. توقفت الصّبايا قبل أن يضعن الصّوف على الأعواد تقطر، فبدين مثل أرانبَ تنتف أوبارها في غار الولادة. نادت الجدّة من أعلى المنبع:

- الولهي.. ماذا صار؟!

تركتُ ظهر أمي الحجريّ، وجريت إليها أطلب حضناً أدفأ للبكاء: لقد ذبحتُ النعاج يا جدتي،[كنت أقصد الحروف أيضاً].

سحبتْ حضنها إلى الخلف، سحبتْ يدَها إلى أعلى، وأشعلتني بكفٍّ أسقطني على الأرض في هيئة من يريد أن يسجد، ودم أنفي يقطر بين يدي. تذكّرتُ كيف ذبحت الحرف «ج» بحقد صدئ على السّبورة، ثم فطنت إلى أن جدّتي لم تنتبهْ إلى «الانزياح»، فشرعتُ أضحك كمن حدّثه العيد بن السّلامي ضحّاك القرية.

انحنتْ عليّ تظنّ أنني فقدت عقلي: لا عليك يا ولدي، انْسَ أمر النعاج واذهب لتقرأ حروفك. أنت على الأقلّ ذبحت النعاج، سيأتي وقت يذبح فيه ابنُ العمّ ابنَ عمّه.

- ب-

تبكي وقد تذكّرتَ الشّرطة يعلقون قوائم الصّاعدين إلى الجبل على المدخل.

الزّمان: 15 أفريل 1994

المكان: مدخل الجامعة حيث تدرس.

أحد المطلوبين: ابن عمّك موسى.

عبدالله بولا

التهمة: القضاء على قرية أولاد جحيش.

الحالة: مددتَ يدك إلى الورقة المعلّقة، خطفتها كمن يخطف منديلاً من اللّهب، انهرت على الأرض في هيئة من يريد أن يسجد، ودم أنفك يقطر على المنشور، فتبدّدتْ لك الحروف عباداً:

الألف: طفل صغير

الباء: أمّ حامل

الجيم: شيخ عجوز

الواو: عروس الضّيف القادم.

بحثتَ عن موسى في الحروف، فرأيتَه يراك كبشاً!

كاتب من الجزائر

اللحن

عبداللطيف النيلة

ما زلت لحد الآن، رغم مرور أكثر من خمس سنوات، ألهث خلف اللحن الذي جرفتني إيقاعاته المتدفقة من الغرفة الموصدة، في تلك الليلة المذهلة.

كان الكمان قد استعصى على أناملي طيلة شهور، حتى استبد بي اليقين بأن قريحتي الموسيقية قد أضحت جدباء، وغمرني شعور طاغ بالقلق. «فلأغير الجو لعل وعسى..»، قلت لنفسي. لم أشعر إلا وأنا أنهب المسافات باتجاه منتجع أوريكا.. ركنت سيارتي بجانب الطريق الإسفلتي. نزلت عبر درب مترب إلى ضفة النهر المعشوشبة، وعبرت جسرا خشبيا إلى الضفة الأخرى حيث ينتصب منزل عتيق من حجر. كان الماء الرقراق يشف عن أحجار صغيرة بألوان مختلفة ترقد في القاع. رحت أطوف حول المنزل. كان بسيطا وجميلا ومهيبا بجدرانه العالية ولبناته الحجرية العارية وأبوابه ونوافذه ذات الأقواس. شبابيك نوافذه من حديد، شُكلت بمهارة في صورة قلوب وأزهار متناظرة.

مشرعا كان بابه الحديدي. وقفت بالعتبة واشرأببت برأسي أتطلع إلى الداخل صائحا:

«هل من أحد هنا؟».

كررت النداء مرات، فلم أحظ بردّ. التقطت عيناي صحنا فسيحا تزين قلبه نافورة ينساب الماء من فمها المعدني، وفي كل زاوية من زواياه شجرة وارفة الظلال، وعلى جوانبه تقوم غرف بأبواب ونوافذ من خشب منقوش. دفعني الجمال المنبعث من داخل المنزل إلى الخطو باتجاه النافورة، وحين كنت أهم بغطس يدي في ماء حوضها، باغتني صوت انبعث من ورائي:

«سيدي، هل تبحث عن بيت للكراء؟».

التفتُّ فوقع نظري على شاب يرتدي ثيابا حال لونها: كنزة صوف وسروالا قصيرا. «من فضلك، هل تعرف صاحب هذا المنزل؟»، سألته.

«نعم، إنه خالي موسى».

«هل يؤجره؟».

«نعم، لكن في النهار فقط، أما في الليل فلا».

«وما المانع من تأجيره ليلا؟».

أشار بيده إلى الباب المشرع، وقال:

«قد يغزو السيل الوادي على حين غفلة، فيجتاح كل ما يعترض طريقه على الضفتين. يستطيع المرء أن يتصرف نهارا، لكن الأمر متعذر بالليل؛ تصور نفسك غارقا في النوم ثم دهمك السيل قويا جارفا..».

شعرت بالخوف، لكني قلت له مركزا عينيّ في عينيه:

«لديّ رغبة أكيدة في تأجير منزلكم لأسبوع، ليل نهار. فماذا قلت؟».

«لدينا منزل للكراء في الأعلى، حيث ركنت سيارتك».

دنوت من نافذة إحدى الغرف، وهو يتبعني، وتطلعت من خلف قضبانها الحديدية إلى الخارج. «لا أبغي منزلا غير هذا»، أجبته فيما أنا أمتع النظر، تحت شمس الزوال، بغابة أشجار الصفصاف النابتة وراء المنزل. ثم التفتُّ نحوه لأرى رد فعله. للحظة بدت الحيرة على وجهه، ثم قال بعد أن ألقى نظرة إلى الخلف:

«هناك أمر آخر أرجو أن يبقى سرا بيننا».

«سرك في بئر».

«البيت مسكون!»، قال بنبرة واثقة.

«هل تقصد ال..؟».

«نعم، العفاريت والأشباح».

تحاشيت التعليق على كلامه، واكتفيت بالقول:

«رغم ذلك أريده».

«سأحدث خالي موسى في الأمر»، أجابني وانطلق خارجا من المنزل.

وقفت بعتبة الباب أتابعه يعبر الجسر الخشبي بخفة ويقفز إلى الضفة ليصعد الدرب المترب إلى المنزل الآخر، ثم رفعت رأسي إلى السماء الصافية الزرقة، وجلت بنظري في ما حولي...

انتابتني رغبة في العزف، فانطلقت عبر نفس الطريق التي عبرها الشاب. تناولت حقيبة الكمان من فوق المقعد الخلفي للسيارة، ورجعت من حيث أتيت. دخلت إلى صحن المنزل، اقتعدت كرسيا تحت شجرة خوخ بإحدى الزوايا، ثم أخرجت الكمان من الحقيبة، سوّيت أوتاره، وشرعت في مراودة الموسيقى عن نفسها. استغرقت في العزف بشغف حتى أني لم أنتبه إلى قدوم خال الشاب، حين وقف على بعد خطوات مني يصغي إلى النغم الشجي الذي أرسلته حنجرة الكمان. أخذ يصفق بحرارة لما أنهيت العزف.

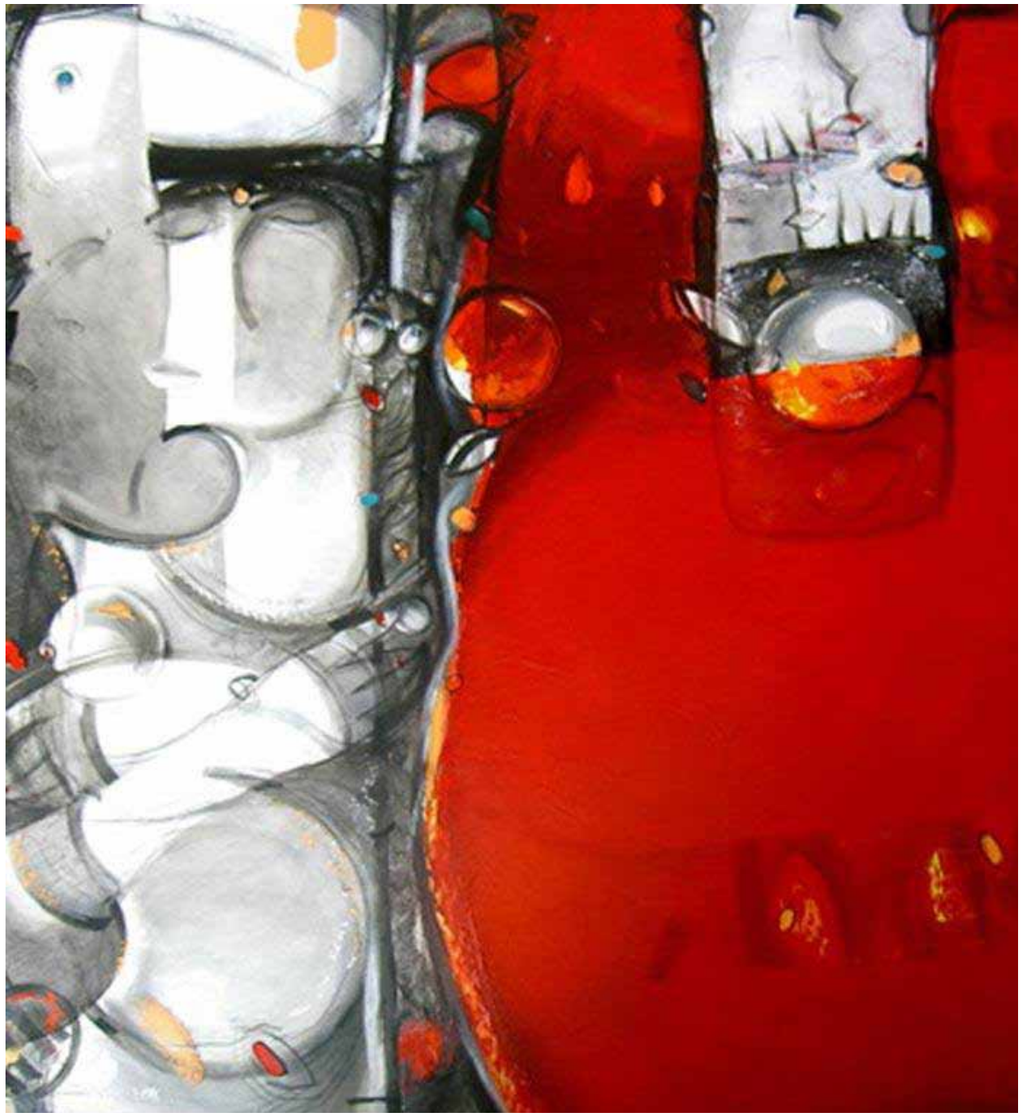

نصر وزور

«أنا موسى صاحب المنزل»، قال لي قبل أن يضيف:

«ما أبرع عزفك، سيدي!».

شكرته وامتدحت معمار المنزل.

«في الواقع، لا أؤجر هذا 'الرياض' إلا للأشخاص المميزين مثلك»، رد عليّ وهو يحدق في الكمان الذي كان بين يديّ.

«العفو سيدي، هل أفهم من هذا أنك..».

«بكل تأكيد. لن نجد من هو أفضل منك»، قاطعني.

اتفقنا على السعر، وأعطيته تسبيقا، ثم ساعدني الشاب على حمل حقائبي إلى غرفة مفروشة بذوق رفيع، تطلّ عبر نافذتين على مشهد النهر..

نادمت الموسيقى طوال ليال، قبل أن يحدث ما أذهلني. في النهار أستمتع بوقتي، متنزها في ربوع أوريكا، مستغلا دفء الجو للسباحة، متأملا الطبيعة الخلابة. سلسلتان جبليتان تتقابلان، غير أنهما تلتقيان عند موضع يباشر النهر انطلاقه من سفحه، بضفتين

غير متساويتي المساحة، إحداهما ضيقة، والأخرى رحيبة إلى حد أن تتصل بغابة تنبسط لأميال عديدة. والماء يجري، مُخَرخِرا، ملتمعا، قادما من القمم الشامخة حيث تذوب الثلوج، وذاهبا إلى حيث لا أدري. ومنذ هبوط الليل حتى وقت متأخر منه، أتفرغ لترويض أوتار الكمان، مروحا عن نفسي، من حين لآخر، بالاستمتاع بروائع الموسيقى.

في الليلة السادسة، أحسست أن الكمان قد بدأ يطاوع أصابعي أكثر من الليالي الفارطة. وجدت نفسي في البداية أنساق وراء الألحان التي تحفظها ذاكرتي، لكني لم ألبث أن انعتقت من كل لحن جاهز محاولا اجتراح لحن جديد. حاولت مرارا، على امتداد ثلاث ساعات، دون أن أشعر بالرضا عن أيّ لحن، غير أني كنت أزداد حماسا مع كل محاولة. وفي اللحظة التي شرعت فيها أشق طريق لحن مُغْر، خُيّل إليّ أني أسمع لحنا آخر، بديعا، يصلني خافتا، كما لو كان طيف لحن. أخذ يداعب أذنيّ بهمس حيناً، ويختفي حيناً آخر، فيما أنا أجاهد لبلورة لحني واجف القلب. وأتت عليّ لحظة امتزج فيها اللحنان من غير أن أدرك كيف جرى ذلك الامتزاج، لألفي أصابعي تعزف نفس الموسيقى التي تتناهى إلى مسمعي، بل إن هذه الموسيقى راحت تعلو، رويدا رويدا، حتى ميزت أنها نابعة من بيانو يربض قريبا من غرفتي. تخطيت عتبة الغرفة باحثا بعيني عن البيانو، مواصلا السير في الدرب الفاتن الذي شقه في وَخِهِ كماني. بسرعة اكتشفت أن اللحن يصدر من الغرفة المجاورة التي كانت موصدة بإحكام. روعة اللحن، التي كانت تزداد ثانية بعد أخرى، هوّنت عليّ عجزي عن رؤية الأصابع التي تفجر السحر من مفاتيح العاج والأبنوس، بل إنها لاشت موجات الخوف التي سرت في أحشائي لحظة وعيت أن موسيقى غريبة تقتحم عليّ غرفتي. انساب القوس فوق أوتار الكمان، ذاهبا إلى اليمين راجعا إلى اليسار، مدفوعا بقوة اللحن الساحر. كنت تحت ضوء القمر، أعزف على الكمان، واقفا قبالة الماء المنبجس من النافورة، والبيانو اللامرئي يقودني، مثل دليل، عبر مناطق أنغامٍ بكْرٍ هزتني من الأعماق، حتى خيل إليّ أني أحلق بأجنحة من موسيقى، «زاهدا فيما سيأتي، ناسيا ما قد مضى»...

على غير عادتي، استيقظت متأخرا. تناهى إليّ طرق على الباب لحظة كنت أغسل وجهي. كان الطارق موسى، قال إنه افتقدني هذا الصباح فجاء يطمئن عليّ. «تفضل بالدخول، لقد أتيت في الوقت المناسب»، قلت له وأنا أفسح له الطريق..

أشرت نحو الغرفة الموصدة، وسألته إن كان من الممكن أن يفتحها. بدا الاهتمام على وجهه، إلا أنه خلا من أيّ علامة استغراب. «لا مانع سيدي نجيب، لكن هل هناك شيء على غير ما يرام؟»، ردّ عليّ.

«أمر غريب حدث ليلة أمس»، التقطت أنفاسي قبل أن أردف: «دعني ألقي نظرة على الغرفة، وسأروي لك ما وقع».

«آمل أن يكون خيرا».

أخرج من جيب معطفه مفتاحا في حجم الإصبع، أداره في قفل الباب دورتين، ثم أخذ يحرّك يد المزلاج الحديدي الصدئ إلى أعلى وأسفل، فيما المزلاج يصدر صريرا مزعجا، حتى انفتح الباب.. شرّعه على مصراعيه، وسارع إلى فتح نوافذه المطلة على النهر من ناحيتين. بدد ضوء النهار عتمة الغرفة، وطرد تيارُ الهواء الرائحة التي كانت محبوسة بين جدرانها. في أقصى الغرفة، من جهة اليمين، كانت تقوم مكتبة من خشب، فارغة إلا من بضعة كتب ودفاتر نوتات غريبة الشكل، كما لو أنها جفّت بعد أن غُطست في الماء، وبالقرب من زاويتها اليمنى مكتب من نفس الخشب. في الوسط، تجثم أريكة واسعة متقادمة، وأمامها مائدة بيضاوية الشكل. أما في أقصى الغرفة، من جهة اليسار، فتواجه النظرَ مدفأةٌ بموقدها حطبٌ خامد، وعلى بعد خطوات منها، يستوي بيانو من النوع الكلاسيكي. هرعت نحوه بمجرد أن وقعت عليه عيناي. درت حوله أتفحصه باهتمام مشحون بالدهشة. هممت بلمسه بأصابعي، فانتابني التردد. كان خشبه بلون أسود فَقَدَ بريقه، وقد شابت الخدوش سطح غطائه، فيما الصدأ قد غلّف بدّالاته. وانتني الجرأة، فرفعت عن مفاتيحه غطاءها، وأجريت عليها أصابعي، فانبعث نغم بإيقاع سريع. والتفتّ نحو موسى أسأله:

«لمن هذا البيانو؟».

«أخبرني أولاً بما وقع لك، وسأجيب عن أسئلتك كلها».

اقتعدنا الأريكة، ورويت له بالتفصيل وقائع حادثة الأمس.

«ما أعجب هذا!»، عقّب في دهشة، ثم أضاف «مؤجرون قبلك سمعوا سيمفونية البيانو، لكنك وحدك كنت مشاركا في عزفها».

أشعل سيجارة، وسحب منها نفسا، وتابع:

«هذا هو بيانو الموسيقار لوساك هوسمان القادم من النمسا. لقد أمضى واحدا وعشرين عاما على ضفة النهر».

«هذا مثيرا».

«كان يسكن هنا في 'رياضه' هذا».

«وأين هو الآن؟».

شردت عيناه لثانية، ثم أجاب:

«يبدو أن الموسيقى ابتلعته!».

«كيف؟».

«اسمع يا سيدي، ربما سترميني بالتخريف لو رويت لك ما جرى، لذلك سأوكل هذه المهمة إلى كاتب نمساوي أرَخ للحادثة، بعد أن بحث واستقصى. هو أيضا داهمته سيمفونية البيانو ليلة بات في هذه الغرفة. لقد أرسل إليّ ترجمة فرنسية لكتابه، سآتيك بها».

خطا باتجاه الباب، ثم توقف فجأة والتفت إليّ:

«قل لي، يا سيدي نجيب، هل تستطيع تذكّر اللحن الذي عزفت بالأمس؟»

«ما زالت روحي مسكونة بأنغامه، وربما أحتاج إلى عون البيانو كَيْ أستعيده».

مساء، رقدت على السرير أقرأ الفصل الذي خصّصه كاتب يدعى هنري فيلدر للموسيقار لوساك هوسمان.

***

مقتطف من كتاب «أنغام عالقة بالهواء»:

«قدم لوساك هوسمان، في جولة سياحية، إلى مدينة مراكش ونواحيها، رفقة صديقيه الحميمين: فليك وهوش. لما وطئت أقدامهم بلدة أوريكا (لا بد أن هذا الاسم الأمازيغي قد ذكره بصيحة أرخميدس الشهيرة: وجدتها! وجدتها!)، لاحظ صديقاه أنه لم ينشغل مثلهما بالتقاط صور للمناظر الطبيعية الفاتنة التي يزخر بها المكان. بدا ذاهلا وهو يجيل نظراته في النهر بضفتيه والجبال المحيطة به وأشجار الجوز والخوخ والمشمش والصفصاف والخروب.. حتى أنه لم يفتأ يصيح كالمجنون، من دهشة لأخرى «هنا سأقبض عليها». وحين سأله فليك «ماذا تعني»، اكتفى بالنقر بأصابع يديه على الهواء كمن يعزف على مفاتيح البيانو. في الصباح، وهم يفطرون في مقهى النزل الذي باتوا فيه ليلتهم، طفق يسرد عليهما تفاصيل الجولة التي قام بها في الصباح الباكر. وفيما هما يصغيان لكلامه الذي كان يلقيه بحماس لم يعهداه فيه من قبل، فاجأهما بقرار الإقامة في أوريكا. كان تعبير وجهه والألق الملتمع في عينيه يرشحان برغبة قوية في خوض عزلة على ضفة النهر. وعندما ذكّره هوش بالعرض الموسيقي الذي اتفق بشأنه مع مسرح النجوم بالعاصمة فيينا، لم يبد عليه أدنى تردّد، إذ أحدث بشفتيه ذلك الصوت الذي يعني: طز.

«ولارا؟»، سأله فليك.

أومض الأسى في عينيه وهو يجيب:

«فلتلحق بي إلى هذا السحر إن كان قلبها ما زال ينبض».

... لم تنطلق بهما السيارة مبتعدة، وهما يبادلانه إشارة الوداع، إلا بعد أن اشترى منزلا قديما مشيّدا فوق قطعة أرض تنتمي إلى الضفة الأخرى، ضفة النهر المترامية بعيدا عن الطريق الإسفلتي الضيق المتعرج، وقد تركا بصحبته رجلا من أوريكا يدعى موسى. تطوّع موسى لخدمة هوسمان، فنسّق مع فليك وهوش لجلب أشيائه الخاصة من مسقط رأسه «اشتاير»: بيانوه الخاص وخزانته الصغيرة التي تضم كتبا من كل لون وأشرطة موسيقى لكبار الموسيقيين العالميين. ثم أشرف على هدم المنزل القديم وبناء آخر على أنقاضه، عندما اشتكى هوسمان من غرفه الضيقة وتصميمه العديم الجمال، ورغب في تشييد منزل على طراز «رياضات» مراكش التي قُدّر له أن يدخل بعضها ويطوف بانبهار في أرجائها. خلال الشهور الأولى بأوريكا كان يعزف قليلا، لكن بمجرد أن قطن في «الرياض» أخذ جلوسه إلى البيانو يزداد يوما تلو الآخر. كان يأذن لخادمه، عند منتصف الليل، بالانصراف إلى غرفته بالدور العلوي. فموسى يخشى مداهمة النهر، إلى درجة أنه حذّر سيده من السكن على ضفته، ولما لم يلق منه أذنا صاغية ترجّاه أن يقيما في الدور العلوي الأكثر أمانا، لكن هوسمان اختار غرفة سفلية تطل نوافذها مباشرة على النهر، وكان يردّد على مسمع موسى، في كل مرة «دع النهر على راحته، فليغضب كما يشاء». وفي إحدى رسائله إلى لارا كتب «أيّ تجربة أعمق من أن تطل من نافذة على نهر ثائر هادر، وتنظر إليه وجها لوجه وهو يندفع صوبك يروم أن يجرفك، أن يأخذك معه غصبا؟ أيّ موسيقى ستندلع من بين ضلوع البيانو بعد أن تكون قد أفلتّ من بين فكّي هذا النهر؟».

يقفل موسى رتاج الباب ومصاريع النوافذ، فتتسلل نغمات البيانو إلى أذنيه -كأنما من تحت الباب- واضحة في الهدوء المطبق على المنزل وإن كانت خافتة. أحيانا كان يطير النوم عن جفنيه في الهزيع الأخير من الليل، فيكتشف أن سيده لا يزال يضرب على مفاتيح البيانو كما لو كان مسكونا بأرواح.

في ذلك اليوم، جلس هوسمان، وقت الضحى، على حافة الضفة، ودلّى رجليه في ماء النهر الذي لم يتخطّ ركبتيه، وانغمس في التأمل طويلا. كانت الريح تُموّج الماء الجاري وتضاعف خريره، وتهبّ على الأشجار فتتمايل أغصانها المحملة بالأوراق الخضراء وينبعث حفيفها. لقد كتب إلى لارا -التي لم ترد عليه قط- في رسالة أخرى «تمتلئ روحي بالموسيقى التي تعزفها الطبيعة، عبر هارمونيا ساحرة من الأشكال والألوان والأصوات.. فأحس بإجلال للموسيقار الكبير».

ظل شارد البال وهو يتناول وجبة الغداء، كما لو كان يواصل الاستماع إلى سيمفونية الطبيعة. غلبه النوم حين كان مسترخيا، بعد الغداء، فوق أريكة غرفة المكتبة. لم يستيقظ إلا بعد العصر بقليل، فشرب قهوة سوداء جالسا إلى طاولة وسط الصحن، مدخّنا غليونه، وتابع أغصان الأشجار وهي تتمايل وترسل حفيفها، بينما أومض البرق وقصف الرعد قبل أن يبدأ المطر هطوله. وبمجرّد أن شرب آخر جرعة من فنجان قهوته، وجّه إلى موسى أمرا فاجأه:

«أخرج البيانو إلى الصحن».

تسلل النهر إلى «الرياض»، ليلتئذ، واختبر موسى تجربة اختلط فيها الهول بالروعة، وهو مقيد اليدين إلى قضبان الدرابزين المشرف على الصحن. ارتقى به سحر الموسيقى إلى ذروة منحته انتشاء أنساه هول المياه المتلاطمة التي طفقت تطوف حول النافورة، ثم أسلم أجفانه لنوم عميق.. ولم يستيقظ إلا على أصوات تلغط من حوله، ورائحة شاي منعنع تغزو خياشيمه. فتح عينيه، فرأى نفسه راقدا فوق سرير، والغرفة غاصة بأفراد عائلته، وخاله الأكبر سنّا متربع على الأرض وبين يديه صينية بها إبريق فضي من الحجم الكبير وأكواب من زجاج. كان يسكب الشاي في الأكواب، فتوزعها أمه على الحاضرين...

علم أنهم بادروا إلى إنقاذه عندما سكن ثوران النهر وانحسرت المياه، وقد عثروا، قرب جذع شجرة التفاح، على جثة رجل أشقر،

mazen boukai

تعزف موسى في وجهه على ذلك النمساوي المجهول الذي تسلل إلى «الرياض» في ذلك المساء، لاختلاس أوراق الموسيقار، وربما لاغتياله. لكنهم لم يجدوا أثرا لهوسمان.

وفي اليوم التالي، غادر الفراش، رغم اعتراض أمه، ونزل الجبل رفقة بعض أقاربه لإلقاء نظرة على «الرياض». كان الصحن ملطخا بالطّمي وقد تبعثرت فيه بقايا كتب وأوراق ودفاتر نوتات، والبيانو ساقطا على الأرض، والأشجار الأربعة المعرشة في الزوايا محطمة الأغصان، وقد ارتمت الطاولة وكرسيها ومقعد البيانو وسط الغرفة المطلة على غابة أشجار الصفصاف الممتدة خلف «الرياض». أما في غرفة المكتبة المطلة على النهر، فقد كان المكتب والأريكة مقلوبان رأسا على عقب، وقد غيرا موضعيهما، والمكتبة الخشبية شبه خالية من محتوياتها، والجدران عارية، وثمة كتب مشوّهة بالماء ولوحات فنية تتناثر هنا وهناك..

يسترجع موسى ما حدث، كما لو كان حلما.

«أخرج البيانو إلى الصحن»، يأمره سيده.

يضغط موسى على زر سقيفة الصحن إلى أن تختفي السماء وينقطع هطول المطر، ويوصد مصاريع النوافذ. ثم يرفع مكابح أرجل البيانو إلى أعلى، ويدفعه على مهل باتجاه الباب، وهوسمان يلاحقه بعينين تومضان بالخوف، كما لو أنه يدفع بيضا على عجلات.

«ببطء ورفق يا موسى».

يفترّ ثغره عن ابتسامة مفعمة بالرضا وهو يرى موسى يُعدّل وضع البيانو، بحنوّ أم على طفلها، ليصبح مواجها لمنظر المياه التي تنبجس من فم النافورة وتنساب نازلة لتملأ حوضها الحجري. يرفع الغطاء الخشبي الصقيل عن الأوتار الفولاذية ويثبّته، يأتيه موسى بمقعد البيانو المنجد، فيجلس ويبدأ العزف، فتتعالى الموسيقى لتغطّي تدريجيا على صوت نقرات المطر على سطح السقيفة.

يصعد موسى إلى المطبخ بالدور العلوي لإعداد العشاء. وبينما هو منهمك في تقشير البصل، يحسّ فجأة بملمس معدن بارد في قفاه، وصوت خشن يأمره، بلغة سيده، أن يرفع يديه فوق رأسه. حين يستدير يجد رجلا أشقر يشهر في وجهه مسدسا. يقوده خارج المطبخ، ويختم بلصاق على فمه، ويصفد يديه وراء ظهره، ويجلسه بمحاذاة إفريز الدرابزين قبل أن يقيده إلى قضبانه الحديدية. الموسيقى تصدح منداحة في أرجاء «الرياض»، وهوسمان منغمر كليا في الضرب على مفاتيح البيانو.

ولأنّ الموسيقى راحت تعلو أكثر فأكثر، فإن موسى لم يستطع التقاط وقع خطوات الغريب، ليعرف هل هو بصدد النزول إلى الدور السفلي أو الصعود إلى السطح، أم أنه يتجوّل في غرف الدور العلوي. يأخذ قلبه في الخفقان بشدة، شاعرا بتعثر أنفاسه. اللصاق الذي يكمّم فمه، يجهض سعيه إلى إصدار صوت ينبه سيده إلى الخطر القادم. هوسمان بسنواته التسعة والخمسين وشعر رأسه ولحيته المجللين ببياض الشيخوخة، مستغرق في النقر على مفاتيح البيانو، كمن يؤدّي صلاة في خشوع تام. لا يشعر موسى إلا وهو يجد نفسه منجذبا إلى موسيقى البيانو التي كانت تختلف، في كل لمسة أصابع، مع أيّ موسيقى سمع يوما سيده يعزفها، بل مع أيّ موسيقى استمتع يوما بسماعها. عندئذ، يلمح الرجل الأشقر يقف بالقرب من إحدى السواري، وهو يتقلّد مسدسه الأسود بيد ويحمل دفاتر نوتات هوسمان باليد الأخرى. كان يرنو إلى الموسيقار مبهورا إلى حد أنه ترك فمه فاغرا ويديه متدليتين إلى جانبه.

من مكانه البارد خلف الدرابزين، يرى موسى ماء النهر يغمر الصحن تدريجيا، متسرّبا، دون شك، من بين قضبان باب «الرياض» وكواته المفتوحة، فيما سيده يعزف بانخطاف جليّ. لا تتوقف مياه النهر عن غزو الصحن، بل إنها تأخذ في الاندفاع بقوة، فيما أصابع هوسمان تنقر، في خفة ورشاقة، مفاتيح البيانو، ورأسه يهتز باتّساق مع إيقاع الموسيقى. تتسلق المياه قدمي هوسمان وبدّالات البيانو وعجلاته. لكن الموسيقار غارق بجماع كيانه في اجتراح هذه الموسيقى المختلفة التي لم تفتأ ترق وتعذب نقرة عقب نقرة. وبانسياب إيقاعي، تقفز الموسيقى إلى لحن راح يشتد شيئا فشيئا حتى غدا ثورانا يتجاوب مع هياج النهر وهطول المطر في الخارج. وحين يصطخب الصحن بالمياه، تُجنّ أصابع هوسمان وتبدأ في استخراج أنغام ساحرة من جوف البيانو، حيث تسكن مطارق تضرب الأوتار، أنغام كأنما يتضافر في نسج إيقاعاتها الرقة والقسوة، الهدوء والصخب، الشهوة والعفة، الغبطة والشجن، الحيرة والطمأنينة، الماء والنار.. يفقد موسى الإحساس بأنه مقتعد أرضا باردة، مغلولَ اليدين مكمّمَ الفم بلا حول ولا قوة. واقعاً تحت سحر اللحن، يرى موسى البيانو يطوف بهوسمان حول النافورة بسرعة جعلت المياه تدور صانعة دوامة تكبر دورة بعد دورة. يرتفع منسوب المياه، لكن البيانو والموسيقار يطفوان فوق قلب الدوامة. يصّاعد اللحن باطّراد مع ازدياد سرعة دوران المياه، حتى يبلغ الذروة، حيث لا يعود موسى يبصر غير طيف يدور بسرعة فائقة، فيما أصداء اللحن الساحر تنداح في الهواء، وتتردّد في دواخله. يشعر أنه خارج حدود المكان ومدار الزمان. يشعر بتجمع العمر كله في لحظة واحدة كثيفة عميقة مشحونة، تقذف به خارج نفسه وخارج العالم. يغمض جفنيه شاعرا بمتعة تأخذه إلى تخومها القصوى..».

***

قبل أن أغادر السرير، في الصباح، أشرق في ذاكرتي حلم رأيت فيه نفسي جالسا إلى بيانو لوساك هوسمان أوقّع بأصابع بارعة لحنا لا يقل سحرا عن اللحن الذي جرفتني إيقاعاته المتدفقة من الغرفة الموصدة، ليلة أمس. وألح عليّ السؤال:

«هل أسمَعَ البيانو مؤجري 'الرياض' اللحن نفسه؟».

كاتب من المغرب

مثل تفاحة مقضومة

عبدالهادي الفحيلي

لأحلامك أجنحة. تحلق بعيدا وترفع في وجهك إصبعها الوسطى وتقهقه. تسبقها إلى الفراش، إلى سرير انبعج من كثرة ما سجيت عليه جسدك المتآكل. تغلق عينيك وتغطي رأسك. صرت تكره الأحلام والسرير وكل شيء. كانت ترسم لك غدا مطرزا بالورود. لم تتفتح تلك الورود. تنام مبكرا حتى لا تلتقي أباك وتسمع زعيقه وهو يلعنك ويلعن هذا الجيل الذي لا ينفع ولا يضرّ مثل حليب الأتان. تلازم الفراش إلى وقت متأخر حتى تطمئن إلى مغادرته للبيت. تنظر إلى المرآة ولا تبتسم. وجهك الأصفر الذي هرب لحمه. شعرك الأشعث ولحيتك الكثة. تصرخ أمك في وجهك «احلق تلك الغابة!». تعطيك دراهم معدودات. لا تحلق شيئا. تدخن أربع سجائر وتوفر ما تبقى لسجائر أخريات. تتدحرج أيامك فارغة. باردة. تتسع من حولك وتحيلك إلى نقطة سوداء دقيقة لا ترى بالعين المجردة. تدخل المسجد الصغير الموجود في نهاية الزقاق. لم تكن تنتبه إليه في السابق. تنتبذ مكانا قصيا. تصلّي بضع ركعات وتتربّع على الحصير تستجدي شيئا معلقا في السماء. تطرد من رأسك ما تبقى من كلام كان يفتح لك أبواب جنان الأرض. أمك تقول لك «ادع الله ليفتح أمامك أبواب الرزق». دعوته في سرّك وعلانيتك. لم تنفتح أمامك ولو كوّة صغيرة! صرت تردد «لماذا يا الله؟ امنحني فقط مبلغا صغيرا من المال وامرأة!». ترفع رأسك نحو السماء وتقبل أطراف أصابعك العشرة وتضع يديك على صدرك وتتمتم. يقول الفقيه إن الله يحب العبد الملحاح. تدعو وتلحّ. تخبر نفسك أن الله كبير ومن المستحيل ألا يسمعك. تخرج من المسجد وتهيم على وجهك. تبحث عن الأبواب التي ستنفتح كما تقول أمك.

كنت لا تعرف لله مكانا. حتى عندما تسلمت من الجامعة تلك الورقة التي تثبت أنك كنت حالما ساذجا وأنت تملأ رأسك بالنظريات وبالأسماء وبالكلام الكبير، لم تشكره. شكرَتْه أمك وزغردت ورقصت. رقصت جاراتكم وزغردن وأكلن. مرّ عام ولم تطرق بابه. طرقت أبواب الحكومة. لم تنفتح. مرّ عامان. أربعة. عشرة. صغر الكلام في رأسك. حل محله كلام أمك: «الله كبير». الآن صرت تعرف أنه موجود في السماء. يتوارى.

تجلس في نفس المكان من الحديقة المهجورة على مقعد خشبي متهالك. تدخن نصف سيجارة بائتة بعيدا عن عيون ستتسع دهشة وحيرة. كيف لك أن تدخن؟ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له! تفلي أيامك باحثا عن ذكريات من زمن ولّى. عن ظل امرأة كانت تبتسم لك. في ركن من مقصف الكلية تجلسان. تبتسم وتحكي لك تفاصيل حياتها في بيت سعيد. عن أرتال المعجبين بجمالها وبجاذبيتها. تطلق شعرها ورائحتها وضحكاتها وحكايتها في وجهك ثم تذهب. تأتي في يوم آخر. تضحك وتحكي. وعندما ذهبَتْ آخر مرة تركتك تتمرغ في رغبتك القاتلة في ضمها وتقبيل فمها اللذيذ وتخليل شعرها المنساب على كتفيها مثل جدول أسود. لم تكن تحكي لها شيئا، كنت تستمع وتبتسم وتحترق. مرة أعطيتها ورقة كتبت فيها بعض الشعر ولم تقل شيئا. أخذتْها منك مندهشة ومرّرَت عينيها على السطور مبتسمة وقالت: «شكرا». طوتها ووضعتها في ستيانها. فرخَتْ وقلت في نفسك «على الأقل وضعت كلماتي على صدرها». في اليوم الموالي لم تخُض في موضوع الورقة. كنت تنتظر أن تضمك وتقبلك. لم تسألها. غرقْتَ في صمت عميق إلى أن ودّعتك وتتبعتها بناظريك متحسّرا. ذهَبَت عندما لملمتْ عزيمتَك المشتتة. كتبت لها عن حريقك. هي لم تكن تكتب. كانت تحكي. الآن تعض على شفتك السفلى متألما. يتفلّت جسدها من ذاكرتك المثقوبة. عندما تنفرد إلى نفسك في الظلام، تأخذها من تلافيف رأسك الغارق في الفراغ، تنفض عنها الغبار وتعزّيها. تلهثان. تتلاشيان. تعيدها إلى مكانها في الذاكرة وتنام سعيدا. أنت سعيد فقط في الظلام، وعندما يطلع نهارك تعود سيرتك الأولى ويعبس وجهك.

تلعنُ من قال «العمل هو المفتاح الأساسي لكل نجاح». كان شاعرا. الوغد! من المؤكد أنه كان يعمل وإلا ما قال ذلك. أنت لا تعمل فكيف ستنجح؟!

أبوك يصرخ دائما في وجهك «ابحث عن عمل. حتى الحمار يعمل». وأنت لست حمارا حتى تعمل. تقهقه في داخلك. ربما لو صرتَ حمارا لوجدتَ عملا. لوجدتَ أتانا تلد لك حميرا. كل ما يدبّ على الأرض على الله رزقه. قال الفقيه ذلك. أنت تدبّ على الأرض فأين رزقك؟ ورزق الفقيه من يتكفل به؟ هل الله أم الآخرون؟ يلبس ثيابا بيضاء ناصعة وكرشه مملوءة بالطعام ووجهه متورد. يتجشأ دائما. يعد الناس بأجساد لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. يفتح لهم

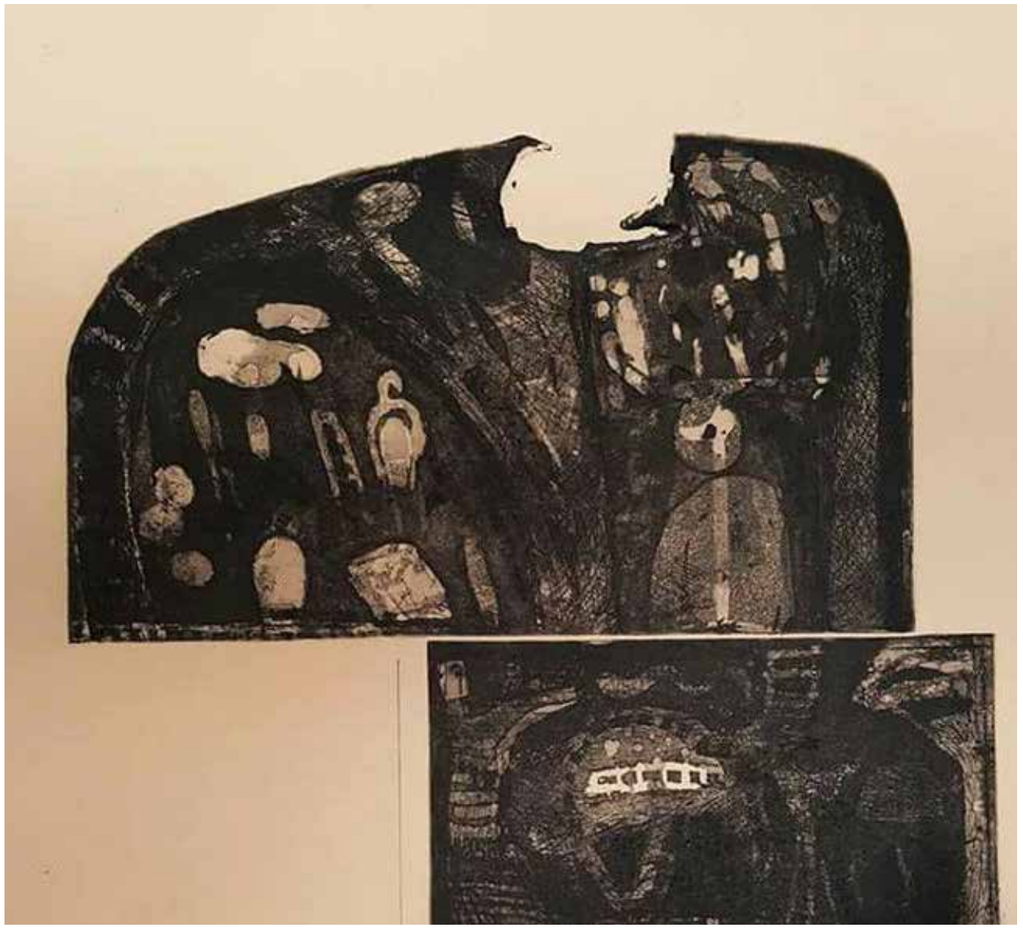

أحمد المرخي

أبواب جنات تجري من تحتها أنهار خمر وعسل إن صدَقوا. يضيف رأسك «تجري من تحتها أنهار تبغ جيد أيضا!». تضحك.

تبصر نملة تجري حاملة شيئا دقيقا لا تستطيع تمييزه. جزء من ورقة سقطت عن شجرة، أو جزء من حبة قمح أو ما شابهها. تبصر نملات أخريات تحمل ما تحمل. تتعجب من همتها ونظامها. تسير في خط واحد حتى تختفي. رأسك فارغ مثل كيس دقيق مهمل. عيناك منطفئتان. تجري النملات غير عابئات بك وبنظراتك. تتبعها وقد اشتعل فضولك محاذرا إزعاجها. تتوقّف نملة وتنظر إليك وتتفوّه بكلمة لا تفهم معناها. أنت لست سليمان الحكيم لتفهمها. لماذا سمّوه الحكيم؟ ألأنّه علّم منطق النمل؟ أوتي سليمان نبوة وملكا لم يوته الله أحدا قبله ولا بعده. قال الفقيه ذلك. أنت لم تتعلم منطقه لأنك لا تنحدر من سلالة الملوك ولا الأنبياء. لو كنت ملكا ما انتظرت من أمك أن تعطيك النقود. تغمض عينيك وتضع على رأسك تاجا. تلبس ثيابا من الذهب والحرير النفيس ويسجد لك الكل. يسجد لك الوزراء والمستشارون. تعرف أنهم لا يحبونك. يخشونك فقط. يخشون غضبك وبطشك. يطمعون في أموالك. يتقرّب الكلّ إليك. تخرج في حاشيتك وعسكرك المدجّجين بالأسلحة فيصدح الشعب باسمك. يهتفون بحياتك ومجدك. لا ينتظرون شيئا منك. تغرق في النعيم وفي النساء. آه من النساء! يعيشون كالجرذان ومع ذلك يرفعون أصواتهم ويلوّحون بأياديهم لتحيتك وأنت تنظر إليهم من فوق أنفك بغرور وتبتسم في مكر. الرعاع! أنت لست ملكا ولن تكون. تضحك. تعود إلى النملة التي تقف قبالتك نافخة صدرها وتنظر إليك متحدية. تخاف منها وتطأطئ رأسك. تذهلك النظرة الغضبى في عينيها. أإلى هذا الحدّ ضعيفا؟ تخاف من نملة؟ مجرّد نملة تملك أن تدوسها في ثانية وتمحو «ذيل أمها» من الوجود؟ لو كنتَ نملة لقدرت أن تتحدى

رضوان عبدلاوي

الملك. سليمان كان ملكا ونبيًا ورغم ذلك تحدّته نملة حقيرة. ليست حقيرة. كانت تسبح الله كثيرا. قال الفقيه ذلك. ترى من تحدّتِ النملةُ: الملك أم النبي؟ تحدته نملة لكن بلقيس الجميلة لم تتحده. أتته طائعة عاشقة. أيّ بلقيس تأتيك أنت؟ لم تأتك حتى مثلثة الرأس معمشة العينين التي ذاق منها كل ذكور الزقاق إلا أنت. ستأتيك بلقيس هناك. فوق. بلقيس التي لا تشبهها جميع بلقيسات الدنيا. الفقيه لن تأتيه لا بلقيس ولا غيرها ممن لم يمسسهن إنس ولا جان. من الظلم أن تأتيه وهو الذي ذاق ما ذاق من ساكنات الزقاق والزقاقات الأخرى. قال ذلك مرة. قال إن من يذوق من نساء الأرض لن يذوق من نساء الجنة.

تستأنف النملة طريقها وتلتحق بأخواتها. تتبعها. تودّ لو كنت نملة. تصير عاملا لا تعرف الكسل. تدخل النملات ثقبا صغيرا في الأرض. تتلكأ النملة وتلتفت إليك فتتوقفُ. تعود أدراجك كأنما طردتك.

تدخل البيت متسلّلا. تحاذر أن يراك أبوك. تأكل على عجل ما وضعته أمك على المائدة وسط غرفتك الصغيرة في سطح الدار. تتذكر أنك لم تصلِّ المغرب والعشاء. تركع وتسجد وتقرأ الآيات كأنما تلاحقك الدبابات. تسلم وتتمدد على سريرك البئيس. تتذكر أنك صليت بدون وضوء. تنفجر ضاحكا وتغمض عينيك ورأسك. تنام مثل كلب. عين مغلقة والأخرى تبحث عن جسد صاحبتك. تقضي حاجتك منها وترجعها إلى رأسك الأشعث فيأتيك النوم راكبا حصانا أبيض. تتبعُ النملة. تسبقك إلى الثقب الصغير. تدخل وتبقى أنت خارجه منتظرا. ينفتح الثقب ويتسع. يصير بحجمك أو أكبر. تقترب أكثر. تبصر سلّما بدرجات مرصوصة كأنما هُيِّئَت لنزولك إلى باطن الأرض. تتردد ثم تنزل متوجسا. تجد نفسك في ساحة كبيرة مضاءة. تجيل بصرك باحثا عن مصدر الضوء فلا تجد شيئا. ساحة مضاءة وكفى. ملايين النملات عاكفات على العمل بنشاط. تنقل زادها إلى إحدى الزوايا. ترى النملةَ صاحبتَك وسط الساحة تراقب سير العمل. تلتفت إليك بغتة. تترقرق عيناها بفرحة عارمة. تبتسم لها. تطلق ما يشبه صفيرا. يجتمع النمل حولها. تسمع صوتا خافتا وهمهمات. فجأة يلتفت النمل إليك وينطلق تجاهك. تتسمّر في مكانك من الرعب. يفتح النمل أفواهه فتبصر أنيابا مشحوذة. تدرك أنك صرت وجبة دسمة لجيش عرمرم من النمل. قبل أن تحرك قدميك هاربا كان جسدك مغرزا لملايين الأنياب. تصرخ متألما. تهزك يد حانية وصوت دافئ «باسم الله عليك!». تفتح عينيك فزعا وتكشف عنك الغطاء فتصرخ أمك ملتاعة وهي تشير إلى جسدك. تنظر إلى حيث تشير. تفغر فاك مرعوبا. جسدك مثل تفاحة مقضومة. قطع كثيرة من اللحم مبتورة ولا قطرة دم تنزّ منك.

كاتب من المغرب

اليوم السابع

عيسى بن محمود

نتقافز كضباء شاردة تجاه الوادي الصخري، غجرية وبدوي، خفافا بمرح وحلاوة اللحظة، نشارك الطيور سباحتها الحرة في المساء الجميل.

مددنا يدا ليد وشبكنا الأصابع درءا لصعوبة منحدر متعرج شبيه بدرجات غير مكتملة الحفر، ونزلنا من ملكوت البشر لوهج بهيّ لفح وجهينا، فزاغت الأبصار لنصاعة البياض ورهابته.

الامتداد الآن مستوٍ رغم التعرجات، والصخر عن يمين وعن شمال يبسط التباعد، وكما تراقص النجوم بعض فتات الصخر على الأرضية البيضاء مشعا وهالة من ضوء تحيطنا، والفؤاد برويّة يحاول فهم كنه اللحظة في كينونة غير التي ألفها حيث الصخور من صلد قاتم والوجوه والقلوب، والتربة ببعض لونه قد اكتوت والبشر كما البشر.

شساعة الفج الآن تغرينا بالجري، نتبادل الأدوار، أملائكة نحن الآن؟ تسبقني وأجري خلفها، وأسبقها وتجري خلفي، حينما تمسكني من يافطة القميص تهمّ بتقبيلي ولا تفعل، وحينما أمسكها من يدها، أهمّ بلفّ ساعدي على خصرها وجذبها نحوي لأحتضنها ثم لا أفعل. مكثنا اليوم الأول على الحال وكنا أسميناه يوم الهلا، لم ننم تلك الليلة، تركنا لروحينا أن تتعانقا في حلم لذيذ، لسنا نذكر إن كنّا أكلنا وشربنا، واللحظات مدام مسكرة.

في الغد مساحة الفج أوسع وأعمق وكنا مددنا يدينا للمصافحة:

- حواء.
- نعم آدم.
- حواء هل اقترفنا الفضيلة؟
- هو الخلود يا آدم هو الخلود.

لقد دخلناه واقترحناه اسما لذلك اليوم، تماهينا مع المكان، تركنا للنفس سجية الغناء، فغنينا والصدى من الفج العميق يردّد المقاطع الأخيرة لتكون خلفية للمقاطع الموالية.

بتنا ليلتها شبه عراة من أهوائنا البشرية، وظهرا لظهر في الغد كلانا نحفر على الصخر، أحفر حروف اسمها وتحفر حروف اسمي، أمد أصابعي تجاه الصخر فيطيع ويسّاقط كما الرمل من مكان الحفر، وكنا أسميناه يوم التوقيع، وقد امتد دهرا بحساب أهل الأرض أصحاب الأدران والأوثان، أما نحن الطاهران كفاية لنكون ملائكة فقد عددناه لحظة، حينا، آنا، مرّ سريعا ليحلّ ليل أبيض، والليل حيث الملائكة لا ليل فيه، يشتدّ البياض حتى تفقد الأبصار تبين الأشياء ثم نستيقظ، وكان هذا حالنا أيضا في اليوم الرابع وهو يوم التماهي، وقد فقدنا فيه ألواننا، أصبح بياضنا أبيض، ولسنا نذكر ما فعلناه في ذلك النهار، يبدو أنه كان يوم عطلة، نذكر فقط أننا ولجنا منزلة أخرى في اليوم الخامس، وكنا نضع علامات لعدد الأيام وأسمائها على الصخر، لم نتخلص من حب التأريخ كمن يحفر بالماء على الرمل، قالت:

- لماذا تعطش الصحراء؟

ذكّرتني بالماء وما كنّا عطشنا، لكنّ شيئا ما من شبق الروح بالروح، وقد تخلصنا من آدميتنا أكثر إذ جعلناه يوم الساقية.

قريبان كفاية من بعض لامتحان الجسد الفاني، فما تأوّهنا من شهوة وتمنّ، لكنّ ائتلافا وولها شاركنا فيه اللامكان، فلم نكن يومها نرى الفج ولا أرضيته، كنا نسير على اللاشيء، هو كالعدم، نتكئ ولا شيء يسندنا، مع ذلك لا نسقط، يلفّنا ضباب خفيف يدغدغ الإبطين فنبتسم لبعض. الضباب نفسه يشاركنا الابتسام بأن يرتسم أمامنا شفاها تفرج عن ضحكة لا صوت لها، فتتمدّد أسارير الوجه ولا تعود لتنهي الابتسامة، قد يكون ذلك في اليوم السادس، وكنا خشينا ألاّ يعد من أعمارنا، فرحنا نقيده بالتسمية، اقترحنا وما صوتنا، بل صادقنا أن يكون يوم التطهر.

قالت: ابقَ قربي.

تحن الصحراء لاحتضان الوجود، ومثلها أطالب روحي بأن تتفتق ذرات هواء زكيّ تحيطها هالة، وبدورها هلامية الانحناء نحوي لما أن توزع المدى صوت باهت:

- قفا أيها الفانيان.

معا نظرنا في الاتجاه واللااتجاه:

- عسس، عسس.
- لم تتطهرا كفاية للمرور من بوابة الأبدية.

نظرنا لنتبين البوابة التي تنتصب أمامنا في الفراغ، تسمو مغرقة في اللانتهاء.

بكري بلال

- المرمر ليس الذي تعرفون، المرمر أنقى وأطهر من أن يكون له لون أو شكل ترونه بحاسة الرؤية.

فتشنا العسس، لم نك نرهم لكن كأجسام هلامية عديمة اللون نحسهم، قال لي كبيرهم:

- إن اليد التي تمتد إليك بلقمة توصلها بين شفتيك إما أن تكون يد الروح أو يد القدر، وقد تجتمعان معا.

قالت: يد المودة والقربى.

لم ينتبهوا لقولها، نزعوا تلك اللقيمات التي أطعمتني بيدها، حدقنا في بعضنا ثم قلنا معا ونكون ما تخلصنا من كل بشريتنا:

- تبا لهم، من أوقفهم في الباب السابع؟ من أخبرهم؟ نحن نفسينا لم نسجلها كفارقة يجتمع فيها القدر والروح في آن.

كاتب من الجزائر

علبَة الرّسائل الصّفراء

غادة الأغزاوي

« بَعض الكتّاب، لَيسوا كتّاباً مثلَ الآخَرين..»
كريستين آنجو/روائيّة فرَنسيّة.

شكراً على رسالتك التي وصلتني صَباحاً.
عندما خرجت صباحاً باكراً، تفقَّدت علبةَ الرسائل الصَفراء التي كتبَ عليها اسمي بشكلٍ سَيّئ. كتبت مرّاتٍ عدّة إلى حارسَة العمارة، راجياً أن تجدَ حلاً لهذه المشكلة. لا ينفع أبدًا أن يبقى اسمي مَكتوباً على هذا النَّحو. ذلكَ الاسم يكاد يكون اسمي، لولا أنَّ حرفًا ينقصه. إذن، ذلكَ الرَجل الذي يسكن في العمارَة، الذي يحمل اسماً يكاد يكون اسمي، هوَ، بالتّأكيد، رجلٌ آخَر (ليسَ أنا).
إنَني أتساءل، كلَّ صَباحٍ، عندما أفتح العلبةَ، من يكون ذلكَ الرجل؟ لكنَني لا أهتم وأسبّ بصوت عالٍ حارسة العمارَة.
ندَما خرجت صباحاً باكراً تفقَّدت علبةَ الرسائل الصَفراء. لكنَّها كانت فارغةً. يحدث أحياناً، أن أجدها فارغة. أغلقت العلبةَ، ثم وَضعت المفتاحَ داخلَ جيبي. انتظرت دقيقةً وبعدَها، أخرجت المفتاحَ من جَيبي وفتَحت العلبةَ مجدّدا. تَفقَّدتها مرَّةً ثانية. طَبعاً، دونَما مفاجَأة، وجدتها فارغةً. قلت معَ نفسي، ربَّما هذا اليَوم، سَيكون يوماً جيّداً، حتّى وإن كتبَ اسمي، على علبة الرسائل الصَفراء، بشكلٍ سَيّئ. كأنَّني نجوت من أخبارٍ مَشؤومةٍ، أغلقت بارتياحٍ تامٍّ العلبة. ولم أنسَ أن أسبَّ حارسةَ العمارة بصوتٍ عالٍ. ثم انصرفت.
عندَما خرجت صباحاً باكراً تفقدت علبة الرسائل الصَفراء. كانت فارغةً. ذهبت بعدَها إلى حانوت بَيع التّبغ. اشتريت كيساً، متوسّط الحَجم، منَ التّبغ. وعلبةً صَغيرةً من أوراق اللّف البيضَاء. أنا في وضعٍ مادّي بائِس، لا يسمح لي بشراء سَجائر رفيعَة المستوى. كنت سأفضّل، بالطّبع، قَتلَ نفسي بسَجائر رفيعَة المستوى. لكنَّني مفلسٌ، ولا مَفرَّ منَ الموت، مثل أيّ بائِس، يفخم رئتيه بسَجائرٍ ملفوفةٍ رخَيصة. بعدَ أن شربت فنجانَ القهوة المعتاد، ألقيت نظرةً على المجانين الذين يتَحدَّثون بهوسٍ عن أرقام وأسماء الخيول. لحسن الحظّ، أنا لا أجادل أيَّ أحدٍ منهم، ولا تَعنيني الحالَة الصّحية للفَرس دولوريس. أيّ غباءٍ، أن تجلسَ أمامَ الشاشة الكبيرة وتسبَّ الجوكي الذي لا يعرفكَ ولا تعرفه؟ قلت مع نفسي، إنَّ عقولَ الرجال في حالةٍ مزرية. التقطت كيسَ التّبغ وعلبةَ أوراق اللّف ثمَّ خرجت.
عندما خرجت صَباحاً وأثناءَ عَودتي من دكان بيع التّبغ، أحسَست بالجوع. خلالَ اليَومين الأخيرين، لم أبتَلع سوى كسرة خبزٍ متيبّسة، بَلَّلتها بنبيذٍ مقزّز لا طعمَ له. عندما أحسست بالجوع، تذكَّرت شَريحةَ الكبد، التي لا تزال موجودةً داخلَ الثلاجة. ومثلَ أيّ رجلٍ مفلسٍ أحَسَّ بالجوع، قلت، حالما أصعد إلى شقتي سأقوم بقَلي شريحة الكبد تلك، قبلَ أن أفعلَ أيّ شيءٍ آخر. ثمَّ شَعرت بالسّعادة.
عندما عدت صباحاً من حانوت بيع التّبغ، تفقَّدت مرّة ثانيةً علبةَ الرسائل الصَفراء التي كتبَ عليها اسمي بشكلٍ سَيّئ. كانَ الجوع يعتصر معدتي، وكنت أفكّر بإلحاحٍ في شريحة الكَبد. فتَحت علبةَ الرسائل الصَفراء ووجَدت ظَرفاً أبيضَ كتبَ عليه اسمي بشكلٍ صحيحٍ. سحبت الظَّرف، تمعَّنت اسمَ المرسل جيّدًا ثمَّ اكتشفت بأنَّها رسالةٌ منك. عرفت، أنَّها رسالةٌ منكَ، لأنّي كنت أنتظرها منذ وقتٍ طويلٍ. فرحت جدًّا. لكنَّ إحساسي بالفرح لم يغلب إحساسي بالجوع. كنت جائعاً وفرحاً. مثلَ كَلبٍ يفكّر في شريحة الكبد. أغلقت العلبةَ، ولم أنسَ أن أسبَّ حارسةَ العمارة بصوتٍ عالٍ.
شكراً على رسالتك التي وصَلتني صَباحاً. أنا سعيدٌ جدًّا لأنَّكَ وافقتَ على نشر قصَّةٍ لي. لأنَّني مفلسٌ وفي حاجَةٍ ماسَّةٍ إلى تلكَ اليوروهات التي سَتدفع لي.
عندما عدت صباحاً إلى شقَّتي. كنت سَعيداً وجَائعاً. وضعت مقلاةً صَغيرةً فوقَ النَّار، أضفت قليلاً منَ الزَّيت ثمَّ أخرجت شريحةَ الكبد منَ الثلاجَة. فضولي الثقيل لمعرفة، محتوى رسالتكَ، دفَعني لفتح الظَّرف. قرأت رسالتكَ، وأنا سَعيدٌ جدًّا لأنَّك توافق على نشر قصَّةٍ لي. في الحقيقة، لقد كنت سعيداً جدًّا وبسبب سَعادَتي، بدأت أصرخ وأقفز. عندما انتبهت للزَّيت الذي كانَ يحترق، تذكَّرت شريحةَ الكبد والجوعَ الذي يعتَصر مَعدتي. إنَني أشبه كَلباً شرهاً.
كَلباً شرهًا وسعيداً جدا
. التقطت شريحةَ الكَبد بيدَيّ معاً وأنزلتها بقوَّةٍ في المقلاة.
أنا مجرّد كاتبٍ بائس، أحرقَ أصابعه لأنَّه جائعٌ وسعيدٌ.
شكراً على رسالتكَ التي وصلَتني صَباحاً. إنَّني مفلسٌ ولا أستطيع،

عبدالله بولا

الآنَ، كتابةَ قصَّة جديدةٍ لكي تُنشرَها. مازلت جائعاً ولا يمكنني لفّ التّبغ الرّخيص الذي اشتريته. نادَيت على حارسة العمارة، حتّى تضمَدَ أصَابعي. لم أنَ، في حَياتي، امرأةً غبيَّة مثلها، هي إلى الآن لم تجد حلاً لاسمي على علبة الرّسائل الصَفراء.
عزيزي النّاشر، أمهلني بعضَ الوقت. أنتَ تعرف أنَّني في أمسّ الحاجة إلى تلكَ «اليوروهات». أفكّر في دَعوة حارسَة العمارة لشرب كأس منَ النّبيذ. إنّها امرأةٌ جميلةٌ، لا تتحَدث كَثيراً. طلبت منها أن تساعدني، لكي أكتبَ إليكَ ردّاً على رسالتكَ. أنا متيقنٌ من أنَّك ستكون متفهّما لوَضعي. أرجوكَ، إذا كتبتَ إليّ رسالةً أخرى، تجيبني من خلالها، اطلب من هذه المَرأة، -التي تكتب إليكَ الآنَ، والتي منَ المؤكّد ستقوم بقراءة رسالتكَ عليّ-، اطلب منها أن تجدَ خلاً لاسمي على علبة الرسائل الصَفراء.

كاتبة من المغرب

عدوى الحب

فاتحة مرشيد

هو الحب هكذا. لا يحترم سوى نفسه.
يعجبه أن يولد في الظروف والأماكن الأكثر غرابة، كالجنائز مثلا. في جنازته التقيتُها، وكان الحزن ينهش قلبي على فراقه المباغت إثر حادثة سير غبية. كانت جالسة بجانب والدته، وكان بإمكاني أن أتوصّل إلى معرفتها بين الملايين ودون سابق لقاء. عرفتها من كلامه عنها ومن وصفه الدقيق لها ومن نبض قلبي وهو يصرخ داخلي: إنها هي.. إنها هي.
كنا طلبة في سنتنا الدراسية الأخيرة بالجامعة بالرباط نتقاسم نفس الغرفة بالحيّ الجامعي، ولأننا كنا في الثمانينات من القرن الماضي فلم تكن لنا لا هواتف نقالة ولا فيسبوك ولا شبكة إنترنت. كان لنا التواصل المباشر والكلام لساعات في نفس المواضيع وكان موضوعه المفضل: هي. ريم ابنة عمّته التي أصابت، دون أن تدري، قلبه بعمى العشق. كان يستعين بنزار لكتابة رسالة مطولة لها، استغرق سنة دراسية كاملة في كتابتها ومات قبل أن يرسلها لفرط خجله.
من قال إن مرض الحب غير معد؟
أذكر أنني قد أصبحت أحلم بها، ببشرتها البيضاء وشعرها الأشقر وقوامها الرفيع ويديها الرقيقتين وساقيها الملولبتين.. كان مراد يملك فصاحة ودقة في التعبير لا يوازيهما سوى خجله المرضي. كنت أقول له لو أنت قلت لها ما تقوله لي عنها لجُنّت بحبك. لكن ريثما يفعل، وهذا من المستبعد جدا، فقد جننت أنا بها. ولأنه لم يكن يملك صورة لها فقد أجّج المجهول شغفي بملاك كان يبرعُ خيالي في رسم ملامحه و«الأذن تعشق قبل العين أحيانا».
كل ليلة قبل أن ننام، ونحن مستلقيان كل على فراشه، كان يبدأ في قراءة قصيدة لنزار بصوت عال كأنه يناجيها ثم يبدأ في وصفها بكلماته الخاصة لأن نزار نفسه لن يوفّيها حقّها. مسرّبا لي فيروس حبها جرعة تلو جرعة.
وذات شجن جاءت فكرة الرسالة. تجب كتابتها أولا ثم التفكير في الكيفية التي تجعلها تتوصل بها، فالبريد العادي من سابع المستحيلات.. سنعثر على حلّ لا محالة عندما نعود خلال العطلة الصيفية إلى الصويرة، هناك سنجد وسيلة لجعلها تعانق أناملها.
كم مرّة كتب تلك الرسالة! وكم مرّة مزّقها وأعاد كتابتها! ما يمكن قوله هي أنها أروع وأرقّ وأحنّ رسالة حب كُتبت عبر التاريخ.
اقتربتُ من والدته تسبقني دموعي فإذا بها تسارع لاحتضاني وتبكي بحرقة جعلتها تهوي بين ذراعي.. نهضت ريم لتساعدني على حملها إلى غرفتها وتمديدها على فراشها. ولحظة، بينما والدة المرحوم مغمى عليها بيننا، رفعتْ عينيها الدامعتين فاخترقت ضباب عيني ولم أدر كم من الوقت ظللنا هكذا متوحدين في دمعة مالحة.
لم تزح عينيها عنّي ولم أفعل، كان الصمت سيد الموقف، كما الحزن سيد الانفعالات. ساعتها تذكرت الرسالة التي كانت بجيب سترتي، فقد كان آخر ما طلب منّي المرحوم قبل الحادثة الرهيبة أن ألتمس من أختي، زميلتها في الثانوية، أن تكون ساعية بريده وتتوسط بينهما. ها هو قد ودعنا مخلفا لي رسالة تعبر بدقة عما يعتريني من ولع وما لن أستطيع التعبير عنه بنفس الجمالية.
قلت متلعثما «ريم..» ارتبكت لسماع اسمها. «أعلم أن الوقت ليس مناسبا، أريد فقط أن أستأذنك في إرسال رسالة لك مع أختي».
طأطأت رأسها وأومأت بنعم وقد احمرّت وجنتاها.
لم أصدّق نفسي، ما هذا الذي أفكر فيه؟ وكيف أجسر على قول كهذا يوم جنازته؟ أهي طريقة نظرتها إليّ ما سرّب الشجاعة بداخلي؟ أم أنه الموت ما يجعلنا نستعجل الحياة؟
لا أعلم. يبدو أن الحب بالفعل لا يحترم شيئا سوى نفسه.
هكذا، وجدتني بعد أربعينية مراد أرسل إليها، مع أختي، الرسالة إياها بعد إعادة كتابتها بخط يدي وتغيير اسم المرسل.
بعد سنة ونصف من تسليم الرسالة، لم تفهم ريم، التي أصبحت زوجتي، سبب إصراري على أن نطلق اسم مراد على ابننا البكر.
قلت في نفسي: من يحسن الكتابة لا يموت.

كاتبة من المغرب

نور بهجت المصري

لم أعد طفلة

فريدة العاطفي

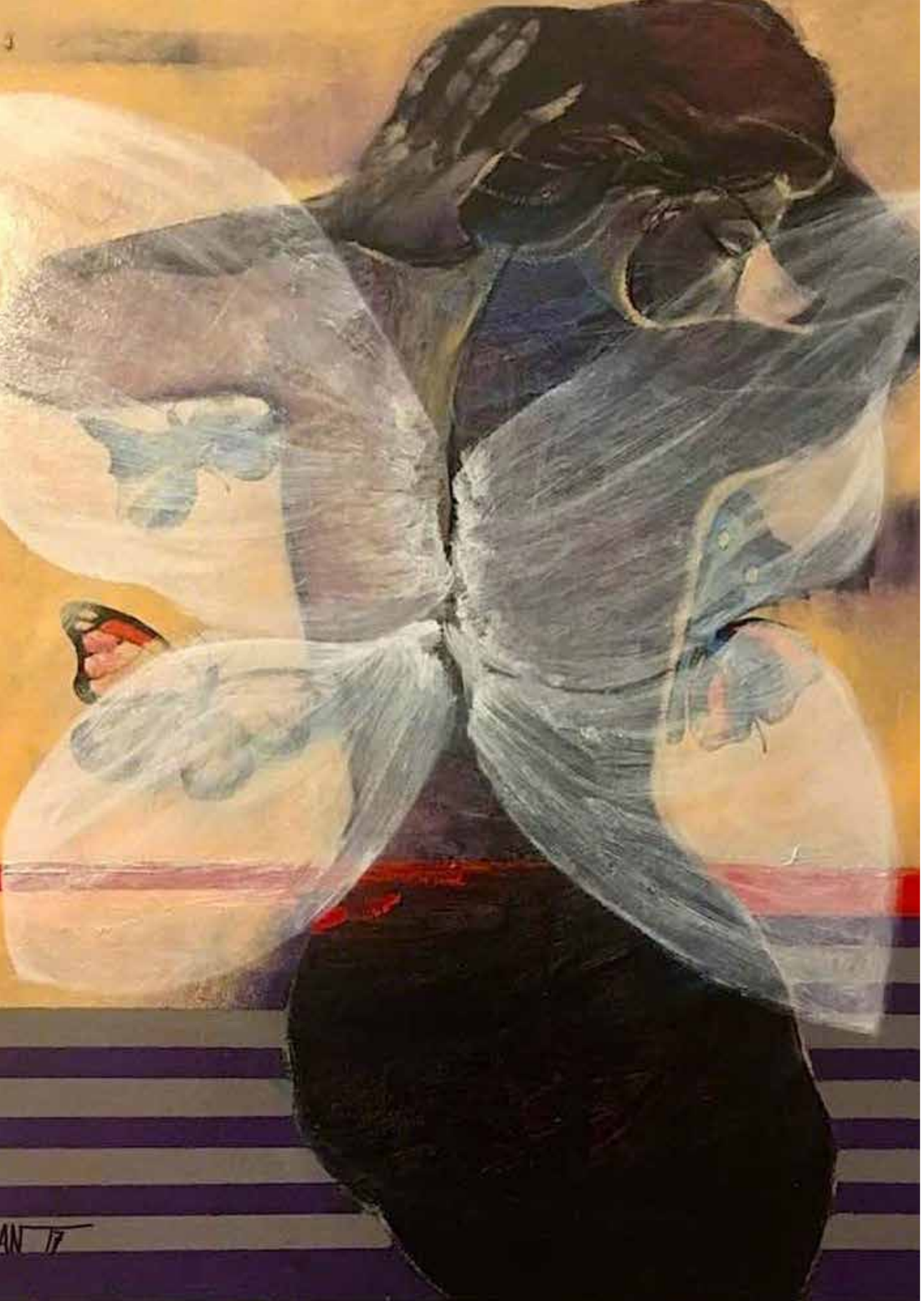

كانت قطرة دم ساخنة.. ومجهولة، نزلت بين فخذيّ بشكل مفاجئ، وأنا في الحادية عشرة من عمري.

حين زارتني الدورة الشهرية لأول مرة، اعتقدت أني فقدت بكارتي. لم أكن أفهم معنى البكارة ولم يجبني أحد عن سؤالي الذي ظل لغزا لزمن. أنا فقط كنت أسمع هذا الاسم يتردد كثيرا بين الممرات، وينزل على الرأس كالفأس. وكلما ذكر أمامي كنت أحس بالبرد والصقيع في الروح. كنت أحس بخوف كبير سرعان ما بنى لنفسه عشا في دهاليز القلب البعيدة. كما تبني العصافير أعشاشا على أعالي الأشجار.

كان عليّ أن أخفي سرّي كي لا يعلم به أحد، فبحثت عن قطعة قماش من سروال وردي لأمي بدأت أستعملها. ولم أكن أعرف كيف أنظفها، ولا أين أنشرها لتجفّ دون أن يرى آثار بقع الدم الظاهرة أحد.

فكرت في زاوية خلف أحواض الزهور في سطح بيتنا. ولم تكتمل فرحتي، إذ سرعان ما اكتشف أخي الأصغر قطع القماش المنشورة، فعلقها على قصبة، وبدأ يدور بها على سطح المنزل وهو يصفر منتشيا. أصبح من الضروري أن أجد مخبأ لقطع القماش المطبوعة بالدم، و كنت كلما وجدت مخبأ، عثر عليه أخي بإحساس كبير بالانتصار.

بدأت أعاني من مشاكل أخرى سبّبت لي الكثير من التعاسة. نهدي تحت الفستان أطل متمردا ليشاكسني، مما اضطرني أن أشده بقطعة قماش طويلة جعلتها على شكل حبل، كي لا يظهر، فيمنعني أبي من اللعب، ويجد أخي الذي كان يترصد لي بالمرصاد، سببا آخر للسخرية مني.

ثم...

أطلت شعيرات صغيرة كالنباتات تحت إبطي. وبدأت تكبر يوما بعد آخر، دون أن أعرف إلى أين يمكن أن تصل. إلى أن جاءت زيارتي لصديقتي بدرية مفاجأة بكل المقاييس. هناك في غرفتها الجميلة... تعرت بدرية أمامي لتغير ملابسها، فرأيت إبطها حليقا نظيفا وجميلا. قبل أن أسألها، أخرجت من أحد أدراج خزانتها موسى حلاقة صغير ووردي وهي تردد بزهو شديد «إنه من النرويج».

كانت تلك أول مرة أتحدث فيها عن مشاكلي الحميمة، فأمي كانت منشغلة بغسل الصحون. ولم يكن لديها الوقت لمشاكلي مع أنوثتي التي جاءت على عجل، وأنا مازلت ألعب.

أما بدرية فكان لديها الحل السحري لكل مشاكلي. بعد ماكينة الحلاقة الوردية، أعطتني فوطات جميلة وناعمة، تستعمل وترمى بعد استعمالها. والفوطات بدورها كانت من النرويج.

لكي لا يسرق أخي ماكينة الحلاقة، أخفيتها في صدري، على قطعة القماش التي كنت أشد بها نهدي كي لا ينفلتا بجنون نحو أنوثة لم أكن بعد مستعدة لها.

لكن ماكينة الحلاقة سقطت مني في إحدى الصباحات الماطرة، وأنا أستعرض جدول الضرب أمام أستاذ فرنسية ملتح كنا نخاف منه كثيرا.

نظر الأستاذ مذهولا إلى الماكينة على الأرض. وقبل أن يفتح فمه بالسؤال، قلت ببراءة وحزن شديد «إنها من النرويج».

انفجر أستاذ اللغة الفرنسية ضاحكا، وأخذ مني آلة الحلاقة دون أن أراها بعد ذلك.

بكيت تلك الليلة ماكينتي الوردية، كما نبكي شخصا عزيزا.

وقضيتها.. أحلم بالنرويج.

آه... كم حلمت بالنرويج.

الطائرة باتجاه النرويج...

وأنا لم أنس لحد الآن موسى الحلاقة الوردي. اشتريت بعده أمواس حلاقة وآلات كهربائية لنزع الشعر باللون الوردي في مختلف درجاته، بل حتى غرفة نومي اخترت لها اللون الوردي... ولم أنس. لذلك كان لا بد أن أسافر إلى النرويج لأجد شبيها له.

النرويج جنة للأطفال فقط. أخبرتني بدرية أنهم لا يضربون الأطفال في النرويج، ورجل مثل أستاذ اللغة الفرنسية الذي كان يضربنا بقسوة حين لا نحفظ جدول الضرب، يمكن أن يدخل إلى السجن. «ويمكن أن يدخلوه إلى السجن لأنه أخذ ماكينتي الوردية وسخر مني». هكذا فكرت، وأنا أشد وسادتي إلى صدري بحثا عن حنان لم أجده. ونمت كالعادة. أحلم بالنرويج.

أنا الآن لم أعد طفلة، أصبحت أزهو بنهدي، وأتعايش بألفة مع الشعيرات التي تنمو هنا وهناك على جسدي. أنزعها بحنان وبآلات وردية دائما. وفي فترات دورة الخصوبة أجدني أحيانا أضع يدي بين فخذي، أتأمل اللون الأحمر القاني على إصبعي. وأحلم بالنرويج.

كاتبة من المغرب

سعد يكن

الوقائع الغامضة لاختفاء المواطن أحمد البهجة

لحسن باكور

ذات صباح خريفي شديد البرودة اختفى أحمد البهجة -فجأة- من الوجود!

كان مواطنا عاديا. لم يكن ذا جاه أو سلطة، ولم يكن من نجوم الصرعة الغنائية الجديدة كي تضطربَ لاختفائه المدينة ويختلَّ إيقاعُها في ذلك اليوم، لكن اختفاءه على ذلك النحو الغامض أثار الكثيرَ من القلق والأسئلة.

تعدّدت إفاداتُ شهودِ العيان بشأن اختفاء أحمد البهجة المُلْغز، لكن ذلك لم يفضِ إلى قولٍ فصلٍ في النازلة، بقدر ما أسدل عليها ستارا إضافيا من الغموض.

أفادت زوجته بأنها انتظرت عودته تلك الليلة طويلا إلى أن غلبها النوم في النهاية، ولا تستطيع أن تؤكد إن عاد بالفعل إلى البيت تلك الليلة أم لم يعد..

كلما شعرت بنأمة هرعت نحو النافذة مستطلعة، إلى أن تأخر الوقت وتعبَت من التنقل بين صالة الشقة والنافذة المطلة على الشارع. تمدّدَت فوق السرير لتُصيب قليلا من الراحة فغلبها النوم.

آخر ما علق بذاكرتها من ليلة القلق تلك، مشهد حارس موقف السيارات وهو يضرم النار في كومة أخشاب ليتدفأ بها في برد الليل.

* قال جلساؤه في الحديقة العمومية:

التأم مجلسنا ذلك اليوم بُعيد صلاة العصر كالعادة في الحديقة العمومية. لم يتخلف أحمد البهجة عن الحضور، لكنه ظل واجما على غير ما عهدناه. لعب جولتَي طاولة دون حماس، ثم تأبط كرسيه القابل للطي وغادر فجأة دون أن يفصح عن وجهته.

وهو يفارق مجمعنا على ذلك النحو الفجائي ويمضي مبتعدا، قلنا هي نوبة «سيدي أحمد» عينُها التي نعرفها جميعا، فقط يبدو أن غيمة الأسى المطبقة على صدره هذا المساء أكثرُ كثافة، لكن صديقنا «العوينة» الذي لا تفوته شاردة، شيَّع «سيدي أحمد» بنظرة طويلة قائلا إن «حاله مَا يُعجب»، ثم أردف بعد صمت «ألم تروا أنه مخطوف ومرفوع، ومنذ جلس لم يكف عن نفض ثيابه»؟!

لبثنا نتجاذب أطراف الحديث ونلعب بعقول شاردة، يربك القلق أصابعَنا فوق رقعة الطاولة، وقد تطيَّزنا بنظرة «العوينة» ونبرته المقلقة.

إلى أن نما إلينا نبأ اختفاءه الغامض في اليوم الموالي. «سيدي أحمد» رجل خلوق طيب المعشر. نعم يحدُث أن تنتابه حالات كآبة بين فترة وأخرى، لكنه رجل فكِهٌ يحب الحياة. لا بد أن أمرا ما غامضا يكمن خلف اختفائه، ونأملُ أن يظهرَ اليوم أو غدا.

* قال مقدم الحـــي

مراكش في الاثنين 28.... شهر.... لسنة.... ميلادية

الموضوع: تقرير إخباري

إلى السيد القائد..

بعد فروض الولاء والاحترام..

أحيطكُم علما بالوقائع التّالية..

في اليوم أعلاه، وبينما كنت أقوم بجولتي التفقُّدية المعتادة داخل الحي استرعى انتباهي هرج ومرج أمام منزل المواطن المسمَّى أحمد البهجة. اقتربت من المكان للوقوف على جلية الأمر، فوجدت الملأ يتداولون خبرَ اختفاء الشخص المعني. كانت زوجته جالسة في عتبة المنزل مصدومة وشبْهَ منهارة. كانت ذاهلة ولم تستطع التجاوب مع استفساراتي إلا بعد عنت، وقد شاب كلامَها اضطرابٌ وتداخل.

كان بالمكان لفيف من الجيران ومن رفاق المعني وجمهرة من الفضوليين، يتلاغطون في شأن الاختفاء ويستعيدون آخر لقائهم بالمعني، بل وجدتُ من الملأ من انبرى لتِعداد محاسنه كما لو أن الرَّجلَ انتقل إلى جوار به.

وبالعودة إلى ملف هذا المواطن، سيدي القائد..

لم أعرف للرجل أيّ ميولات سياسية محددة. فباستثناء مجالسته لجمع من المتقاعدين والعاطلين على كراسي الحديقة العمومية، حيث يجزون الوقت في لعب الطاولة، لم يكن يجالس إلا نفسه. فهو رجل «حدودي داخل شوق راسو» كما يُقال.

هذا مع أنه لا يتورّع أحيانا عن الجهر أمام الملأ ببعض الآراء أو المواقف الغريبة التي تُلفت إليه الأنظار، خاصة إذا تطرق الحديث إلى مراكش التي يسمّيها مراكش السوداء، كما أني سمعته أكثر من مرة ينعتها بمدينة الغبار ويُكنّي أهلها بني الأغبر.

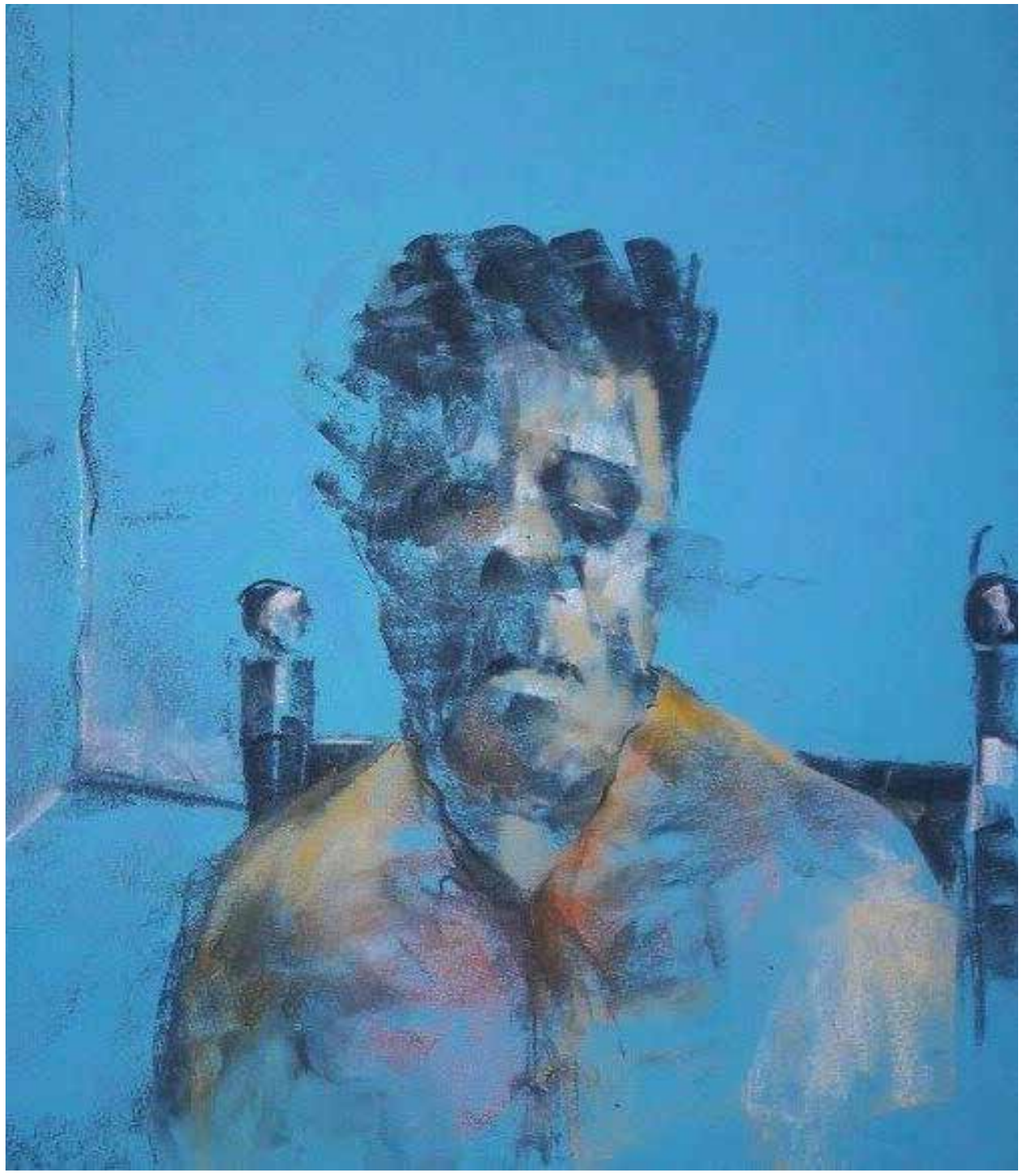

عمر نصيرات

عدا هذا فهو رجل مسالم ليّنُ الجانب، ولم يبدر عنه في حدود علمي ما يمكن اعتباره استخفافا بالسلطة مثلا أو تطاولا على هيبتها لا قدر الله. ولعلّكم تذكرون. سيدي القائد أنكم سبق أن أوفدتم لجنة تقنية معززة بقوة عمومية لهدم تلك الحديقة الصغيرة التي أنشأها في مدخل بيته وسَيَّجها بالأسلاك متطاولا على الملك العمومي، بناءً على التقرير الشفوي الذي رفعتُه إليكم إبّانها بهذا الشأن. يوم ذاك لم يقف الرجل في وجه اللجنة مثلما توقعنا، ولم يحاول عرقلة مهمتها، بل إنه أكرم وفادتنا بصينية شاي طالبا منحه مهلة كي يتولى أمر إزالة الحديقة بنفسه. وأذكر أن الحديقة كانت مزروعة بنخيلات بعدُ طريَّة العود. ولقد عاينتُ كيف انهمك في انتزاعها برفق بالغ خشية أن تتأذى، قبل أن يودعها أكياسا، ثم تراجع تاركا المجال للجرَّافة كي تطيحَ بسور الحديقة الصغيرة.

كلام كثير يتداوله الناس هنا، بشأن الاختفاء المزعوم لهذا المواطن، ويردّدونه على المسامع بالزيادة أحيانا وبالنقصان حينا آخر. ولعلّ أكثر الإفادات غرابة ما يرويه حارس موقف السيارات الذي يزعم أنه رأى الشخص المعني واقفا فوق إفريز إحدى نوافذ شقته على مشارف الفجر قبل أن يختفي. أعرف أن هذا الحارس دأب على مُعاقرة الخمر خلال نوبات حراسته الليلية، لكني أشهد أيضا أنه مصدر موثوق للأخبار، ولم أعهد فيه قط ميلا للكذب أو التلفيق.

وبعدُ.. لا يخفى عليكم سيدي القائد أن كل ما يتم تداوله حتى الآن بشأن هذه النازلة يبقى مجرد تكهنات وكلام ملقى على عواهنه، ما دام لم يمض على الاختفاء غير فترة وجيزة، وقد يظهر الرجل بين الفينة والأخرى ليضع حدّا لكل هذا القيل والقال.

اطمئنوا سيدي سأكون عينكم التي ترصُدون بها كل حركة، وأذنكم التي تتسقطون بها الأخبار، إلى أن نستجلي الواقعة على وجه اليقين.

خادمكم المخلص...

مقدم حي.....

ورُفع إليكم هذا التقرير لكُلّ غايةٍ مفيدة..

* قال الحارس الليلي

.. أنا لا أنكر بأني شربت قليلا تلك الليلة. رجل وحيد مثلي في مواجهة الليل البارد لن تؤنسه إلا قنينة تدفئ جوفَه كما تدفئ النار أطرافَه.

قُبيل صلاة الفجر بدأت عتمة الليل تتوارى، فيما اشتدّ البرد. قمت بجولة أخيرة على المرآب ثم عدت إلى مجلسي وتكومت في جلبابي قُبالةَ النار كي أتدفأ قليلا بعدُ في انتظار مجيء حارس المرآب نهارًا. بدأتُ أنتشي بالدفء والشراب وكنت على وشك أن أغفو عندما رأيت ذلك الشيء فطار النعاس من عيني وتبخرت نشوة الشراب. رأيت السيد أحمد البهجة يقف للحظة خاطفة على حافة نافذة منزله، ثم يهوي في الفراغ، ورأيت ما يشبه سحابة كثيفة من الغبار تظلل المكان لفترة قبل أن تتبدد. بعد أن أفقت من دهشتي، ركضتُ نحو المكان هلعا مذعورا، لكني لم أجد جثة السيد أحمد البهجة فوق إسفلت الشارع مثلما توقعت. كان المكان فارغا غارقا في الصمت، فيما بقايا غبار تتلاشى ببطء.

بقيتُ أدور حول نفسي بالمكان دائخا كالمجنون، أكذب عينَيّ تارة وأصدقهما طورا. للأسف لم يكن شاهدا على ما حدث غيري سوى السيارات الهاجعة في المرآب والأشجار وأعمدة الكهرباء، أما المصلّون فلم يمروا بالمكان إلا بُعَيد ذلك في طريقهم إلى المسجد القريب، وربّما ألقى عليّ بعضهم تحيةً ذهلت عن ردها.

.. أجل، أعترف بأني كنت مخمورا بعض الشيء، لكنّي أدرك جيدا ما أقول وأعرف ما رأيت، وأستطيع أن أجزم بأنّ من رأيته هناك على حافة النافذة في تلك اللحظة الخاطفة كان السيد أحمد البهجة نفسه، أو هيأته على الأقل. لقد كان يرتدي ذات الجلباب الصوفي الذي كان يرتديه مساء البارحة، عندما مرّ بالمرآب بُعيد صلاة العصر وألقى عليّ التحية.. لكن كيف اختفى؟ وما الذي كان يفعله هناك على حافة النافذة؟! هذا ما لا أفهمه ويكاد يُصيبني بالجنون. السيد أحمد البهجة رجل رزين ومُصلٍّ لا يمكن أن ينتحر بإلقاء نفسه من النافذة، معاذ الله.. لكنّي أقسم أنّي رأيت هيأته واقفةً على حافة النافذة للحظة خاطفة قبل أن تقفز في الهواء وتختفي لا أدري أين..

* قالت الزوجة (إفادة رقم 2)

.. عندما استيقظتُ صباحًا وبي فزعٌ، كان ضوء النهار قد أوشك أن يغمرَ الغرفة. شعرت بأطرافي مثلجة، ولاحظت -لدهشتي- أن نافذة غرفة النوم كانت مشرعة تتماوج ستارتها بهدوء. هممتُ بالقيام عندما أثار انتباهي غبار كثير فوق ملاءة السرير، ومُتخللا ثنايا الغطاء. أسرعتُ لإغلاق النافذة، وبينما كنت أُحكِم إغلاق المصراع استرعت انتباهي كمية أكبر من الغبار منثورة على طول إفريز النافذة.

وعندما خطوتُ باتجاه مدخل غرفة النوم رَاعني ما رأيت: رأيت خيطا رفيعا من التراب ممتدا من قرب السرير حتى مدخل الغرفة. لم أفهم من أين جاء كل ذلك الغبار، و شعرت على نحو غامض بأن له علاقةً ما بزوجي فتوجّست خيفة.

تفقدت هلعةً مرافقَ الشقة، دون أن أجد لـ«سيدي أحمد» أثرا. حينذاك ارتديت جلبابي على عجل وخرجت للبحث عنه، وأنا لا أعرف أيَّ وجهةٍ أقصد.

* قال الراوي

.. على غير عادته رجع مساء ذلك اليوم إلى البيت مبكرا. أخذ يتنقل بين غرف ومرافق البيت كما لو يبحث عن شيء لا يجده، قبل أن يخرج من جديد تحت النظرات المتسائلة لزوجته.

قصد موقفَ الحافلاتِ القريبَ، حيث استقل الحافلة باتجاه محطة «باب دكالة». هناك ترجّل وأكمل الطريق نحو وجهته. بعد خطوات قليلة شعر بسحابة الضيق المطبقة على صدره منذ الصباح وقد بدأت تخف، لولا أن سحابة أخرى من غبار انقضت عليه فجأة من حيث لا يدري، غطّت وجهَه واخترقت خياشيمه فدهمته نوبةُ سعالٍ حادة دمعت لها عيناه.

في الخلاء الممتد إلى يمينه على مقربة من سور المدينة العتيق، حيث تنتشر نخلات مات معظمها عطشا أو حرقا، كانت غيوم كثيفة من الغبار تغطي المكان وتتهادى ببطء فوق هامات النخيل. أمعن النظر فإذا حشرات حديدية عملاقة تتحرك في الخلاء وتزمجر وهي تغرز مخالبها في بطن الأرض وتقتلع جذوع النخل مطيحة بها أرضا، ومثيرة سحبا كثيفة من الغبار.

حثّ الخطو مبتعدا عن المكان وقد جحظت عيناه الدامعتان وأوشك أن يختنق بالغبار الذي تسرّب إلى رئتيه. انعطف يمينا ومرق عبر إحدى البوابات الوطيئة التي فُتحت عنوةً في جسد السور السميك، ليجد نفسه وسط حيّه القديم.

اتجه رأسا صوب فرن الحي حيث اعتاد أن يلتقي أصحابه القدامى. لم يكن اليوم موعد لقائهم الأسبوعي، فتمنّى أن يجدهم جميعا هناك، متحلّقين حول نار الفرن التي آلت إلى جمر.

لما صار على مقربة من الفرن وصلته قهقهات الأصدقاء وصوت «القُوبع» الجهوري ذي الرنة المعدنية فابتهج. فكّر بأن «الشلة» كلها هنا، وبأن صديقهم «القُوبع» في أفضل حالاته، وأنّه قد انفرد مرة أخرى بالحديث، مثيرا هديرا من الضحك والتعليقات.

بابُ الفرن الخشبي موارب، كأنما يتوقعون مجيئه. دفَعه بكتفه فانفرج، واقتحم عليهم عتمة الفرن مثل شبح. فوجئوا في البداية فران عليهم الصمت، ثم سرعان ما فرحوا لقدومه وأعدُّوا له مجلسا.

صال «القُوبع» وجال في حكاياته التي لا تنتهي. ضحكوا كثيرا، شربوا أدوارا عديدة من الشاي، وتناوبوا ما شاءت لهم النشوة من المرّات على سحب الأنفاس من «السبسي» المعفّر بكيف جبَلي حرّيف.. إلى أن ارتخت منهم الأجفان وتهدلت الشفاه. وعندما سقطت رأس «إدريس» الفرّان فوق صدره بعد أن دهمه النعاس كان وقت السَّمر قد انتهى، وآن للجمع أن ينفضّ؛ فلا بد أن يحظى «إدريس» بقسط من النوم، قبل أن يوقدَ نار الفرن بعد الفجر بقليل لإعداد خبز الصباح.

ودّع أحمد البهجة أصدقاءه وخرج. ألفى بيوتَ حيّه القديم هاجعةً وسط الصمت وبرد آخر الليل. مشى قاصدا البوابة التي دخل منها، لكنه وجد نفسه، بعد دقائق من المشي، وجها لوجه مع منزله القديم. حدّق في البناية الإسمنتية الجديدة ذات الطابقين، ورأى ضوءا في الطابق الثاني الذي تنبعث منه موسيقى غربية. هُدم المنزل وأعيد بناؤه.. تذكر تلك العجوز الفرنسية الضئيلة التي ابتاعت البيت. تراءت له واقفة وسط باحة البيت على مقربة من نافورة الماء وشجرة الرمان، تمسك خصرها الضامر بيديها وتجيل نظراتها في أرجاء المنزل وعلى وجهها ابتسامة ظافرة.

تخيّل جدرانَ بيته السميكةَ التي عمّرت عُقودا طويلةً وهي تتداعى وتصير أنقاضا تحت ضربات الجرّافة التي سوّتها بالأرض، وتراءت له غيمةُ غبار عملاقة تُغطّي الزقاق وتتهادى على علو منخفض قبل أن تتلاشى ببطء.

مشى بين الأزقة والدروب محفوفا بالغبار. غبار يأتيه من كل جهة ويحاصره. ظنّ في البداية أن رماد الفرن علق بثيابه، فراح ينفض ثيابه بعصبية، لكن دون جدوى.. كلما تخلص من غبار علق به آخر.. حينذاك اكتشف مذعورا أن الغبار ينبَع من داخله، من بين ثنايا ثيابه! فتح فمه التماسا لنسمة هواء فسبقت ذرّاتُ الغبار الهواءَ إلى رئتيه واقتحمت خياشيمه، فأوشك أن يختنق.

* * *

دلف خارجَ السور بإعياء.

أحسّ بذرات الغبار تتخلل شعر رأسه وحاجبيه، فأسدل قلنسوةَ جلبابه.

وقف إلى جانب الطريق منتظرا سيارة أجرة. كلما بدرت عنه حركة تطاير منه الغبار، فأجبر نفسه على الوقوف مثل تمثال.

خرجتْ سيارة أجرة من حيث لا يدري ووقفت على مقربة منه. اندسّ بسرعة في المقعد الخلفي.

لم يكن السائق من النوع الثرثار. انصرف إلى الطريق أمامه، ولم يُلق نظرة على المرآة العاكسة سوى مرة أو مرتين، لكنَّ سيارته كانت متهالكة وهو كان أعشى، فكان يتخبط في حُفر الطريق. تحمّل أحمد البهجة ارتجاجاتِ السيارة العنيفةَ على مضض، وهو يخشى أن تتذرّر أطرافُه ويصيرَ بدنه الهش كومةَ غبار قبل أن يبلغ وجهته.

تكوّم على نفسه في وُجوم، وهو يستعجل بلوغ منزله، وعندما نزل من سيارة الأجرة أخيرا ترك كومة تراب في المقعد الخلفي.

الحي متشح بالصمت. رجلاه واهنتان. شعر ألا طاقة له بعدُ على السير حتى المنزل. مشى الهوينى متمنيا أن يبلغ منزله دون أن يراه أحد، وشعر بأنه كائن في طور التلاشي.

أدخل المفتاح في فتحة القفل، ولم يهتد إلى فتح الباب إلا بعد عنت، لأنه كان يعالج القفل بكامل الحذر خشية أن تتفتت أصابعه، وأراد تفادي إيقاظ زوجته: لن يحتمل أن تراه على تلك الحال.

تقدم داخل البيت بلا صوت تقريبا. لم يكن يُسمع سوى حفيف ذرّات التراب وهي تتساقط من جسده وتنساب فوق الأرضية، وامتدّ خلفه خيط رفيع من التراب من الباب حتى غرفة النوم. كانت زوجته نائمة. تأمل وجهها الهادئ المستغرق وخامره شعور موجع بأنه يراها للمرة الأخيرة.. جلس إلى جانبها فوق السرير ومدّ يدَه نحو اللحاف ليسدله على ذراعها العارية، لكنه شعر فجأة بذرات التراب تتراكم في حلقه وتسد منخريه فشعر بالاختناق. اندفع نحو النافذة وفتح مصراعها بعنف التماسا للهواء فتفتّتت كفه اليمنى. فتح إحدى دفتي النافذة، ثم صعد مستعينا بكرسي. وقف فوق إفريز النافذة لِلحظةٍ وجيزةٍ ثم قفز في الهواء. لثواني معدودة سبح في الفراغ بكامل هيأته تقريبا قبل أن يتفتّت ويتناثرَ كومًا من التراب والغبار في الهواء وفوق إفريز النافذة.

هذا ما لديّ للإفادة به، أنا الراوي، بشأن نازلة اختفاء المواطن أحمد البهجة صبيحة يومه الاثنين الثامن والعشرين من شهر.. لسنة.. ميلادية..

والله تعالى أعلم.

كاتب من المغرب

الحذاء الأسود

مبارك حسني

أزاح طرف الستارة وألقى نظرة إلى الخارج. ستارة؟ لا ليس تماماً، فهي عبارة عن أجزاء من قماش متدلية، ملتصقة ببعضها بفعل الوسخ والغبار الرطب المتراكمين في بقع منها منذ فترة، وقد لطّخ شيء منها يده، لكنه لم يكترث للأمر. الحديقة الصغيرة أمامه مقفرة والزقاق الصغير المحاذي لها يلمعان تحت وطأة شمس الظهيرة. تراجع إلى الخلف والتصق بالجدار للمرة الألف. فقد كان متخفّيا. خوف رهيب يقض معدته ويحرق عينيه منذ نهاية الصبيحة حين اكتشف الملصق على جدار بالقرب من الشاطئ بعد مشوار سياحة لا مبالية في المدينة. كان أدار رأسه من على كتفه اليمنى، ولما تيقّن بأنه كان وحيدا، سارع بالاحتماء بأقرب مكان غير مسكون كان في متناوله كما لو كان مدفوعا بقوة غير مرئي. زعزعته رؤية الملصق بعمق. فقد كانت تخصه بمعنى من المعاني: كان به وجه مغاير لوجهه هو، سواء من الأمام أو من جهة الوجنتين، لكن به بعض الشبه. وجه يماثل محارة لها شكل دائري على نحو ما، وأقرب إلى أن يكون مُسطّحا، ويتسم بصفات آدمية تعلن عنها نتوءات متعرّجة وانتفاخات خفيفة تحيل على آثار حروق قديمة. بالإمكان القول بأن لا شيء يربطه برجل الملصق لولا وجود معطى آخر: الحذاء الأسود. فقد أخذت للرجل صورة في الزقاق الفارغ وهو ينتعل حذاء أسود مثله تماماً. حذاء مديني بسمك غليظ في الأسفل. حينها لم يفكّر سوى في أمر واحد: التخفّي.

لقد كان الشخص الوحيد الذي يمشي بحذاء شتوي في عز أيام الصيف. وبالتالي لا يمكنه مرور الكرام دون أن يلفت الانتباه في هذا المنتجع البحري حيث صعد مؤشر الحرارة إلى درجة قياسية. أربعون درجة في الظل. وكل المصطافين يذرعون الطرقات لابسين نعالا خفيفة أو أحذية رياضية ومايوهات السباحة أو ملابس خفيفة. وهذا جعله يشكل نشازا مثيرا للعين. لم يكن بمقدوره تفسير هربه، خاصة مع وجود الملصق الذي يشكل لغزا بدوره، فقط إعلان بحث عن متغيّب. بحث عن شهود. أمر بالاعتقال على غرار ما كان يشاهد في أفلام الويسترن. والحذاء الأسود هو الدليل الوحيد في قضية غريبة. فقد لوحظ مؤخرا هجوم سحابات من الذباب في سماء المحطة الصيفية. وقد ظهر ذلك لأول مرة حين رتعت ذبابة على بطن ضامر وبراق لسائحة شقراء كانت تتلقى حمام شمس مستلقية على رمال الشاطئ بالقرب من الحاجز المبني وسط الماء أسفل مقهى شهيرة بالمنطقة. فاجأها ذلك وعكر صفو راحتها. وبشكل فطري شعرت بحدث غير عادي. وقد حاولت دق ناقوس الخطر، لكن لا أحد من السكان أعار قولها ما يستحق من اهتمام. وفي الغد عندما لاحت في السماء أولى سحابات الذباب، في ذات المكان بالضبط، وبعد تكاثر الشكاوى، اضطر رجال الدرك لفتح تحقيق في الموضوع.

وهكذا عم الخبر المدينة السياحية الصغيرة، وبعد جمع المعلومات من أماكن متعددة، تم ربط العلاقة بين الظاهرة والرجل ذي الحذاء الأسود. وبالتالي صارت لهذا الأخير أهمية كبيرة رغم صعوبة تصديق ذلك. فمن هذا الشخص الذي يلبس حذاء شتويا في صيف حار؟ الناس هنا يرتدون ملابسهم حسب الموضة وتبعا لحالة الطقس والفصول. هي طريقة إعلان انتماء إلى مجموعة بشرية معينة. وما صدم الناس ليس ما قام به الرجل من فعل بل هيئته التي عدت اختراقا لباسيا نشازا ونافرا أثار استنكارهم واحتقارهم. حقا تحفظت بعض النساء النحيلات بألق وأرستقراطيات المنظر، وتردّدن في اتهام الرجل. لكن هربه وتخفّيه عن الأنظار جعلهن ينحزن إلى الرأي السائد. لا يهرب سوى المذنب. ومن غيره يكون جاء بالذبابة إلى المدينة؟ أما بالنسبة إلى الرجال ذوي الشعور الممشوطة إلى الخلف واللباس البوهيمي باذخ الثمن فقد غلب التنديد في شعورهم تجاه الرجل أكثر من الأسباب في حدّ ذاتها. فوجوده بالشكل الذي ظهر به هو ما لم يرق لهم، في حين أن ظهور الذباب ليس إلا نتيجة. فقد جاهدوا كثيرا ومنذ زمن في الحفاظ على نمط عيشهم وطريقة حياتهم ونقاء بيئتهم. وتساءلوا كيف تمكّن من الانسلال بينهم، وعبر أيّ ثغرة؟

كان وحيدا وجامدا، وكانت قدماه منغرزتين في الرمل، وقد كان يلبس الحذاء الذي يوجد في الملصق. وقد تعرّف عليه، وبعد مرور لحظة الاندهاش أسرع بإخبار السلطات. لكن الرجل اختفى حين عودته مرفوقا برجال الدرك. كان المسكين قد قضى الصباح كلهم يسيح في المدينة غير فاهم معنى نظرات الناس المتلفتة نحوه عند مروره في الأزقة ومن أمام سطيحات المقاهي. وقبل منتصف النهار بقليل اكتشف الملصق. كان الزقاق المؤدي للشاطئ فارغا،

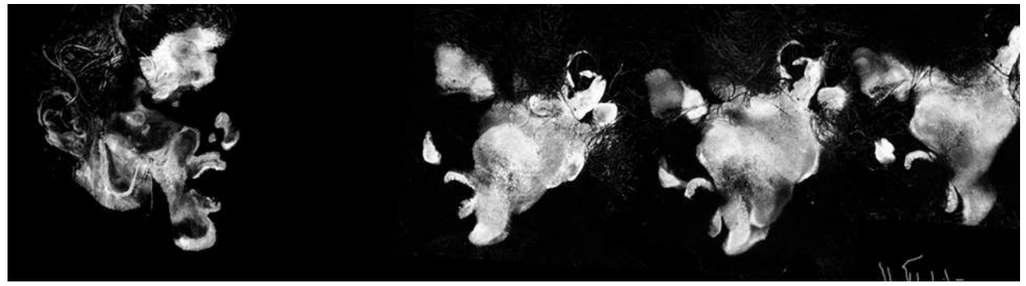

تانيا الكيالي

فأسرع بالدخول إلى منزل التخييم هذا ذي اللون الأزرق الذي يتحد ولون السماء فوقه.

لم يكن من المفترض أن أفز، لا داعي لذلك، فلا أحد يعرفني هنا، فكر في دخيلة نفسه، وهو ينكمش في مخبئه. وها هو يقع فريسة المطاردة والاتهام دون أن يبغي حصولهما. الشيء الذي جعل الشهادات تتقاطر لإغراقه أكثر فأكثر. نادلة بمقهى مواجهة البحر أكدت الشكوك. لقد رأيته عن قرب، وجهه مليء بحبيبات ومجعد طولا مثل قوقعة محارة ملحوسة. تصوروا، وجها كهذا لا يمكن أن يكون لشخص عادي، وحين انحنيت في لحظة خاطفة كي أخدم زبونا بجواره رأيت حذاء، وقد راعني منظره إلى حد أنني قلبت قنينة ماء كانت على الطاولة فكسرت آنية الإبزار، لاحظوا، إني لا أزال أعطس لحد الساعة. أمتأكدة حقا أنت بأنه هو. بالطبع هو، فقد كان يلبس الحذاء الأسود. لا أحد غيره. قالت وهي تعضد كلامها بإشارة من أصبعها إلى الملصق على الجدار الداخلي للمقهى.

صار الحذاء الأسود وسيلة إثبات لدى محجوزات المحققين. فقد تخلص منه الرجل في الشاطئ قبل أن يختفي عن الأنظار كما لو كان يتخلص من أداة جريمة. لماذا أتى فعلا كهذا ؟ لا جواب أسعفه. وظل يردّد الأمر بينه وبين نفسه منكمشا في ظلال منزل التخييم. وفي الوقت ذاته، كان رجال الدرك يتداولون في أمره مع الساكنة باحثين عن المآل المخصص له في حال اعتقاله. والحل الذي أجمع عليه الكل هو الطرد، لكن هل يصح هذا القرار في عصر الحرية والديمقراطية؟ الطرد هو عين الصواب، فخروجه من المدينة سيؤدي على الأرجح إلى رحيل الذباب عنها. فقد كانت حياتهم تنعم بالسلام منذ زمن وقبل أن يحل بين ظهرانيهم.

فمدينة التخييم هاته فضاء للحلم، جنة طبيعية يزورها في العطل الكثيرون لتذوّق أطباق المحار والنبيذ الأبيض. ومياه الحوض عدنية الطابع تهدّئ من الاندفاع القلق وتعالج الأحزان. وهو ما رام الرجل ذو الوجه المحاري تحقيقه حين دخلها، أن يصفّي دواخله من المنبع، لكن غاب عن ذهنه تأثير الطقس وأن للسكان أحوالهم وللمكان عاداته. فالسنوات التي قضاها بعيدا عن المدينة، تحت أجواء الشمس الساطعة، أنسته كل هذه الاعتبارات. وجهل بأن الذباب اختفى من الشاطئ بمحاذاة الحوض. وقد يكون بعض منها قد تسلل إلى أمتعته في غفلة منه عندما عزم على السفر والمجيء إلى هنا. وتذكر الملصق الذي استوقفه على حين غرة وهو يتوجه إلى مزرعة المحار التي يشاهدها الآن من مخبئه في الجهة الأخرى للزقاق السابح في نور الشمس. وشعر بصعوبة التنفس. رجلاه حافيتان وحنجرته جافة، والتعب أخذ من مأخذا. فتح قليلا أحد مصراعي النافذة المغبرة الوحيدة، فدخلت سحابة ذباب صغيرة ما لبثت أن التصقت بقطع الستارة اللزجة. أحس بالقرف وكاد يسقط خلفا. فاستبدت به رغبة الانتهاء من الأمر كله. فتمسك بحافة النافذة. وبقفزة واحدة نط خارجا.

كان الليل قد شرع يغطي سماء المدينة وبدأت المصابيح تشتعل في كل مكان. ومشى الرجل.

الغريب أن لا شخص أعاره انتباها. كان المصطافون يتجوّلون منتشين ببرودة المساء الملطّفة. وحاول أن يحدق بإلحاح في وجه بعضهم. تجاهلوه بالكامل. واثقا ذرع أزقة عديدة حافي القدمين. من حين إلى آخر كانت بعض التجمعات البشرية المتجمهرة حول واجهات تثير اهتمامه. ورأى رجلا وامرأة مسنين يحدقان في ملصق على حائط بالقرب من كنيسة ذات معمار ما بعد حداثي. وتقدم نحوهما ونظر بدوره، لكن ما رآه جعله يرتجف. كان رجل في الملصق وكان حافي القدمين هذه المرة!

وسمع صوت نسويا يحدثه:

- لقد عرقت كثيراً هل عادت الرؤى من جديد؟

- نعم. لكن لا عليك.

أجاب بمشقة كما لو كان يستعيد وعيه.

أجال البصر حواليه. أناس جالسون إلى طاولاتهم يرتدون ملابس خفيفة وفاخرة، يأكلون ويشربون ويتكلمون ويبتسمون ويداعبون بعضهم البعض بالأذرع أو يتبادلون القبل.

نظر إلى الأرض ولاحظ أن قدميه كانتا حافيتين، ثم تطلع إلى ملصق على الجدار الداخلي للمقهى والذي كان ينعكس على الواجهة الزجاجية بالقرب من السطيحة على بعد أمتار من طاولته.

- يجب أن أتوقف عن السفر، وأن أستقر في مكان ما. قال لزوجته.

كاتب من المغرب

فاكهة الممشى

محمد الشايب

حزينا جدا. سرت في الشارع دون هدف. لا أدري لم أنا حزين! الشارع مملوء بالمارة، وأصوات الباعة تتعالى. في الحقيقة هناك أكثر من سبب للحزن.

ظلت خطواتي ترسم على الإسفلت، لكن المدينة لم تكترث بي ككل مساء. سنواتي تتوالى مسرعة، والشيب أخذ يشق طرقه، والمدينة بلهاء.

من أين يأتي كل هذا الحزن؟!

في الشارع أيضا متسولون، ولصوص يتصيدون الفرص، وفتيان يغازلون فتيات كالورود، وعاهرات يبحثن عن الزبائن.

هناك أكثر من سبب للحزن، واصلت المسير، والمدينة لا تكترث بي، مثقل بالتوجسات أهيم في أنحائها، وهي لا تريد أن تطلق سراحي. مساجد وأضرحة واكتظاظ وعذراوات، وأشجار تين وزيتون، وارتفاع وانبساط، هكذا تقف المدينة، تظل واقفة تلبس صمتا لافتا للنظر، وأنا الآتي إليها، عبر كل الطرق، كنت عابرا، فأصبحت مقيما متيما، قلت وقال وقالت، قلنا جميعا: لماذا هي المدينة هكذا، تفرح في الصباح حين يتوجه الأطفال إلى المدارس، ويشرع عمال النظافة في تنظيف الشوارع، وتحزن في الليل حين تهجم الحشرات الطائرة والزاحفة؟!

سرت طويلا، ثم عرّجت على المقهى، لا لم أعرّج على المقهى، اخترت أن أظل وفيا لممشاي ذاك المساء.

وجه المدينة يتلألأ حزنا

والعابرون المقيمون مثلي

يرفعون لافتات غائمة الأديم

ويسيرون

يمضون

إلى حيث لا يخطئون حتفهم.

تجاوزت الشارع المكتظ بالمارة، وحائط الساعة المعطلة، وحديقة يؤمها نساء وأطفال، النساء يغرقن في الثرثرة، والأطفال أمامهن يلعبون، وتجاوزت أيضا المساجد والأضرحة والقيسارية والكوميسارية والبلدية، ثم ولجت زقاقا ضيقا، وقلت «ما أوسع العيش لولا ضيق الأمل». في الحقيقة لم أقل هذا، سمعت شيخا في سن الأشواك يقوله، فردّدته.

كان الشيخ مفعما بالوهن. من أين يأتي كل هذا الحزن؟! كانت خطوات سكرانة، هناك أكثر من سبب للحزن. تكلّم الشيخ، وظلّ يسير، الزقاق الضيق أيضا يرفع لافتة منشرحة الظهر، ردّدت نفس الكلام، وسرت وراءه. كهل في مقتبل العمر يسير خلف شيخ في منتهى الأمر، والمدينة أخذت تبتعد، وزقاقها الأخير يلفظ أنفاسه، وأنا والشيخ نواصل المسير، والليل يضمّنا، أنا جئت من وسط المدينة، لا أدري لمَ جئت! والشيخ جاء من حيث لا أعلم، وجدته يسير، فتبعته، وجدته يتكلم، فرددت كلامه، لا أدري هل كان سيفعل نفس الشيء إن كنت أنا السابق؟!

تركنا المدينة تنام على جنب التعب، وتوغّلنا في حقول القمح والشعير، وبين أشجار التين والزيتون. ذهب ضوضاء المدينة، وأرسل القمر خيوطه الفضية، وكفّ الشيخ عن ترديد لازمة، واختفت اللافتات الحزينة، ومع ذلك ظللت حزينا، من أين يأتي كل هذا الحزن؟! في الحقيقة هناك أكثر من سبب للحزن (أي حقيقة ؟!).

سرنا بين فجاج الليل، الشيخ قصد اليمين، وأنا قصدت اليسار، هو ضحك وأنا بكيت، هو توقّف لوهلة قصيرة، وأنا ظللت أسير، هو نسي، وأنا تذكرت، هو انطلق من جديد، وأنا توقفت لأعاود المسير، هو صعد شجرة التين، وأنا صعدت شجرة الزيتون، هو رأى في القمر صورة أبيه، وأنا رأيت صورة أمي، هو نزل للتو، وأنا لم أنزل، هو أقفل عائدا إلى حيث لا أدري، وأنا انتظرت قليلا ثم نزلت، وسلكت طريق العودة. لا لم أسلكها في تلك اللحظة، أجّلتها إلى حين، لأني تذكرت أمرا ما، تذكرت أني نسيت، قبل أن ألتقي الشيخ صادفت امرأة تمشي كشجرة تتمايل أغصانها، وقد أثقلتها الفواكه ذات الأشكال والألوان المختلفة. انبهرت بما شاهدت فاستوقفتها، ورأيت عيونا تجري نبيذا، وإذ كنت في أوج عطشي، أخذت أشرب وأشرب.. لكني لم أزدد إلا عطشا، فلاحظت المرأة ذلك، وسلمتني فاكهة، ونصحتني أن أكلها بعيدا عن إخوتي، فخبأتها بين شفتين جافتين، ثم واصلت المسير، ولما صادفت الشيخ، سرت وراء ونسيت!

نسيت أو تذكرت، واصلت أو توقفت، عدت أو ذهبت، عطشت أو ارتويت، نمت أو استفقت، أصبت أم نجوت، كبرت أم صغرت؟ لا أدري لا أدري لا أد..!

الحقيقة الوحيدة التي أدركتها أني أنا الشيخ، وأنه أنا، كلانا شخص واحد كان يحاول قطف فاكهة الممشى بطريقة ما، لكن هيهات.

كاتب من المغرب

سعد يكن

الجسر

مصطفى لغتيري

مزيج من الأصوات حاصرنا، ونحن في طريق العودة، فأثار ذلك بعض القلق في نفوسنا.. كلّ منّا احتمى بذاته، بحثا عن توازن وهمي، قد يخفف من حالة القلق، التي تملّكتنا.. المساء يتسلل بخطى بطيئة.. خلسة يبسط يديه السمراوين على المكان من حولنا.. مجهدا كنت أسحب قدمي المتعبتين، وفي أعماقي هواجس وليدة، أحاول كبحها. التفتّ نحو رفيقيّ، فبدا لي أمرهما أسوء ممّا تصورته.. علامات الإجهاد بادية عليهما، بيد أنهما كانا يكابران، محاولين مداراة الخوف الطافح من ملامحهما.

خاطبني أحدهما قائلا:

- لا علامة تدلنا على الجسر.

لم أرغب في إذكاء جذوة القلق لديه، لذا أجبت بمواربة:

- ربما نكون قد أضعنا الطريق الصحيح.

قلت ذلك، وأنا أحاول إظهار بعض التماسك.. الحقيقة أن ما تفوهت به ألقى الروع في قلبي، وكأنني لست قائله.. كنت أمام الحقيقة السافرة: إننا تهنا، والأنكى أننا على أبواب الليل، وهذا يعني أننا قد نقضي ليلتنا في هذا المكان الموحش.

أردف رفيقي متسائلا:

- ما العمل؟

تجاهلت سؤاله. حثثت السير نحو الأمام، محاولا التركيز، علّني أتبين معلما، يدلّني على الطريق. أصوات الطيور الملعلعة ضاعفت من التوتر في نفسي. قدماي تصدمان بالأوراق اليابسة. بصري أصابه بعض الغبش. بصعوبة أصبحت أميز الممرات المتداخلة. وحده طيف الجسر يدغدغ عواطفي. وصولنا إليه سيكون حتما نهاية كابوس مزعج، فأن يقضي المرء ليلته في هذا الدغل، متدثرا بالعراء أمر من الصعب تحمله. بعض اليأس طفق يتسرّب إلى ذاتي، كان لزاما عليّ أن أفكر في بدائل أخرى. حالتي لم تسعفني في ترتيب أفكاري. واصلنا التقدم. الظلام غدًا حقيقة يصعب تجاهلها. كلما تكاثف امتصّ بعض الأمل الذي ظل يراودنا.. فجأة ارتفع صوت أحد رفاقي مستبشرا:

- هناك ضوء ما.

استولت علينا المفاجأة السارة. دون تباطؤ هرعنا نحو مصدر الضوء، الذي يلوح من بعيد رغم كثافة الأشجار. حين أشرفنا عليه، صدمنا وجود بناية ضخمة. كل شيء فيها غريب. أسوارها، شرفاتها، هندستها، وكأنها كتدرائية من القرون الوسطى.. كبست الدهشة على أنفاسنا.. أبدا لم أتخيل وجود بناية مماثلة في هذا المكان.. ألا يتعلّق الأمر بمجرّد حلم؟ حين نظرت إلى وجهيْ مرافقيّ، كانت الحيرة تأخذ بلبّيهما.. بكثير من الفضول والرهبة تطلعنا إلى البناية.. الإنارة داخلها خففت من وطأة الوجل في قلوبنا.. طفقنا نطوف حولها متوجّسين نستطلع ما بداخلها. توقفنا عند البوابة.. لا شيء فيها يدعو إلى الريبة.. تبادلنا النظرات.. أدركت أن رفيقي يفكّران في الدخول. دنوت أكثر. اشرأببت بعنقي، محاولا رؤية ما بداخل البناية. الصمت مطبق على الأجواء.. بعد تردّد لمست الباب، فإذا به ينفتح تلقائيا. انقبض قلبي.. بعد هنيهة دخلنا تباعا. التفت حولي لعلي أرى أحدا.. لا شيء.. دنونا من الباب الداخلي فانفتح هو الآخر من تلقاء نفسه، وإذا برجل يتطلع إلينا باسما. لباسه أسود. سحنته صهباء. يبدو غريبا في كل شيء: وجوده، سمته، ملابسه. لاحظ ترددنا، فدعانا بإشارة من يده.. كالمسحورين تقدمنا، وكأن قوة خفية تجذبنا نحوه.. ابتسامته العريضة بدّدت الكثير من تحفظنا.. في الداخل بدا كل شيء مرتبا، وكأنه كان في انتظارنا.. زحفنا نحوه ونحن نسترق النظر إلى جنبات البيت الفسيح. لا شيء مألوف. لوحات وتحف لم تقع عيناي على مثلها من قبل. لم يستعجلنا الرجل. فسح لنا المجال للنظر إلى ممتلكاته وتحفه. ابتسامته لم تفارقه لحظة واحدة.. سيطرت على انبهاري محاولا طلب المساعدة من الرجل، وكأنه يقرأ أفكاري، بادرني قائلا:

- إنكم تائهون.. ضللتم طريقكم وأنتم في عمق الغابة.. خففوا من روعكم.. لستم الأولين و لن تكونوا -طبعا- الآخرين.

نظرت إلى رفيقي.. في أعماقي تردد إحساس مريب.. هل يتعلق الأمر بحلم؟ أإلى هذا الحد يصبح الواقع بهذه الغرابة؟

انتزعني الرجل من تساؤلاتي بقوله:

- اطمئنوا. لدي أحصنة ستوصلكم إلى الجسر.

كدت أفقد صوابي، وأنا أتلقف كلماته. خطا الرجل نحو باحة البناية، ونحن خلفه، لا نفقه شيئا ممّا يحدث أمام أعيننا. عرج بنا نحو اليمين، فإذا بنا إزاء إسطبل. حاولت إخبار الرجل بأننا لا نحسن ركوب الخيل. مرة أخرى، التفت نحوي، وقال بلهجة الواثق:

علاء شرايي

- لا تخشى شيئا.. الأحصنة ستتكفل بالأمر. ما عليكم سوى امتطاء صهواتها. إنها مدربة على فعل ذلك.

وددت استفساره عن سبب مساعدته لنا رغم أنه لا يعرفنا. حين التقت نظراتنا لمحت تضايقا في ملامحه. لم يشجّعني ذلك على الكلام، فلجمت السؤال في أعماقي.

ودعنا الرجل.. ركبنا الأحصنة، و ما هي إلا لحظات، حتى أخذت الخيل تطوي بنا الأرض طيًا. كاد خافقي يتوقّف عن النبض.. لكن بمرور الوقت تملّكني إحساس خادع بأنني فارس لا يشقّ له غبار.. لم يمض زمن طويل حتى أحسسنا أننا في الطريق الصحيح، فرغم الظلمة من حولنا شعرنا بقربنا من الجسر. رائحة الرطوبة المنتشرة في الأجواء أشعرتني بذلك. وأنا على صهوة الحصان توقف ذهني عن التفكير. وحدها النشوة بمسابقة الريح هيمنت على وجداني، حتى إن هذا الوجود المثير للبناية وللرجل وللأحصنة غاب عن ذهني.

بعد زمن قصير وصلنا الجسر. توقفت الأحصنة على بعد مسافة منه. دنا مني مرافقي. بادرني قائلا:

- وأخيرا.. ها هو الجسر.

بتوجّس سألت مرافقي:

أليس من الأفضل التخلي عن هذه الأحصنة، ونتابع السير على أقدامنا؟

ردّ أحدهما:

- و لم لا نتابع على ظهورها؟ الوقت ليل، والمرء لا يضمن الوصول إلى بيته سالما. وفي الغد نردها إلى صاحبها.

لم أرغب في مواصلة الجدل. التزمت الصمت، وفي أعماقي ينوس إحساس بأن هناك شيئا ليس على ما يرام.

تقدمنا نحو الجسر.. وبينما نحن نعبره حدث ما لم يكن في الحسبان. بغتة، و كأن الخيل رأت أشباحا مرعبة.. انتفضت فزعة. رمتنا من على صهواتها، وسقطنا في مياه النهر، ثم قفلت عائدة من حيث أتت.. تبللت ملابسنا. بيد أنه من حسن حظنا لم نصب بأيّ أذى.. تسللت ارتعاشة إلى جسدي.. حاولت جاهدا مقاومتها.. غادرنا المياه وارتمينا على ضفة الوادي. ما يحدث أكثر من قدرة استيعابنا. لذنا جميعنا بالصمت. كل منّا انشغل بنفسه، محاولا ترتيب دواخله بالشكل الذي يجعله يفهم ما يقع.

لحظات فقط كانت كافية لانتشال أنفسنا من الوجوم الذي ران علينا.. لمحت صديقي على الجسر يتعثر بخطواته المرتبكة. بدا لي كشبح تائه.. لم أتباطأ في مكاني.. استجمعت أنفاسي.. انخرطت في المشي.. حين بلغت منتصف الجسر، التفت نحو الصديق الذي تخلف ورائي.. ناديته حاثا إياه على اللحاق بنا، ثم استأنفت السير نحو وجهتي.

صباح اليوم التالي، أبدا لم أستطع الانفلات من شبح البناية.. وجودها الملغز أثار الشكوك في نفسي.

حين التقيت بصديقيّ، عبّرت لهما عن هواجسي. نصحاني بنسيان الأمر. بعد لحظات ودعتهما، وبشكل لاإرادي وجدت نفسي منجذبا نحو الغابة.. في دواخلي توق لمعرفة سرّ البناية. توغلت في أعماق الغابة، وعبثا بحثت في كل مكان.. حين أخذ اليأس يتسرب إلى نفسي، انتبهت إلى أنني في مكان لا أتبين معالمه.. حينها بدأ القلق يساورني. طفقت مجددا أبحث عن طريق العودة، قبل أن يفاجئني المساء بحلوله.

كاتب من المغرب

غافية على ركبة الزمن

هيام الفرشيشي

كانت الكاميرا ترسم الفضاء الذي نشأت وشبت فيه على شكل متاهة، يحيط بها الجبل من كل الجهات كجدران تحتفظ بسر أحد الفجاج التي تنبت فيها حكاية تردّد أصداء حلم قديم، في بقعة منسية تغيب عنها أبسط مظاهر الحياة، كتب عليها أن تبقى منذ التاريخ القديم بدون حمام، أو معبد، كأنها لا تصلح للعيش، رغم بعض الشواهد الأثرية المتفسخة المشرفة على البحر.

حين تتحدث عن شهادتها عن المسلحين الذين سكنوا الجبل وقبض عليهم في «الفج»، وأفلتت من قبضتهم كان عليها أن تمسك الخيط الأول من الحكاية. هي طالبة في علم الاجتماع تدرس في العاصمة، عادت إلى مسقط رأسها لتقوم بدراسة عن حضور الفكر الخرافي في تلك الرقعة، إذ تسكن «الفج» حكايات ترزح تحت وطأة الذاكرة، تنهل من مخيلة متشابكة الخطوط، تحمل بين طياتها الرعب، ويردد البعض أن ذلك الفج الذي كتبت على جدرانه إشارات مبهمة، هو أحد السجون الرومانية القديمة، ما زالت الأرواح المعذبة تطلق فيه ليلا عواء الألم. بل هو مقبرة موحشة مسكونة بأشباح الماضي.. وتفصح بعض ألسن سكان الجبل عن حكايات غريبة عن سكانه القدامى الذين حفروا البيوت الشبيهة بكهوف.. مع تحذيرات تنفر من الاقتراب منه إذ تسكنه الزواحف والحيوانات الضارية.

لا أحد تجرأ على دخول الفج منذ هروب سكانه مع قدوم لبؤة خالوها «عبيثة» أحد الجنود الرومان القدامى الذين كانوا يعذبون البربر في هذا الفج الذي لم يذكر في كتب التاريخ، إذ لم تقترب منه معاول الباحثين بعد، وكأن هذه المنطقة كتب عليها أن تحتفظ بأسرارها القديمة. في تلك الخطوط ذات المجاهل الغريبة، تهمس لها ذاتها بأن المتاهة تغري بالولوج. وأشارت إلى تلك العتبات التي تؤدي للفج. كل المنافذ تنفتح لتجهض الخوف من تلك التفاصيل المتخفية ويدعو مقدم البرنامج عالم آثار ليعطيه معلومات عن الفج، فيرد بنبرات خالية من اليقين: «أعتقد بأنه كان ثكنة قديمة وأنه بقي مغلفا بالأسرار والصمت».

تتسع القرية الجبلية لكهوف نحتت في الجبل الذي ينفتح كرحم امرأة وهي تتهيأ لوضع وليدها، ويتسع لنوى من البيوت المتناثرة مبنية بأياد تملس الطين، وتحفر الصخر. وفي مدخل القرية يجلس كهل على صخرة، يعزف على عود متآكل لحنا يوتر السامع، لحن كعويل ضاج بالأسئلة، وما إن ينساب ذلك الصوت في الفضاء حتى يشعر المار من هناك أنه ضائع في متاهة الحلم. تبعثره ألحان الفوضى، يفقد تركيزه، يبعثر أوراق ذاكرته، تصاحبه ترنيمات ذلك الكهل كصرخات تدوّي، تتحاور الأصوات وتبدأ في سرد مقاطع الحكاية. عن المعذبين في الزمن الغابر تصفع السلاسل والسياط ظهورهم.

«لقد داست أقدام الغزاة أجساد البربر، فلم تستو مع التراب بل خلعت الأرواح من تلك الجثث وحلقت في صور هلامية تنكل بكل الهامات التي نكلت بها. وكنت أستمع من خلال صوته إلى وقع السياط على تلك الأجساد التي تسترجع أصواتها رغبة في فك القيد والطواف بديار الجبل المتناثرة».

في المساء تستيقظ أصوات النواح تنبعث من حناجر سكان المقبرة القديمة في الفج، ويسمع قرع الطبول، يصاحبه عواء الذئاب الذي يبعث الشعور بالوحشة، إذ ينبري كالعويل، حيث تستفيق أرواح السجناء في أرضهم، تلك الأصوات التي بعثت حالة من التوتر عند أهل الجبل وهم يقاومون الشعور بحضور الموتى الذين يصفعون حالات الطمأنينة.

ومن الغد صباحا كي تطمئن تلك الأرواح وتتحرر تمارس النسوة والفتيات بعض الطقوس، يرمين الملابس السوداء في قمامة ويتم إحراقها. ويتطهرن في البحيرة، وعند السباحة في مائها اللماع، تنقطع كل تلك الخيوط التي تشد هؤلاء إلى ذكريات التعذيب القديمة، ثم يصعدن نحو زاوية متصوف، أصبح جزءا من ذاكرة القرية الجبلية، وتقطع الفتاة التي تظهر في التلفاز الطريق معهن..

تتحدث الفتاة عن تلك الطقوس «يتوسط الشيخ المجلس، ودراويشه ينشدون الأذكار المشبعة بالحس، والالتحام بالجسد. وتعتقد النسوة أن في ريقه بركة، والشيخ صاحب الأفعال الشبقية يمتص رحيق الصبايا، ويوهمهن بأن البركة قد طفت على الكون، لتهدأ أرواح المعذبين في ذلك الزمن الغابر. تتكشف رموز الشهوة على جدران غرفته الأشبه بالكهف كبقايا اللحظة الملطخة».

تنقل الكاميرا تصميم المبنى البسيط الغريب، الذي يسكن فيه الشيخ، وتشير الفتاة إلى ذلك الباب الصغير المغلق بأقفال صدئة، وتعقب، «كنت أتساءل إلى أي منفذ يؤدي؟ والتراب الأعلى من أرضية الباب ترى ماذا يوجد تحته؟ قد يؤدي إلى كهف»، لكنها جوبهت بإجابة الشيخ «لا يمكن الدخول إليه، قد يكون «دغارة ثعابين»؟ بل هو مضجع الذين ماتوا تحت التعذيب وتقام لهم

نور بهجت المصري

طقوس الدروشة لتنام أرواحهم في سلام..».

غادرت تلك الزواية، وقد بقيت في ذهنها صورة الفتيات اللاتي كن يحملن بعض السلال المحشوة بالهدايا للشيخ، ويدخلن عليه بالتداول، ثم تخرج الواحدة منهن بسلة خاوية، وفي عينيها تصميم حاد، ذلك أن أغلب الفتيات اللاتي يزرن الشيخ تظهر عليهن نعمة الثراء. مع ذلك بقيت الأرواح المعذبة تطلق عواء الألم ليلا في جبل أشبه بمقبرة موحشة مسكونة بأشباح الماضي، وفي الصباح تتعالى أوتار ذلك العود المتآكل، ليستفيق الناس على ذكرى بعيدة، وأخرى قريبة. حين ترتسم ألوان الكهوف المتناثرة بظل داكن، أشجان تبكي الضحايا والجرحى النازفين دما، في هذا الجبل الذي تربى فيه الذئاب البشرية للانقضاض على شباب القرية، دون أن تعرف مخابئهم. فلا يغادر الحزن فضاء الجبل، وقد قرعت الموسيقى أجراس الكلمات.

تأخذها قدماها إلى جولة قريبة من الفج، لتبتعد قليلا عن الجو الجنائزي، فيستنهض خيالها صور الفج وخربشاته ورائحته الغافية على ركبة الزمن القديم، ويخاتلها الهدوء الآسر وهي لا تستمع إلا لوقع أقدامها، وكل ما كانت تعيه في تلك اللحظات أن رحلة ولوج الفج هي رحلة الهرب إلى متاهة الذات، وعيناها تبحثان في أحد الكهوف عن صورة ناسك أو كاهن يتأمل داخل المعبد فإذا به يعود إلى قلقه وضجيجه.

في تلك الأثناء وحين كان الجبل يلعق جراح أبنائه المغدورين، تناهت إليها أصوات غريبة، فاختبأت وراء صخرة تلفها الأعشاب العالية، قرب الفج تمر فتيات يقتربن من عتبات الفج، وبعد لحظات يطل هؤلاء الدراويش الذين يعيشون في الزاوية مع الشيخ، كانوا محملين بحقائب صغيرة محشوة بالأغراض، تأخذ كل واحدة منهن حقيبة وتضعها تحت جلبابها، وتلتفت يمينا ويسارا وتغادر. لم تقو على فك طلاسم المشهد إلا حين تفطن إليها أحدهم، فلم يسلم حقيبته للمرأة بل فتحها وأخرج منها بندقية وقد كانت محشوة بالبنادق والذخيرة على ما يبدو، ووجهها نحوها..

تدفع جسدها بقوة في الطريق الوعر الذي ينبسط أمام رغبتها في النجاة، وكانت عارفة بفجاج الجبل وتشعباته، توالت الطلقات في كل الاتجاهات في جبل يطوي مسافات الحكاية، ويأسر بعض تفاصيلها ويدفعها إلى فوهة العتمة، تركض، فينفتح الطريق، يلتحم بتجاويف النفس، تنبري خطوط الآتي مثقوبة بالمجهول. وفي تلك الخطوط يرتسم وجهها يدعوها للهرب من فجوات الجبل.

تحاصرها صورة الشيخ، وتقول إنه الوحيد العارف بمنافذ الجبل وسراديبه التي تنفذ به نحو القرية المجاورة، وكل المغاور التي تؤدي إلى جوف الجبل وتطيب فيه عزلته، أيقنت أنه يسهل لهؤلاء نقل السلاح ويؤويهم مدعيا أنهم دراويش.. كان عليها أن تختبئ، وتنزوي في عالم رهيب في صمته وفي خشوعه، يستدعي الصحو والاستعداد لكل طارئ، فقد تخرج بعض الزواحف من إحدى الحفر. أو يهاجمها الدراويش بأسلحتهم..

تخرج الآن من مخبئها وتطل عبر الشاشة وتقول بنبرة حازمة: «أجل كنت أنا من تفطن إلى تلك العصابة التي تهرب السلاح عبر منافذ الفج، وتقوم الفتيات بنقلها إلى الشيخ إلى أعلى الجبل فيخفيها في ذلك المخزن الذي يغلقه بسلاسل وبأقفال صدئة ليوحي أنه لم يفتح منذ مدة، لقد هرّب إليه الدراويش السلاح والمال من الضفة الأخرى المفتوحة على البحر..».

كاتبة من تونس

طيّارة الريح

يوسف بوذن

1

حكاية على شكل بكاء:

كانت الطيور تسافر بعيدا، إلى أن تنطفئ من عيني، إلى غاية البداية.

في هجرتها، كانت تصل البداية لتبدأ.

وفي الطريق رأيت أسرابا تتعجّل الثواب، وتنتظر. نامت على حافة الخطوات فنبتت أحجارا وظلالا وساقية في جبل.

مرّت الطيور، حطت على الأحجار، ذاقت ماء الساقية ثم أخذت رداء الظل وأوغلت في هجرتها، قد تكون السحابة مطرا وفيرا.

وكان قلبي كل أسراري، أجد دفاتر وآلاما جارحة ومغامرات بريئة قد لا تعني شيئا إذا حكيتها لكنها حياتي كلها.

في قلبي كلّ شيء، فمثلا هناك مكتبة أضخم من قلبي، وأفرشة أمّي العتيقة ولوحات كثيرة، كثيرة لدالي وصلاح طاهر، ومكان لامرأة. هل تكفي أحضانها لاحتواء يتيم من المهد إلى اللحد؟ وتتوّج الخد الآن بدمع الزهر، جاء البحر، فمدّي يديك إلى ذاكرتي المالحة، امنحيها أنسك لعلها تورق بعدك سباخي. وفي قلبي كرسي، يسبح في دمائي، أستضيف كل ليلة من أشاء، ابن عربي قال في الليلة الماضية «والعمر إنما هو منام في منام وإذا كان الأمر على ما قرّرناه فاعلم أنك خيال وجميع ما تدركه ممّا تقول فيه ليس إلا خيال. فالوجود كله خيال في خيال» (1).

ليت الفناء الذي يبقيني يكون من ضياء أسفارك يا شيخ المآل.

ترجموني: لماذا تبكي اللغة بين يديّ، تبكي إلى قدميّ؟ كيف أسكتها، وأضيف لها بكائي، وأبكي إلى قدمها؟ يذكرني المداد بحريق الكلام، نائما في صورة الطفل، وكان وجهه مجالا للبهجة والقبلة الآتية. وتلهو أنامله بسبحة يجدها في منامه، وسرعان ما تتطاير حبّاتها وترقص أمام عينيه فتولد شفتاه، وينهض المداد خلقا سويا.

كان الطائر يهاجر إلى أن ننسى عودته، ثم يعود بالسماء، ويقول أشياء عن الذاكرة والمصير. سأحكي. جاء في قلبي:

كانت سعاد تبكي خلف بيتنا، وتمسح بطرف جبتها دموعها، لم أكن أدري أنها تبكي، وتمنحني وجها بريّا للأمطار.

- لم تبكين؟

- سمعت أبي يقول إن سعاد تكبر، ومن رأيي لقد مضى زمن الرعي.

تعالي إلى صدري، تعالى الانكسار الذي أحناك إلى مداري وأذاب ظلينا في المداد.

كنا نرعى الأغنام في الجبل المحاذي لآلنا، وكنا نحفر على وجه الصخر اسمينا ويمرّ المطر فيغسلهما، فيصيرا وشما جبليا، ذاكرة.

وكبرنا مع الأعشاب ومياه الينابيع، كنا نحس دائما بأن ماء الجبل يسقي روحينا، كان الماء سؤالا بين شفتي سعاد:

- من أين تأتي هذه المياه؟

وتنظر إلى الفجوة لعلها تكتشف السر، واكتشفت أنا شيئا آخر في فجوة صدرها.

قرب العين كانت شجرة التين تهزّ أوراقها وتكشّف صدرها عن تينتين، شربت حفنة الماء، شيء ما في صدري تفتّح فانسحبت نسمة مجهولة إلى مكان الفرح لتوقظه. فرحت. كانت أمي تقول:

- التين ممزوجا بالعسل شفاء للصدور!

من أعلى الجبل كنت أرى على يميني المقبرة هامدة في صمت مخيف، المكان الوحيد الذي يرهبني ويشتت بهجتي، مكان لا يحبه الأطفال ويُبكي الكبار!

تسألني سعاد عندما لاحظت شرودي:

- عندما نموت، أين نذهب؟ ولماذا لا نعود؟

وأضافت:

- قالت لي أمي عندما نموت نصعد إلى السماء، إلى هناك.

وأشارت بسبابتها إلى الأفق.

قلت:

- ذلك هو المكان الذي يليق بنا، إلى هناك نطير معا ونتلاشى في ذرات الهواء، لكن قبل أن نذهب إلى ذلك المكان خلينا نلعب ونرقص ونحلم لننسى احتمال أننا يمكن أن نفترق. لن نفترق «سعاد»، ونظرت إليها، كانت عيناها توافقني وتخجل أناملها قليلا.

ومن أعلى الجبل، أيضا، كنت أرى زينب زوجة رشيد تطرد دجاج الجيران من عتبة الدار، «فاطمة « تكنس فناء الدار، و»مريم» جاء دورها لتهبط إلى البئر، تتعمّد الذهاب لتلتقي بـ»سعيد». جمعهما

بكري بلال

الماء وصنع للنساء حكاية.

أمي تعرف كيف تصنع أكلتي بالسكر، كنت أنتظر أبي حتى يعود من السوق، لتغرقني يداه بالتمر، كانت يده مَرجِعا للفقه، يأتي الأهل إليه ليأخذوا يده حيث يتعذر الإجماع. وكانت أمي تقول:

- في عيني ولدي امرأة أراها قادمة، توشك أن تنزل من جفنه وتسلّم علينا.

لكنها عندما تحدث أبي تسمّي المرأة باسمها:

- وجدت في عينه سعاد تؤم أفراحه. ابني عينه على سعاد.

وتدندن أمّي أغنية بربرية جميلة، سعاد كانت بين ضلوع الأغنية ولا تغيب في صوتها.

غنت أمي:

جاء الفارس من الأبعاد
من الأبعاد النائية
وأخذ اليمامة من عرشنا
واستوى في السماء
والنعمة حكايا في حقولنا
والصبايا سنابل الحصاد
نقرّب لليمامة أهازيجنا
والحناء
إذا عادت... إذا عادت.

خرجت لألقى «سعاد» وجدتها تنسج بساطا جديدا، في عمرها تصنع الدفء وكلام الأتراب.

كنت أظن أنني الفارس القادم من الأقاليم البعيدة، لأحملها إلى مملكتي.

كيف لي أن أتوّجها بالكلام الذي يحبّها وهي التي تقلدني أجنحة بيضاء وتسكنني في أصوات العصافير.

وعندما كنت أبوسها، كنت كمن يثأر لكل المفازات وللأرض العطشانة. أبوسها وليس في العسل إن كان في المفاوز والجبال خراج!

أبوسها، كلمة كانت قبل الفقه، وزمن من السكر و اللجة المرمرية. يتورّد خداها بأعشاب المواسم التي ينبئنا بها أبي في رؤاه. كان إذا رأى، ترقّبنا سعي الرؤيا في حقولنا.

آمنت بخديك، وأصابعك النحيفة التي تطرز من الأشياء بصرا وأغاريد.

غدا نرعى أغنامنا في جبل الحمام، سأرافقها ونمرح في الوقت. كل صباح روح تسري في الندى، كل عشب يؤرخ للمكان وعمرا يحالفنا:

-في المكان كذا، تنبت العشبة التي تريد.
أكاد أبكي.
- نبتة تشفيني! كيف تتسلل إلى كياني وتحاصر الوجع، هل تعرف طرقي المظلمة والأبواب الصدئة؟
سعاد تراعي الأغنام خشية الذئب وتقتات من نبات الأرض، عندما تدركها. كنت أتابعها وقد أغفو وأسرح مع كل إشارة يناديني بها المرتفع.. وبين لحظة وأخرى يخترق الفضاء صوت مجهول، ربما صوت طائر متمرد.
أسرح بعيدا وأسأل «سعاد» عن جدوى الأحجار أجدها أمامي، وأنبهها إلى وجود ثغرة قاتلة على جانبها، السم قاتل يا «سعاد».
كانت «سعاد» تحفظ سورة الفجر وتردّدها وسط غابة من الضوء، حفظتها عند الشيخ وأذن لها بأن تمحو اللوحة وتكتب من جديد.
تباركت يدك بعزة الصمغ و البياض.
كانت تسألني عن إرم ذات العماد، فأتعجّب، كيف تعبّر عن نفسها وهي التي لم يخلق مثلها في العشيرة، هي أجمل من «مريم» ابنة إبراهيم ومن بنات الأهل كلهن.
- إرم ذات العماد، عينان صافيتان، ومدينة تسرق العالم لفتنتها وتباهي المدن بكبرياء مبين.
قالت:
- وفيها الماء والجنان.
- وأنا وظفائرك، إذا كان في العين شهوة في المدى الخصيب.
وانتبهت:
- أعيدي الشاة إلى القطيع.
كنت محفورا في وجهه الرؤيا، وتأخذني رعشة شفافة من كل نظرة تجذبني إلى السؤال:
- هذا العنب الكاذب! أخشى أن تكون «سعاد» مثله، لا أريد أن تجابهني الوحدة، أخشى أن يغتالني الكلام بلا صدى يؤانسني.
عندما أقاسم «سعاد» خبز الظهيرة وتسقيني ماء المطر، يسرقني الخيال إلى رحم البعثة، إلى الأشياء الأولى، إلى البُردة التي كانت تجمعنا جميعا.
من أين تتكلم «سعاد»، ومن أين تخرج الكلمات، ربما من نفس المكان الذي ينبع منه الماء، قرب شجرة التين، من أعماق الزمان.
وأنفها... منك تعلمت أن الطيور الأصيلة تهاجر، ومهما طالت هجرتها، يرجعها الحنين من حيث جاءت. هناك شيء ما في أنفك، أطياف ترود، تجعل اللغة لا تعرف كيف تعبّر، وتسلّم أمرها للفتنة والغواية.. الله أعلم!
أورثتني حب الشعر الأسود، والعيون الخجولة، أورثتني الحب.
وعندما أورثتني هذا الأمر فإنك تزرعين في كياني ما يشبه المؤامرة، حكاية سرية تبيح دمي وأعصابي وما تبقى من عقلي.
وصرخت ببربرية مفعمة بالأوشام:
- أحبك.
وردد الصدى أعراسي وقال:
- لك العهد نكتبه في السماء، فاحفظ انتصارك ولا تتنكّب!
«سعاد» خير من ألف شهر، وطفولة تنسج الأزمنة في مبسم بريء، العمر عين تسافر وتقتني مشهدا من الحوانيت العتيقة ولا تسامرنا إلا لتقول:
- بعد هذه الموجة فراغ وموت مرير.
لو كان بإمكاني أن أستدعي كل أطفال العالم، وكل الذين كانوا أطفالا ذات يوم، لنشعل عيدان العنبر لعل زمن النفط يخجل من ذنوبه، تعالوا جميعا، نلعب لعبة نحبها، تعالوا نلعب في فنائنا وننشغل بعرائسنا، فناء الدار يحتضنكم كما احتضن من قبل محاصيل القمح ونومنا مع القمر. ولنفترق على قبلات أمّي وعلى حليب تقدمه لنا في إنائنا الفخاري. من عادة أمي البربرية أن تخبّئ للزائر أجمل الأواني وتمنح من حضنها حلوى وبرتقالا.

2

وكان بين أغصان شجرة التفاح، في زاوية الفناء، عصفور، يحط كل يوم، يأخذ القش ويدور فيبدع أشكالا ودوائر تأخذ مع مرور الزمن شكل عش بديع، دافئ.
وكان العصفور يحيرني، ينشغل بعشه لبعض الوقت، ثم يطير ويحط على أشجار «سعاد» ليعاكس عصفورة وديعة، تنام بعد الإجهاد. فكّرت أن أطرده من شجرتنا، لكنه كان قد بدأ يدخل إلى قلبي، كان جميلا ومشاغبا وكنت أعطف عليه.
يكفي أن أنظر في عينه حتى أدرك أنه ليس ككل العصافير، كان على الدوام يستقبل عهودا جديدة ويأمل في عش كبير.
سميته «يوسف»، كنت قد وصلت حينئذ إلى سورة يوسف، قرأتها مع شيخنا فقال:
- أجمل السور هذه، توسدها في أيام القلق فإنها نافعة.
وكنت أدرك أن «يوسف» العصفور، متخم بالبراعم والبدايات.
كان أجمل سورة في شجرتنا.
العصفور يعكس الحكاية. عندما أتجسّس على حركاته، أدرك أنه جنّن العصفورة بكلامه الساحر ولم يبق لها إلا أن ترتمي بين جناحيه وتضع رأسها بين أشواقه، فيمد جناحه ويأخذها إلى عشه.
أخاف عليك يا «يوسف»، الحكاية ليست على المنوال الذي تحلم به.
وكانا يحلقان، يتعانقان، يخلقان نغمات ووشوشات حالمة. فكرت أن أعاقبه لكني تراجعت، لا أدري لماذا فكرت.. هكذا.، لو أخبرني عن «سعاد» ما عساني أقول له؟
تركته مع عصفورته، يكبران، ويريها عشه، الأحضان التي ستجمعهما عما قريب، وكان يدس أنفه في عنقها ويهمس لها:
- جاء الخصب وجاء الجفاء، والشمس ما تزال جامدة، كامرأة متكبرة، تحرق أعصاب الحشائش بقسوتها.
توسلت أيدي الفلاحين السماء، فجاءت الأمطار، انتظرتها فجاءت،

كانت تسمعني عندما أدعوها لتأتي وأقول، إذا أمطرت هذا العام فسأقدم لـ«سعاد» مهرها، أبوها على حق عندما قال إن سعاد تكبر.
سعاد كبرت..
أرسلت لها خاتما، اشتريته من محصول القمح، كان يساوي قنطارين كاملين.
كنت أتذكر أصابعها النحيفة لكنها الآن، تمتلئ بالحب.
يا لجلال أصابعك يا سعاد
وكلامك البربري
هذه حكاية، يقول للعصفورة لئلا تغار، فيبدو جلّنار خدها بهجة في عينيه فيلفها في وجوده ويكلّمان القمر، الشاهد الأمين على يقينهما.
عربة الخيل تعود إلى ديارنا، جوادان أصيلان يسرعان، لو يسرعان أكثر.
بعنا القمح، ومهرها يدفئ قلبي.
سعاد لم يبق إلا القليل وتكونين في بيتي، أنت بيتي، لو يسرعان أكثر.
على مشارف ديارنا، قال شعبان:
- الناس يتجهون إلى المقبرة ويحملون نعشا، يبدو أن الحاج أحمد انتهت أيامه يرحمه الله.
وقال البقية:
- يرحمه الله، استراح من المرض ومن عذاباته.
وصلنا.. أقبل أخي الصغير وهمس مرتجفا:
- لقد أخذوا سعاد إلى المقبرة، يقولون سعاد ماتت. توقف قلبها فماتت.
لم أصدق، حاول أخي أن يسألني إن كنا نموت عندما تتوقف قلوبنا، لكني دفعته وهرعت إلى المكان. عيون العشيرة كلها تقول:
- نعم ماتت، البقية في حياتك، لو كان بيدنا لتركناها حتى تعود. لكن الله غالب.
أين أذهب؟ ماذا أفعل؟ أتمرّغ في التراب؟ تمرّغت. أنشب أظافري في شعري؟ لا.. أهرب. أين أهرب؟ سعاد ماتت. لماذا ماتت، لماذا تموت الآن بالضبط، والمهر لمن، في لحظة فقط كان مع قلبي؟
يعني ماتت. ماتت. قالت العشيرة، ماتت، والحاج أحمد، كيف ماتت، هل أضحك، ماذا أفعل؟ كيف؟ أموت أنا أيضا! ولماذا أبقى؟
تعفنت في لمح البصر. أخذني الأهل وأقبلت أمي كسيفه واحتضنتني. احتضنيني أمي أكثر، املئي الفراغات، الجليد الذي هشم شفاهي، لا تتركي الطعنة تعبث بأعصابي وبكبدي.
- هل يشرب الناس الماء في مثل هذا المواقف؟
- حاولي أن تلمّي ابنك.
احتضنيني بقوة، فأنا طفلك مهما كبرت. توقف قلبها، لماذا توقف الآن؟ لو تأخّر قليلا. وبعد أمي لم أعد أذكر شيئا.. كيف فارقتها وأين التجأت. لم أعد أذكر شيئا. الذاكرة تسبح في ذكرى أبدية، في لغة المداد الأولى.
وعاد العصفور يحمل آخر قشة لعشه. دنا من شجرة التفاح، فرأى غريبا من عصفورته. عصفورته مع الغريب، وتتركه يقبلها وينسج معها حكاية أخرى، في عشه! سقطت القشة، أخذتها الريح، معقول أن تخونه، عصفورته، أهذا معقول؟
آخر قشة! لو يسألها، لماذا يسألها؟ كل شيء واضح. إنه يقبلها وتتركه هي يقبلها، برضاها. لماذا يدافع، وعلى من يدافع؟ وهل هذا عش تدافع عنه الطيور!؟
ظل العصفور يحلق بعيدا، يعود متوترا، مستعجلا، يدور حول نفسه حتى يكاد يغمى عليه، ثم يعاود التحليق ويطلق صوتا حزينا كأن به شيئا ما. آخر قشة ويكتمل، كانت تخدعني، ويدور حول نفسه، يقبض جناحيه ثم يحلّق مغتاظا خائبا. وفي ذلك المساء عاد القطيع ولم أعد، كنت أجوب المرتفع لأعيد تفاصيل الذاكرة، أتفقد رائحتها وأبكي. سعاد أصبحت ذكرى!
اشتقت إلى الأعشاب، قبيلتي وولائي، سعاد كانت معي تغنّي للطيور وتحرس أعشاشها من كل طارئ، وتهدهد صغارها وتُسرّ لها:
- غدا تحلقون يا شطار في الفضاء، مثل سلالتكم. أما الآن فناموا كأطفال مهذبين حتى تعود أمكم.
ماتت، ويردد الصدى: آتت.. آتت.
لمن أمنح بصري بعدك، ومن يلمس منكبي عندما نعود بالقطيع ولم يسرق منا الذئب شيئا. هل تعودين لأخبرك أن الليل بعدك بئر مهجورة، تسكنها الأشباح وأن الجبل مرفأ للحيات والغدر.
أغنية أمي.. أمحو اللوحة.. الأجنحة البيضاء ترفع سعاد إليها، إلى ذلك المكان الذي يخافه الأطفال وأبكاني أنا.. القبر، التراب ينثال على شعرها وعلى أنفها. نظرت لوجهك، إلى أن جاء الصيف، ولما حان الحصاد، وكان أبي يحمل منجله لحقلنا الوحيد، لم أجدك.
لمَا أشكو لك عذاب الحصاد وأحكي تاريخ أصابعي مع السنابل، أجد في أصابعك جهاز البيت، أجد رفقا وصباح الرعاة يخرجون إلى مراعيهم.
فتحت كفي فوجدت الفراغ، صفعني الهجير وأضرم في قلبي لوعة الأرض.. لهفة الماء.
الأجرام البعيدة تبدو كلؤلؤة صغيرة، مرصعة في أقصى التصور، وسعاد البعيدة كصوت الناي يأتي من الأبعاد النائية، ويعانقني وجودها كلما شدا مبسمها بحروفي.
ترى ماذا يعني اسمي؟
تعالي سعاد نلعب، نعود من حيث خرجنا، أكلة من السكر، إرم ذات العماد، أضحك ويضحك الصدى، ويضحك الصدى. حافي القدمين، مخطوف العين، ممزق الشفاه والثياب. مات الوقت وسمل، وبقيت سعاد أصواتا. البياض القاتم. الجنون. كان يجب أن تصمت كل الأصوات إلا صوت القلب، الروح.

كاتب من الجزائر

جدل السيد والخادم أم الشرق والغرب

دروس مستفادة في فلسفة هيجل

محمد سيد عيد

يتحدث ج. ف. هيجل (1770-1831) عن جدل السيد وخادمه في كتابه «فنومنولوجيا الروح» (1807) تحت عنوان رئيس هو «الاستقلال الذاتي وعدم الاستقلال، الوعى بالذات» قائلا « إن الوعي بالذات هو في ذاته ولذاته، وبالتالي فهو موجود في ذاته ولذاته من أجل الآخر» (1).

وتعنى هذه العبارة أن الأنا هي واقعة من أجل الآخر(a reality for –others). والآخر يتعرف على وعيه بذاتي من خلال أنني أكون بالنسبة إليه سيدا أو خادما وذلك ما يتوقف على الآخر. فهل الآخر يتخذني ذاتا بالنسبة إليه في وعيه بذاته أم يتخذني موضوعا؟ فأنا أكون فقط وعيا بالذات من أجل الآخر، باختصار لا يمكن أن أوجد بدون الآخر. فالوعي الذاتي يعتمد أساسا على الآخر (2).

نحن هنا بإزاء موقفين مختلفين: موقف السيد (أعني موقف الوعي الخالص بالذات)، وموقف العبد (أعني موقف الوعي الذي رفض المخاطرة بحياته في سبيل إشباع رغبته في انتزاع اعتراف الآخر به).

وعلى حين أن السيد قد خاطر بحياته، ومضى في عملية الصراع حتى النهاية فاستطاع أن يظفر باعتراف الوعي الآخر به، نجد أن العبد قد رفض المخاطرة وتخلى عن رغبته، ومن ثم فإنه قد اقتصر على إشباع رغبة الآخر، وبذلك اعترف بالآخر دون أن يلقى منه أيّ اعتراف! ومعنى هذا أن العبد قد اعترف للسيد بأنه «الوعي بذاته»، بينما بقى هو نفسه (أي العبد) متعلقا بأهداب الحياة، من حيث هي كذلك، فأصبح متوقفا في وجوده على كل من «السيد» من جهة و«الطبيعة» (أو الأشياء) من جهة أخرى . ومن هنا فإن العبد هو ذلك الموجود الذي بقى أسيرا للطبيعة، دون أن ينجح في التحرر منها خلال عملية الصراع (3).

الجدل هنا يظهر في مسألة الوعي بالذات نفسها. فمن يخدم الآخر وليس من يكون عبدا للآخر. فالذات تعرف ذاتها أو تتعرف عليها وتعي بها من خلال الآخر وبذلك فإن السيد هنا هو الذي يقوم بهذه الخدمة أي هو الذي يقوم بتعرف الذات على ذاتها وهو الذي من خلاله تتم عملية الوعي بالذات. ومن ناحية أخرى فإن الذي لديه الاستقلالية بذاته هو السيد، بينما من لا يملك استقلاله لذاته أي معرفتها والوعي بها فهو يبحث عن سيد يقوم له بهذه الخدمة. وبالتالي فهو ليس عبدا كوظيفة في المجتمع أو طبقة في المجتمع ولكن هي خدمة التعرف على الذات والوعي بها. فهي خدمة مقابل خدمة (سيادة) أي شيء في مقابل شيء وليست عبودية. فالخادم يعترف بذاته من خلال الآخر الذي يقوم بالاعتراف بذاته من خلال هذا الآخر الذي يخضع له. فالموقف لدى الخادم هو الخضوع للاعتراف به، والموقف لدى السيد هو السيطرة للاعتراف به. إن مفهوم الحياة عند هيجل هنا هو ليس فقط النقيض للموت ولكن الحياة هنا هو «هذا الموضوع المنعكس في ذاته (Reflexion-in-sich) (4). ويتم الوعي بالذات في هذه الحياة، من خلال تخارج الذات إلى العالم وتحققها فيه. والخادم لديه هذه الرغبة في الحياة (الحياة المتخارجة) «فالوعي هو رغبة من الخادم في نفى الاستقلال».

إن السيد يستخدم التهديد بالموت ليجبر الخادم على العمل من أجله. يختار الخادم الاحتفاظ بالحياة والعمل من أجل السيد أكثر من مواجهة إمكانية الإبادة. ويصرح هيجل بأن الخوف الذي يعانى منه الخادم هو الخوف من الموت. إذ أن هذا الموت الذي يخاف منه الخادم هو السيد المطلق. إذ يتحول النفي الطبيعي للموت إلى نفى قوة الخادم.

إن أعمال الخادم لا تدمر الطبيعة، بوصفها رغبة، لكن تحول الطبيعة إلى موضوع للسيد. ويرى الخادم نفسه عبر عمله بوصفه مستقلا تماما عن الطبيعة التي يرسمها لاستمتاع السيد وفى نفس الوقت، بالنسبة إلى السيد، بقدر ما لا يعمل السيد في الطبيعة بل يستمتع بها، هو يفقد الاستقلال من الطبيعة. فالسيد الآن هو يعتمد على الخادم ليمارس استقلاله في الطبيعة باسمه. ومن خلال المخاطرة بحياته يثبت السيد استقلاله في الحياة. تعطي هذه المخاطرة للسيد السلطة على الخادم من خلال تهديد الخادم بالموت إذا لم يقم بخدمته، في خدمة الخادم، على الرغم من ذلك، إن السيد يصبح معتمدا على الخادم من أجل استقلاله في الطبيعة (5).

إن الموت يظل دائما سلاح تهديد فقط ولا يوجد باستطاعة أي من الطرفين استخدامه مع الآخر. ومادام أحد طرفي الوعي الذاتي مات، فلا يمكن للوعي أن يتطور. فلا يمكن أن يندرج الوعي الذاتي من خلال الحصول على أداة الموت. على الرغم من ذلك، لا يوجد بعض النجاح لمظهر الوعي الذاتي بوصفه سيدا وخادما، فيظل السيد واعيا بأنه لا يستطيع أن يكون أداة للموت. إذا قتل السيد الخادم، فإن الاعتراف به والذي يسعى إليه سيفقد. إن ما يستطيع السيد فعله ، على الرغم من ذلك، هو التهديد بالموت (6).

إن موقف السيد هو أنه ليس الذي يحصل على الوعي الأدق في الموقف الإنساني طالما كان يتظاهر بعد معرفة خلفية الوجود والاتصال التي يتلاعب أمامها يأسه وغروره. بل هو العبد الذي شعر حقا بالخوف وعدل عن إيقاع الهزيمة بالسلاح والذي مرّ بمفرده بتجربة الموت؛ لأنه وحده شعر بحب الحياة. فالسيد يود ألا يوجد إلا لنفسه والواقع أنه يسعى لكي يعترف به أحد بوصفه سيدا. وهو لهذا ضعيف في أوج قوته. أما العبد فيرضى ألا يوجد إلا للآخر ولكنه هو نفسه الذي يريد أيضا أن يحتفظ بحياته بهذا الثمن. وبالتالي تكمن القوة في ضعفه (7).

موقف السيد-الخادم إذن هو محاولة للوعي بالذات عن طريق الآخر. ولكن لا تحقق هذه المعرفة الاستقلال؛ لأنني دائما منقسم فكلمة أنا هي دائما تعني في نفس الوقت الأنا بوصفها جوهرية ماهوية وأيضا تعنى بالموجود من أجل الآخر، فهي تعني الموجود في ذاته وتعنى بالموجود من أجل الآخر أو الذات في الآخر. الأنا بوصفها تصفني أنا وماهيتي والأنا التي تتحول إلى موضوع من أجل الآخر (السيد) فالذات هنا لم تحقق الاستقلال التام لأن وحدتها مفككة ومنقسمة فهي وجود في ذاته ووجود من أجل ذاته في آن معا. فهي بهذا لا

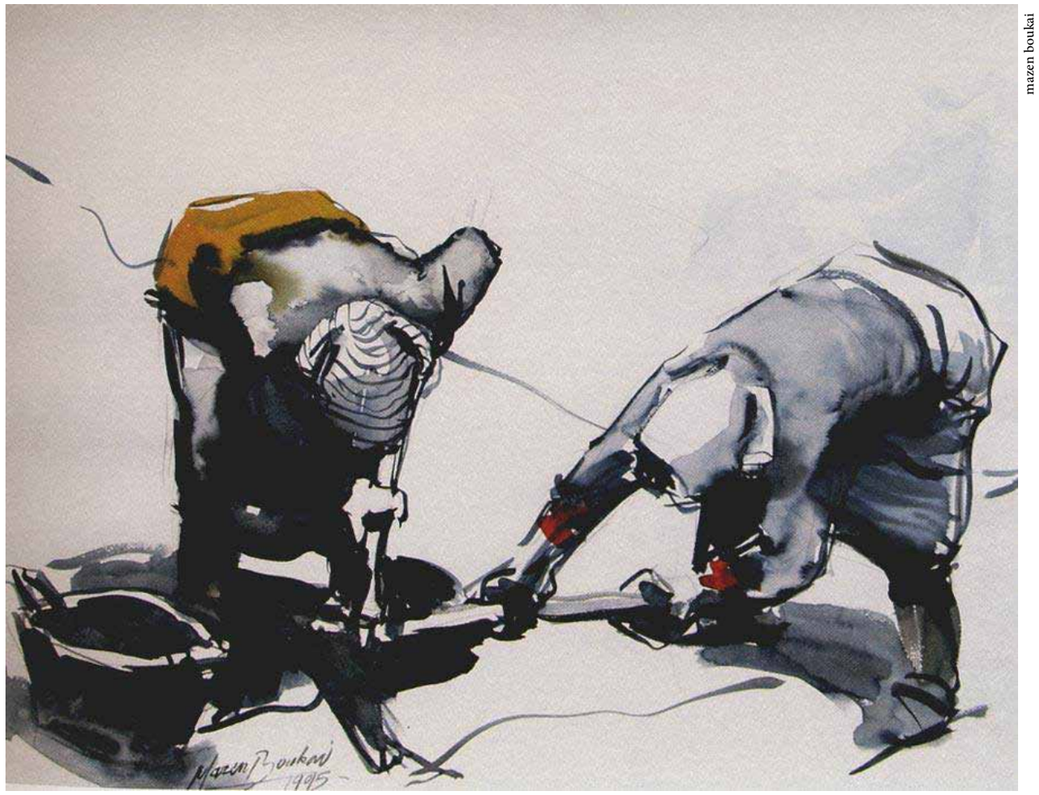

mazen boukai

تستطيع الاستقلال لأنها لا تعرف ذاتها إلا من خلال الآخر وحتى هذه المعرفة والاعتراف بها لم يتحقق بصورة كاملة. فهي لا تنفصل ولا تستطيع الاستغناء عن الآخر.

إن حديث هيجل هنا يلفت نظرنا إلى هذه الرؤية الضعيفة للذات أو هذه المرآة أو الشوافة التي لا نستطيع أن نرى إلا بها، وأقصد هنا ما نجده، على سبيل المثال، في علم الاستشراق. وهو يرجع إلى ضعف حاسة الإبصار للذات. فلا يستطيع كل طرف أن يرى ذاته إلا من خلال بحث الآخر عنها وهو بهذا يستمد وجوده. فالاستشراق مثلا هو محاولة من الغرب لاكتشاف الشرق وذلك لأن الشرق لا يستطيع أن يستقل بذاته ولا يستطيع أن يعي ذاته إلا من خلال الغرب الذي يبحث له عن خباياه ويكتشف له منجزاته ويُعرِّف الشرق بذاته. ومن خلال هذا الكشف يسود الغرب ويهيمن. وهو بهذا يحقق كل شيء. وبالتالي لا نجد أيّ أبحاث أو مراجع إلا باللغات الأجنبية ولا نجد إلا ما يترجم منها. فالحضارة المصرية القديمة مثلا، هي حضارة الشرق ولكن الشرق لكي يعرفها عليه أن يترجم مئات الكتب التي كتبها الغرب عنه بالألمانية والفرنسية والإنكليزية. وذلك لأن الشرق يعجز عن أن يبحث عن ذاته. ومن خلال هذا الفعل من السيادة للغرب وهو الوعي بالذات الشرقية هو يسود ويبغي ليس ذاته بل ويكوّن حضارته. فلنا أن نتخيل أن الأميركيتين اللتين لم تتكونا إلا بالأمس تسود على حضارة عمرها ملايين السنوات. فمن هنا السيد ومن العبد أو الخادم! السيد (الغرب) يبنى ذاته من خلال الخادم (الشرق)، وذلك الأخير يعيش ويعي ذاته عن طريق الآخر (الغرب) أو هو من أجل (الغرب). وإذا كان هذا صحيحا فمن السيد ومن الخادم؟ وهل هناك تهديد ووعيد من السيد (الغرب) للخادم (الشرق) كما في تصور العلاقة الهيجلية؟ أم أن الخادم (الشرق) هو الذي لديه ضعف في الإبصار ولا يرى ذاته إلا من خلال مرآة أو شوافة يشتريها من السيد (الغرب) بملايين الجنيهات؟

سعى د. حسن حنفي للقيام بالموقف المعاكس في كتابه «مقدمة في علم الاستغراب»؛ أي قراءة الغرب ومن خلاله تتم عملية الرد من قراءة الشرق بعيون غربية إلى قراءة الغرب بعيون شرقية. وهنا يتم الوعي بالذات لدى الغرب كما يقرؤه الشرقيون. محاولة منه لرد الاعتبار

سيتجاوز الشرق هذه الثنائية ويستبدل الوعي الذاتي الخادمي بالوعي الذاتي الانعكاسي الذي يعكس حضارة وإبداع الحضارات الشرقية دون الحاجة إلى الآخر؟ متى يحاول الوعي الشرقي أن يتغلب على هذه الفجوة التي تفصل بينه وبين حقيقته

للذات الشرقية التي ليست خادمة دائما، ومحاولة إلى أن تكون هي السيد وليس الخادم. ولكن لازال الحل أيضا هو من خلال الآخر ومن خلال قراءته وليست البداية من الذات ولكن هي رد أو قلب وضع من السيد إلى الخادم والعكس. والحقيقة أن موقف الخادم هو موقف ضعيف دائما كما يخبرنا هيجل، فهو يفضل فيه العبودية أو الخضوع للآخر؛ لأنه يخشى منه فهو دائما يعيش تجربة القلق والخوف من الموت (ولا غرو في ذلك فالثقافة العربية الإسلامية ثقافة الحديث عن الموت والبعث والخوف من الموت وبالتالي الخضوع والاستسلام والتسامح وانضمت إليها من الجانب السياسي السلاح النووي كأداة ردع) ومادام يعيش هذه التجربة من القلق على الموت فهو دائما يفضل العيش من أجل الآخر عن أن يضحى بحياته. والسيد (الغرب) دائم التهديد بالضغط الاقتصادي والسياسي والعسكري.. إلخ. ولكن الحقيقة أن الخادم يجب أن يعي أن السيد لا يستطيع أن يقتل الخادم؛ لأنه لا ينال الاعتراف بذاته إلا من خلاله. والخادم (الشرق) هو الذي يريد أن يكون كذلك، وذلك لأنه يفضل موقف الخضوع ويعيش دائما تجربة القلق وبذلك يكون الموقف من قبل الخادم تجاه السيد هو موقف افتعالي، فهو يريد أن يستخدم ويسود وهو برغم ذلك يضحّي في سبيل حياته لكنه سيفقد ذاته كما هو حادث في موقف الشرق الآن. إن موقف الشرق الآن هو ما يمكن أن نطلق عليه باصطلاح هيجل «الوعي الشقي» وهو وعى بالازدواج، بالطبيعة المتناقضة (8). فهو وعي واحد بنمطين: نمط الوعي الثابت، ونمط الوعي المتغير. فيحاول الوعي أن يفقد حرية ذاته للوعي المتغير في سبيل الوصول إلى الوعي الثابت والماهوي، فالعدوّ هو الذات لنحصل في نفس الوقت على الفقد (9). فيتحد كل من الثابت والمتغير في الوعي الشقي، لأن ذات الوعي هو بالنقيض، فهو يعرف ذاته عن طريق الوعي المتغير ويتخذ ذاته وجود غير ماهوي. لكن في نفس الوقت يصبح الوعي الثابت أو الوجود الماهوي متحررا من ذاته غير الماهوية (10). فهو وعي بالثابت ولكنه في ذات الوقت يلغي المتغير.

ويضرب هيجل على ذلك مثلا بالوعي اليهودي، فهو وعي ومنقسم داخليا إلى موجودين متقابلين «ذات متغيرة عارضة من جهة وإله ثابت خالد من جهة أخرى». لكن «هذا الموجود الثابت غير القابل للتغير هو الوعي اليهودى موجود غريب وخارجي» (ein Fremdes) وكذلك الأمر بالنسبة إلى الوعي المسيحي، فهو وعي شقي حين يتعلق، أو حين يربط نفسه بالمسيح «بوصفه حقيقة واقعية غريبة» (als einem Fremden wirklichen) فالوعي في هاتين الحالتين لم «يعرف» بعد أن الحقيقة هذه أو الموجود الغريب هذا ليس شيئا آخر سوى تخارج ينتمي إليه. إنه تخارجه الخاص.. عمله ونتاجه. ومع ذلك فإن الوعي يعمل جاهدا لكي يتغلب على هذه الفجوة التي تفصل بينه وبين حقيقته الواقعية الجوهرية. ومعنى هذا أن الوعي يحاول أن يجد ذاته في الخارج، فيما هو خارج عنه. وبقدر ما ينجح الوعي في ذلك يكون ذاته. أي أنه بقدر ما يتغلب على انقسامه ويحقق وحدته يكون حرا (11). فهل حاول الشرق الخروج من عثرته وحاول التخلص يوما ما من تحقيق وعيه الذاتي ليس من خلال الآخر الذي يمارس السيادة عليه ولكن من خلال التخارج الشرقي لإنتاجه؟ متى سيتجاوز الشرق هذه الثنائية ويستبدل الوعي الذاتي الخادمي بالوعي الذاتي الانعكاسي الذي يعكس حضارة وإبداع الحضارات الشرقية دون الحاجة إلى الآخر؟ متى يحاول الوعي الشرقي أن يتغلب على هذه الفجوة التي تفصل بينه وبين حقيقته الواقعية الجوهرية؟ حينما يحدث ذلك سيكون لدينا وعي شرقي حر في ذاته ولذاته.

باحث من السودان

دعوة

الجديد

تدعو الكتاب والمفكرين العرب
إلى المشاركة في محاورها وملفاتها القادمة

تيارات التفكير العربي
ظهورا ومدا وجزراً

حال الكتاب العربي
كيف تنشر الكتب
في العلاقة بين الكاتب والناشر والقارئ

الاستبداد الشرقي
دور الحاكم المستبد
في صناعة الاستبداد الديني

الشعر والتجريب
هل وصل التجريب الشعري العربي
إلى حائط مسدود

الكتابة والأنوثة
هل تكتب النساء العربيات بلغة الرجل
أم أن اللغة بلا جنس

الصحافة الثقافية العربية
أحوالها، توجهاتها، علاقتها بالكتاب والقراء

فكر حر وإبداع جديد

سبعون بيضة ودجاجة واحدة

فاروق يوسف

الآن وقد تجاوز شعراء السبعينات في العراق سن الستين. كلهم من غير استثناء وتوفي عدد منهم (كمال سبتي، صاحب الشاهر، رعد عبدالقادر) صار الالتفات إلى سبعينات القرن العشرين ممكنا أكثر ممّا مضى. كنا نظنه يوم كنا صغارا آخر القرون وأشدها مقاومة وصلفا فإذا به يُطوى بيسر كما تُطوى غيمة سوداء بعد أن تفرغ مطرها على حقول لن تتذكر شيئا. قرن مشاغب وأرعن وخلاسي ودموي وصادم ومتمرد وتركيبي ومتلون وهو أعظم القرون حقا وأكثرها نضجا ومراهقة في الوقت نفسه.

كان الأميركي أرمسترونغ قد سبقنا إلى القمر قبل الشعر. عام 1969 كان أحد أعداد مجلة ألف باء الأسبوعية يضم أولى قصائدي وكان غلافه يحمل صورة لرائد الفضاء الأميركي وهو يطأ بقدميه أرض القمر. يومها لم يكن من اليسير أن يكون المرء شاعرا في بلد كالعراق بالرغم من كثرة الشعراء. غير أن هناك فراغا قد حدث في مجال كنّا نصبو إلى اقتحامه. من نحن؟ طلاب مدارس طويلو الشعر يمكن تمييزهم بقمصانهم المزهرة وسراويلهم الشارلستون وعزوفهم عن الكلام إلا في ما يتعلق بشؤون الشعر. حين حدث ذلك الفراغ وقف الحظ معنا في بلد تميز أبناؤه بسوء الطابع. ما حدث يمكن تلخيصه بانتقال شعراء العقد الستيني من البعثيين من المقاهي إلى مقاعد السلطة التي لم تكن يومها تقيم في برج عاجي. غير أن البعثيين لم يكونوا إلا أقلية وسط أكثرية من المثقفين الذين غلبت عليهم النزعات العدمية والوجودية والعبثية وكان أولئك الهامشيون والغاضبون والمعارضون العبثيون هم الفرسان الحقيقيون للثقافة في العقد الستيني. كان فاضل العزاوي ويوسف الصايغ استثنائيين حين ذهبا للعمل في مجلة ألف باء الأسبوعية أما بقية الرهط المتمرد فقد ظلت مقيمة في مقهى المعقدين (إبراهيم) الذي يقع في الزقاق الأول من شارع السعدون مقابل مطعم نزار على بعد خطوات من مكتبة النهضة وسط المدينة (ساحة التحرير).

لم تكن الأحاديث في تلك المقهى تخلو من ذكر لرائدي الفكر الوجودي في المرحلة التي لم أعشها واقعيا (منعم وقتيبة). وكان حسين علي عجة نجما ثقافيا بالرغم من أنه لم ينشر إلا قليلا من قصائده النثرية وكان صغير السن يومها. لم تكن سمعته مثقفا طليعيا تناسب سنّه. هناك من يشير إلى المنضدة التي كانت تجمع سركون بولص بزهدي الداوودي ومؤيد الراوي وعبدالرحمن طهمازي الذي كنا نراه فيما حرمنا من رؤية رفاقه الثلاثة بسبب سفرهم إلى خارج العراق. كان هناك أيضا وليد جمعة وصلاح فائق وعزيز السيد جاسم قبل أن يلمع نجمه باعتباره كاتبا سياسيا اختاره السيد النائب صدام حسين صديقا له. بعد سنوات قابلت منعم حسن في لقاء سريع من غير أن تتاح لي رؤية قتيبة. كان الاثنان بالنسبة إلى جيل الستينات من رواد مقهى المعقدين رمزين للمثقف الثوري الحداثوي من غير أن يُعرف عنهما ميل إلى الكتابة. الغريب أن الكتب الثلاثة التي أرّخت لتلك المرحلة قد خلت من ذكر لهما. الكتب الثلاثة هي «انفرادات الشعر العراقي الجديد» لعبدالقادر الجنابي و«الروح الحية» لفاضل العزاوي و«الموجة الصاخبة» لسامي مهدي.

كانت هناك أساطير كثيرة في ذلك العصر الذي لم يخل من المبالغة كما هي عصور العراقيين.

يوم تعرفت على قدوري (العظيم) كان فشل حركة الكفاح المسلح التي قادها في الأهوار جنوب العراق زعيم القيادة المركزية للحزب الشيوعي عزيز الحاج قد ضرب رواد ذلك المقهى بعصفه المدمر. كان ذلك الحدث سببا في تفرق شملهم الذي قاد الكثيرين منهم إلى بيروت للالتحاق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كان إبراهيم زاير الرسام والشاعر أحدهم وقد انتحر بعد سنوات في بيروت.

كان قدوري حريصا على أن ينتمي إلى سلالة البروليتاريا الشعرية الرثة التي مثلها كزار حنتوش في جيلنا خير تمثيل. كان الرجل أميًا ويعمل خبازا حين اعتقل في سجن «نقرة السلمان» الصحراوي وكما أخبرني بأن الشاعر مظفر النواب هو الذي علمه القراءة والكتابة وقد يكون أيضا ملهمه في كتابة الشعر الحديث. عمل قدوري في مجلة «وعي العمال» التي كان عزيز السيد جاسم يشرف على تحريرها.

كشف لي قدوري (عبدالقادر العزاوي) الوجه الآخر للستينات الشعرية. كان شعره بسيطا ومتواضعا مثله، يخلو من الادعاءات التي كان الشعر الستيني يضجّ بها، بسبب وقوع غالبية شعرائه تحت تأثير شعر جيل الـ«بيت» وبالأخص غينسبرغ في قصيدته «عواء». لم يقرأ أحد يومها رواية «على الطريق» لجاك كيرواك أو «الغداء العاري» لوليام بوروز لأنهما لم تترجما إلى العربية حينها. ولأنني لم أعجب في بداياتي قارئا للشعر إلا بعدد من قصائد سركون بولص الموزونة التي سبق وأن نشرها في مجلة شعر اللبنانية فإنني لم أكن أميل إلى تلك الروح التجريبية التي غمرت الشعر العراقي بقدر كبير من التهريج المرح الذي لم يكن ينتمي إلى الروح العراقية. كان هناك حسين مردان (1927-1972) الذي أعجبت به ناثرا في كتابه «الأزهار تورق داخل العاصفة» الذي صدر بعد موته وضم مقالاته التي سبق له وأن نشرها في مجلة ألف باء. ولو لم يصدر حسب الشيخ جعفر ديوانه «الطائر الخشبي» لما كان كتابه الشعري الأول «نخلة الله» ليجعل منه بالنسبة إليّ شاعرا كبيرا. وحده سامي مهدي في «رماد الفجيعة» كان آسرا وكنت أخشى الوقوع تحت تأثيره. كان حسب الشيخ جعفر قبل «الطائر الخشبي» سيابيا وكان حميد سعيد في «لغة الأبراج الطينية» بياتيا (نسبة إلى عبدالوهاب البياتي) أما سامي مهدي فقد انفتح على القصيدة العربية الحديثة بقدر لافت من التروّي والحصافة والتمكن. لم يكن من اليسير إلحاقه بأدونيس مثلا. وحين أصدر فاضل العزاوي «الشجرة الشرقية» منتصف السبعينات حقق شيئا من الإنجاز في خلق مسافة بينه وبين «عواء» غينسبرغ غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته الأولى في كتبه الشعرية التالية. حقيقة أنني أحمل الكثير من الاحترام والتقدير لتجربة العزاوي كونه رجل كتابة. إنه واحد من أعظم الكادحين المجتهدين في هذا المجال الغامض. العزاوي فنان كبير لذلك يمكن اعتبار مغالاته في النظر إلى نفسه نوعا من الفن.

كان هناك شاعران عربيان مهمان يقيمان في بغداد هما الفلسطيني خالد علي مصطفى والسوري خليل الخوري. التحق بهما في الثمانينات شاعر مصري مهم هو أحمد عفيفي مطر وشاعر فلسطيني هو خيري منصور.

رضوان عبدالكي

الأربعة لم يتركوا أثرا في الشعر العراقي بالرغم من تفردهم الأسلوبي. كان لكل واحد منهم شخصيته الفنية اللافتة.

وسط ضجيج الستينات الشعري وقد كان عدد الشعراء لا يُحصى كالعادة شغفت بكتاب شعري صغير صدر عن دار العودة بعنوان «لا شيء يحدث لا أحد يجيء» لعلي جعفر العلاق. كنت يومها قد قرأت مسرحية صموئيل بيكيت «في انتظار غودو» مرات عديدة فجذبني العنوان المستعار من إحدى جمل تلك المسرحية، غير أن قراءة ذلك الكتاب فتحت أمامي أبواب خيال مختلف. كان العلاق عراقيا عميقا بعاطفته الحزينة التي تصل إلى البكاء غير أن صفاء لغته كان كفيلا بتنقية تلك العاطفة بحيث لا يصل منها إلا اللمعان والبريق اللذان يحلّقان بالمرء وهو يقرأ في سماوات سعيدة.

لقد أسعدني علي جعفر العلاق بلغته. أليس الشعر لغة؟ كان لقائي بالعلاق حدثا استثنائيا نتج عنه انفتاحي على كتاب أرشيبالد مكليش «الشعر والتجربة».

بداية السبعينات عاد من الجزائر الشاعر سعدي يوسف إلى العراق وقرر الإقامة الدائمة فيه. لم يكن يوسف قد قُرئ بشكل واسع قبل عودته. استهل الشاعر عودته بقراءة قصيدته «نهايات الشمال الأفريقي» في إحدى أمسيات مهرجان المربد. أتذكر أن الشاعر ذا الصوت الخفيض عجز عن قراءة قصيدته بسبب بكائه تأثرا بعودته إلى الوطن بعد غربة ليقوم محمود درويش بقراءتها بدلا منه. حين أصدر سعدي كتابه الشعري «الأخضر بن يوسف ومشاغله» تغير اتجاه بوصلة عدد كبير من شعراء جيلي. كان تأثير ذلك الكتاب عاصفا ومدمرا. «ما الذي قد فعلت بنفسك» وهي الجملة الأولى من القصيدة الأولى في الكتاب صارت كلمة السر بالنسبة إلى الكثيرين.

كانت المرثية جاهزة لجيل ستحرق نار الحرب ريش أجنحته. الآن حين يلتفت المرء إلى العقد الشعري الستيني لا بد أن يشعر بالأسى لأن مجلة طليعية مثل «شعر 69» قد أغلقت بعد أن صدرت منها أربعة أعداد فقط. البيان الشعري الذي كتبه فاضل العزاوي ووقّعه إضافة إلى العزاوي خالد علي مصطفى وسامي مهدي وفوزي كريم كان بمثابة الخاتمة المرتبكة لبحث مضن عن الشعر خارج حدود الشعرية العراقية.

لم تتحقق أحلام العزاوي في الخلخلة. فبيانه بكل استعاراته السوريالية لم يترك الأثر الذي توقعه.

البيان الشعري الذي كتبه فاضل العزاوي ووقّعه إضافة إلى العزاوي خالد علي مصطفى وسامي مهدي وفوزي كريم كان بمثابة الخاتمة المرتبكة لبحث مضن عن الشعر خارج حدود الشعرية العراقية. لم تتحقق أحلام العزاوي في الخلخلة. فبيانه بكل استعاراته السوريالية لم يترك الأثر الذي توقعه

كان البيض نبوءة

عام 1974 كان حاسما في تاريخ الشعر العراقي. قبله بقليل كان البعثيون والشيوعيون قد تقاسموا غنائمهم من الشعراء الجدد، أبناء جيلي الشعري الذي اعتبر وليد مرحلة الصراع الهادئ والغاص بالريبة بين الحزبين. حزب السلطة والحزب الملحق به تبعا لميثاق الجبهة الوطنية وكانت «الجبهة الوطنية» عنوانا لذلك اللقاء الذي لم يتم بنوايا صادقة من الطرفين. حينها نشرت مجلة ألف باء الأسبوعية وهي مجلة رسمية ملفا عن الشعر السبعيني ضم قصائد لشعراء بعثيين شباب منهم خزعل الماجدي وعبدالمطلب محمود ومرشد الزبيدي وغزاي درع الطائي وفي المقابل قامت جريدة «طريق الشعب» الناطقة باسم الحزب الشيوعي بنشر ملف عن الشعر السبعيني ضم قصائد لشعراء شيوعيين شباب منهم خليل الأسدي وهاشم شفيق وشاكر لعيبي وعواد ناصر. لم أكن حاضرا في الملفين بالرغم من أنني كنت قد نشرت قصائدي في جريتي «الثورة» البعثية و«طريق الشعب» الشيوعية في أوقت سابقة. كان المعيار الحزبي أقوى ولأنني لم أكن حزبيا لم يكن لي نصيب في الحفلتين. وحده حميد المطبعي وهو ناشر وصاحب مجلة «الكلمة» استطاع بذكاء أن يقفز على ذلك المعيار حين خصّص عددا من مجلته في أيلول عام 1974 لشعراء ما بعد الستينات. لقد كان الرجل أمينا في رعايته للظاهرة الشعرية فلم يستثن أحدا. اكتشفت يومها أنني لم أكن الوحيد الذي خرم من نعمة اهتمام الحزبين. في ذلك العدد نشر عبدالحسين صنكور بيانه عن القصيدة اليومية الذي وقّعه إضافة إلى صنكور نفسه خزعل الماجدي وغزاي درع الطائي. كان صنكور يخطط لقيام جماعة أدبية تقف بموازاة جماعة البيان الشعري غير أن مسعاه باء بالفشل. أما الشعراء الذين نشرت قصائدهم في ذلك العدد من مجلة الكلمة فقد كان عددهم يفوق العشرين شاعرا. في ذلك العدد ظهر مزاج شعري جديد هو غير ذلك المزاج الشعري الذي ساد في الستينات. كان هناك أمل هو نفسه الذي كان يحيط الحياة العراقية المباشرة بهالاته البراقة. كنا جميعا أبناء التعليم الجامعي المجاني وكنا نستعد للانخراط في وظائفنا الثقافية المتاحة للجميع وكانت هناك وفرة في البضائع فاجأت العراقيين، الفقراء منهم على وجه التحديد وكنا فقراء. في تلك المرحلة كان الشاعر لا يزال يحتل مكانة استثنائية اجتماعيا فكانت العائلة تفخر بابنها شاعرا. «كنّا بلهاء يومها» أقول لنفسي اليوم كلما التفتّ إلى الماضي.

خدعنا البعثيون وهم الحكام الذين كانوا يأنفون من مدّ أيديهم إلى الآخرين الذين لم يشاركوا في انقلاب «ثورة» تموز عام 1986 التي صعدت بهم إلى السلطة، غير أن الشيوعيين هم أيضا مارسوا الخديعة حين صاروا يتحدثون عن كاسترو العراق الذي هو صدام حسين كما لو أنهم ضموه إلى صفوفهم. كانت هناك شماتة من قبلهم في النظر إلى هزيمة عزيز الحاج المنشق عن الحزب الذي هُزم في الأهوار. كل ذلك الخداع أعمانا عن رؤية ما كان يجري من حولنا. لقد اختفى عدد من رفاق تجربتنا الشعرية من غير أن ندري. تسرّبوا مثل الماء. لم نستيقظ من غفلتنا إلا حين اختفى شاعر هو الأكثر رقة بيننا وهو صاحب الشاهر الذي لم ينشر سوى كتاب شعري واحد هو «أيها الوطن الشاعري». كان متفائلا ومحبا للحياة وعذبا ورقيقا غير أنه كان أول الغائبين في حرب بدأت عام 1981 ولم تنته إلا عام 1988. كنا جميعا في سن الجندية لذلك أخذتنا الحرب من ثياب الشعر. لم يفلت منها إلا الشيوعيون الذين غادروا العراق عام 1979، قبل أن تقع الكارثة.

عام 1984 وقع حدث استثنائي يكاد يكون مفصليا في تاريخ الدعاية للجيل السبعيني الذي لم يخرج يومها من خيمة مجلة «الكلمة» بالرغم من أن عددا من شعراء ذلك الجيل كان قد أصدر كتابه الشعري الأول. كان كاظم جهاد هو أول مَن تمكّن من نشر كتاب شعري هو «يجيئون أبصرهم» من شعراء جيلي. غير أن عام 1984 كان قد شهد ولادة جديدة لجيل السبعينات الشعري وذلك من خلال حوار أجرته مجلة «الوطن العربي» التي كانت تصدر في باريس مع أربعة من الشعراء السبعينيين.

يومها عرّفني الشاعر اللبناني شربل داغر على جوزيف كيروز وهو صحافي لبناني كان واحدا من ضيوف مهرجان المربد الشعري.عرض عليّ كيروز مهمة ترشيح عدد من الشعراء الشباب لإجراء حوار من أجل تسليط الضوء على الظاهرة الشعرية الجديدة في العراق. لم تكن هناك مؤامرة مبيّتة كما خُيّل للكثيرين في ما بعد. كان هناك في بهو الفندق ثلاثة من رفاق

كان الهواء مسموما في سبعينات القرن العشرين. وهو ما لم نكن نشعر به في العراق المغلق مثل قفص دجاج. لم نكن نتوقع أن عصر الشاعر الدجاجة قد بدأ يوم كتبنا بياننا «خمسون بيضة فاسدة في سلة السبعينات». اليوم أستعيد تلك اللحظة مبتسما بألم. هل كان ذلك البيان نبوءة

الشعر هم زاهر الجيزاني وخزعل الماجدي وسلام كاظم فعرضت الأمر عليهم وذهبنا نحن الأربعة للقاء كيروز في غرفته بفندق المنصور ميليا. ولو كان خليل الأسدي ورعد عبدالقادر وكمال سبتي موجودين لدعوتهم للحضور. حين نشرت مجلة الوطن العربي الحوار اعتبرته الأوساط الثقافية نوعا من الكفر في الشعرية العراقية.

كنا غاضبين وسذّجا في الوقت نفسه. قلنا كلاما أراحنا وعبّر عن خيلائنا الساذج غير أنه لم يكن كلاما عميقا ولا مسؤولا. غير أن ذلك الكلام وجد مَن يعتبره المصيدة التي وقعنا فيها.

لقد كتبت عشرات المقالات في هجاء الشعراء الأربعة.

ما لم نتوقّعه أن تكون آراؤنا صادمة إلى ذلك الحد الذي دفع بالبعض إلى التحريض على تقديمنا إلى القضاء بتهمة الإساءة إلى إرث الأمة.

ما حدث بعد ذلك أني التقيت بالصدفة الشاعر سامي مهدي وكان يومها رئيسا لتحرير مجلة ألف باء فعرض عليّ بكرم أن تقوم المجلة بنشر ردنا على المقالات التي هجتنا. يومها جلست مع زاهر الجيزاني في بيتي وكتبنا مقالا طويلا بعنوان «خمسون بيضة فاسدة في سلة الشعر السبعيني» في إشارة إلى عدد المقالات التي هجتنا. بعد ذلك البيان انقطعت صلتي الشخصية بشعراء جيلي وكان السبب شعوري بأن العراقيين لا يمكن أن يجتمعوا على شيء. ذلك الحكم لا يتعلق بالقطيعية أو التآمر اللذين قد يجمعان البشر في سياق مغلق ينعدم فيه هواء الحرية.

وإذا ما كان مصطلح «الشعراء الأربعة» قد انتشر بين الأوساط الأدبية فإن انقطاعي عن الجلوس في مقاهي وحانات الشعراء قد دفع البعض إلى التفكير في من يكون الشاعر الرابع. وكانت تلك واحدة من سذاجات عصرنا.

كان الهواء مسموما في سبعينات القرن العشرين. وهو ما لم نكن نشعر به في العراق المغلق مثل قفص دجاج. لم نكن نتوقع أن عصر الشاعر الدجاجة قد بدأ يوم كتبنا بياننا «خمسون بيضة فاسدة في سلة السبعينات». اليوم أستعيد تلك اللحظة مبتسما بألم. هل كان ذلك البيان نبوءة؟

شاعر وناقد من العراق

أجمل فكرة في العالم

محمد الفخراني

أحياناً، وبسببه، أشعر بخيبة كبيرة.

هل هذا هو الإنسان الذي راهَنْتُ عليه؟ وعلى محبته، التعاطف معه، والوقوف إلى جواره؟

عندما يكون الإنسان هو رأس أفكارك، ثم يخذلك مرات كثيرة، عندما أنظر حولي فأرى إنسانًا يقتل إنسانًا، قتل، قتل، وأسأل نفسي أسئلة جديدة عن هذا الكائن الذي وضعْتُ عليه كل رهاناتي، واشتريتُه بكل ما لديّ، ثم هو يجعلني أشعر بالعار، يبعثر حولي رؤوسًا مقطوعة، بطونًا مبقورة، قلوبًا ممزقة، جثثًا تحترق، ودمًا يسيل، كأن الإنسان قد كفر بنفسه، وبفكرة الإنسانية، وعندما يفعل ذلك فلن يكون لديه أيّ إيمان، ولينتظر أسوأ نهاية، هل هذا ما راهنْتُ عليه؟

أتحدَّثُ هنا عن كل قَتْل، عن كل إنسان يَقتُل، عن كل إنسان يُقتَل في أيّ مكان، أراجع تاريخ الإنسان فأجد عددًا لا نهائيًا من القتلى، أكوامًا من الجثث تملأ تاريخ البشر، لا أفهم كيف يمكن لإنسان أن يقتل إنسانًا، لا أفهم كيف كان البشر جميعًا من نفس الأب والأم، كيف كنا معًا ثم يقتل بعضنا بعضًا، حتى لو كنا من ألف أب وألف أم وألف مكان، القتل أبدًا لن يكون مفهومًا، ولن يكون هناك سببًا يجعله مُباحًا.

منذ بداية التاريخ والإنسان يقتل، الآن فقط أكتشف هذا، القتل ليس جديدًا عليه، فَعَلَها منذ بداية وجوده على الأرض، هل هذا ما راهنْتُ عليه؟ لم يحدث في أيّ مملكة من ممالك الأرض، حتى في مملكة الحيوان أن حدثَتْ كل هذه المجازر، في مملكة الإنسان فقط توجد المذابح، المحارق، المشانق، والإبادة الجماعيّة، القتل لاختلاف اللون واللغة والمُعتقَد، والرأي، لأجل الحصول على مساحة إضافية من أرض، أو لفكرة ما تملَّكَتْ عقل شخص ما، مئات الأسباب اخترعها الإنسان طوال تاريخه ليقتل، هناك أيضًا القتل لأنك لستَ أنا، لهذا كانت المقابر، كي يدفن الإنسان عاره، حتى المقابر لم تكفِه، فملأت الجثث الشوارع والبيوت والغابات والأنهار، هل هناك نهر أو شجرة أو شارع لم يتلوَّث بدم إنسان؟ الإنسان الذي لم يتردَّد في أوقات كثيرة عَبر تاريخه، أن يقف فوق جثة أخيه الإنسان كي يُنشئ ما يُسمّيه «حضارة» ما، في مملكة الإنسان فقط العالم ضيِّق، كل هذا العالم لا يَسَعُنا؟

طوال تاريخه، مرَّتْ على الإنسان فترات من الانحطاط لم يكن ليجرؤ عندها أن يقف وَسْط أيّ مملكة من المخلوقات ويدَّعى الفخر بنفسه؟ أو يقول «أنا الإنسان»، وأنا؟ هل هذا ما راهنْتُ عليه؟ أتمنّى لو أقابل كل إنسان يَقتُل، وأطلب منه أن يتوقف لحظة واحدة ويفكّر، تذكّرْ من أنت، وما تفعله، فقط فكّر لحظة واحدة، هل هذا ما تريد أن تفعله، هل هذا ما تتصوَّره عن نفسك، ما تعتقد أنك موجود لأجله، هل أنت مخلوق لكل هذا الكره، والدم، أليس من الأفضل لوجهك أن يمنح ابتسامة، وليدِكَ أن تزرع شجرة، أو تُقدِّم كسرة خبز أو رشفة ماء، أليس من الأفضل لنا أن يسعنا العالم، فقط لو نظرنا حولنا لوجدناه أكبر بكثير ممّا نحتاج، لماذا نحن أغبياء إلى هذا الحَدّ، دمويِّين إلى هذا الحَدّ، قتلة إلى هذا الحَدّ؟ وأنا؟ هل هذا ما راهنْتُ عليه؟

لقد راهنْتُ على الإنسان، ولو خسِرْتُ هذا الرهان فليس هناك ما أكسبه، لا مكسب آخر سيفرحني أو يعوضني.

لكن، أفكر، هناك ما يجعلني أبْقى على هذا الرهان، لا يمكنني تجاهُل أنه حتى في تلك البداية البعيدة، عندما مَدَّ أحد الأخَوَين يده بالقتل فإن الآخر قد مَدَّ يده بالسلام.

الإنسان هو نفسه مَن أنشأ كل هذه البيوت الآمنة، الشوارع الصديقة، وأطلَقَ في العالم ملايين الأفكار التي جعَلَتْه مكانًا أفضل، كل هذه الكتب، مَنْ ملأها بأفكار عن الجمال، الحب، السلام، الرحمة، الشِّعْر، الحكايات، والموسيقى، الإنسان هو نفسه مَن استخلص روح العالم، اختصرَه في مقطع من شِعْر، مقطوعة موسيقية، أو حكاية رائعة، كل أنهار العالم، بحاره، أشجاره، ليله، نهاره، وكائناته، كلها في كُتُب سطرَها الإنسان بروحه ويده، هو مَن جعل لجمال العالم معنى، هناك ما يجعله يقف بين الكائنات ويقول «أنا الإنسان».

جَرِّبْ أن تنزع الإنسان من لوحة الوجود، لن يكون لهذا الوجود معنى، الإنسان أحد أقوى أسباب وجود العالم، هو مَنْ يجعله حقيقيًا ومفهومًا، أنا أثق أن الله ما خلق الإنسانَ إلا لأنه يحبه، ولم يكن ليحبه لو أنه ليس جميلاً.

ثم إني أفكر بأن لا شيء على الأرض أقوى من الروح الإنسانية، أنا أُقدّر هذه الروح التي ظلَّتْ صامدة رغم كل ما مرَّ بها، الإنسان، الفرد، هو أكثر كائن في العالم يواجه اختبارات عن جدارته بالحياة، ربما يتعرَّض لعِدَّة اختبارات في اليوم الواحد.

أفكر في أنه يمكنني الرهان على الإنسان، رغم كل شيء، أراهن لأجل بشر يعرقون كل يوم في عمل بسيط، شريف، المتجوِّلين، المتشرِّدين، أراهن لأجل بشر لم يصنعوا «مجدًا»، أو «حضارة»، لم يفعلوا شيئًا ذا بال، لم يعرفهم أحد، لكنَّ الكون يعرفهم، تعرفهم الأرض التي مشوا عليها، السماء التي أظلَّتهم، ويعرفهم خالقهم، أراهن لأجل الأمهات، الآباء الكادحين، ومَنْ عاشوا بلا أم أو أب أو ابن أو أخ أو أخت، الحيارى، الضائعين، التائهين، المبتسمين على الدوام، الحزانى دومًا، المتألمين إلى الأبد، أراهن لأجل الزرّاعين، الحصّادين، البنائين، رعاة البهائم، فاقدي الذاكرة، حاضري القلوب، مستيقظي الضمير، لأجل أتداء الأمهات، تلاميذ المدارس، الخبّازين، الحكّائين، السقّايين، الأطفال الحفاة، البنات والنساء المنكفئات على ماكينات الخياطة، بقعة عرق في ظهر امرأة مكافحة، الباعة المتجوّلين، المسافرين الأبديين، النائمين على أرصفة المدن، الجوعى، العطشى، مَنْ عاشوا دون شهرة أو مال، أو رغبة فيهما، حتى لم يكتبوا أسماءهم مرة بالطبشور في رصيف أو جدار، مَنْ لا يخشون الحياة أو الموت، المشائين في بلاد الدنيا، قاطفي القطن والثمار، مانحي الأمل، مَنْ يتقاسمون كسرة الخبز الوحيدة، رشفة الماء الأخيرة، ولا تزعجهم الرائحة الإنسانية، مُحِبّي البشر، داعمي فكرة وجود العالم، وجماله، مَنْ لا يُصدقون أن الإنسان مشى فوق القمر، مَنْ لا يصدقون أن الإنسان بإمكانه تدمير العالم، مَنْ يَقبلون كل البشر، وليس في لغتهم الخاصة كلمة «الآخر»، مَنْ يُصدّقون أن الإنسان هشٌّ جدًا، أصحاب الملابس الغارقة في العَرَق، والقلوب الطافية فوق نهر الحياة، الذين ملَّكَهَم العالم نفسه، لأنهم لا يملكون منه شيئًا، وهل هناك مَنْ يمتلك شيئًا في العالم بالفعل؟ أيّ مُغفل يعتقد ذلك؟ أراهن لأجل من عاشوا حياة حقيقية تليق بإنسان، لأجل مَنْ يعرفون أن ما يمتلكونه مِن العالم هو ما بداخلهم، وهم في الوقت نفسه يُقدّمونه إلى غيرهم، فينمو به العالم، وينمو ما بداخلهم أكبر كلما قدّموه لغيرهم أكثر، صانعو «المجد» الحقيقي في العالم، ولولاهم ما تحقّقَتْ فكرة الإنسانية.

عندما أنظر في عيون البشر، أرى الحزن في عيونهم متشابهًا، ويشبه حزني، عندما أسمع ضحكهم أجده متشابهًا، ويشبه ضحكي، مقاس أحضانهم واحد، وهو بمقاس حضني، حجم قلوبهم واحد، وهو بحجم قلبي، وأثِقُ أنها ليست مصادفة.

أنا لن أفقد إيماني بالإنسان، لن أسحب رهاني عنه، وأعرف أنى لن أخسر، لكنى في الوقت نفسه، لن أتوقف عن مُساءلَتِه، وعليه دومًا أن يُثبِتَ جدارته بالعالم، والحياة.

بالنسبة إليّ، سيظل الإنسان: أجمل فكرة في العالم.

كاتب من مصر

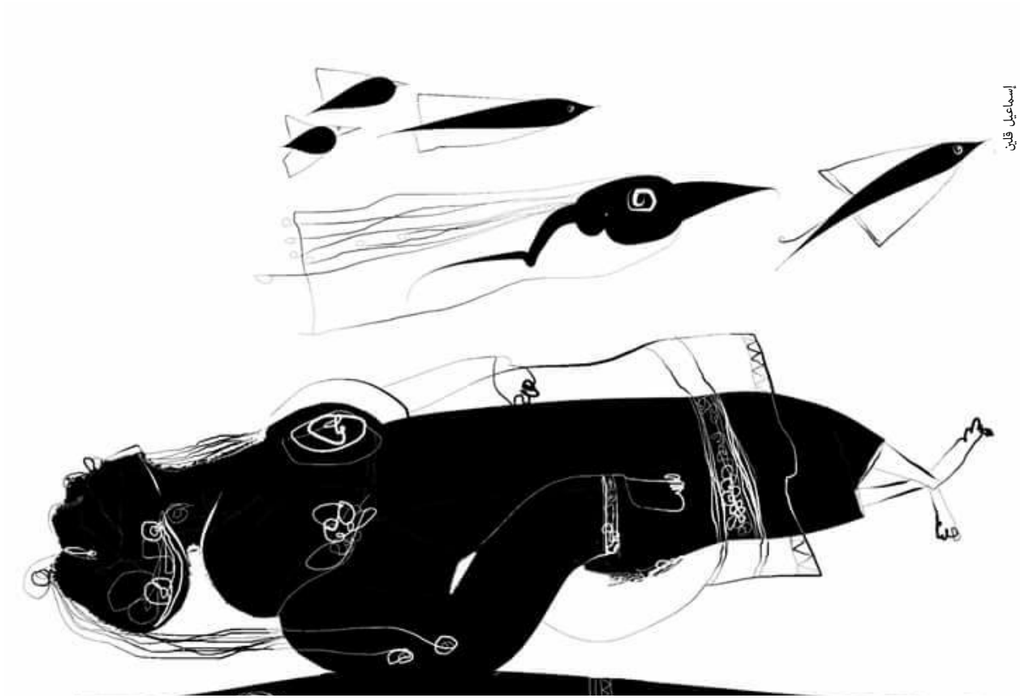

إسماعيل قاين

اعتراف لا يريد أن يظل متأخراً

رسالة إلى شيخ النقاد خلدون الشمعة

أمين الزاوي

جاء جيل من «النقاد» أو ما أطلق عليهم اسم نقاد «الحداثة العربية» فأغرقوا السوق الثقافي والجامعة والمنابر الإعلامية ومعها أغرقوا اللغة في خطاب غامض، يدعي وهما «المفهمة كاملة» و«التمفهم المطلق»، ينحت خارجيا من متن فلسفي لا يفهمه ولا يحاوره، يريد عسراً أن يتلبسه كي يقال عنه إنه في «الحداثة».

الأستاذ الناقد خلدون الشمعة، أحييك أيها الشيخ وأنت تحرس ضوء شمعتك في ضباب لندن
هل تعلم أننا في الجامعة، في السبعينات، كنا نجد في اسمك ليس شمعة فقط بل مصباحا.
يومها كان يشاركنا هذا الاعتبار القاص عمّار بلحسن أستاذ علم الاجتماع الأدبي، والذي رحل مبكرا عن هذه الحياة، والذي كان يقرأك بنهم. كنت تمثل نورا يضيء لنا مسالك الكتابة ونحن على عتبتها مترددين، خائفين.
علمنا جيلكم من النقاد كيف يكون النقد الأدبي موقفا فكريا و سياسيا و حضاريا، و كيف يكون الناقد جزء من نقده، من رسالة نقده، كيف يكون مثقفا مواطنا، يحمل رسالة تنوير و تغيير.

كنا طلبة جامعة وهران بالجزائر، نتسابق على مقالاتكم و كتبكم، نقرأها بلهفة و تمعن و سؤال، و كانت تخلق فينا نقاشات كثيرة، تربط ما بين الأدبي و الاجتماعي و السياسي و الفلسفي، يقرأ ما تكتبونه طلبة الأدب و طلبة علم الاجتماع و الفلسفة و التاريخ، كانت كتاباتكم للفكر الجامعي.

كنا ندرك ، مذ ذاك، بأنكم آخر سلالة المثقفين من النقاد الذين يؤمنون بفاعلية الأدب، وبفاعلية النقد و قدرته على التغيير، ليس العقول وحدها، إنما أيضا السلوك اليومي للمثقف المبدع.

إلى جانب عبد المنعم تليمة وبوعلي ياسين ونبيل سليمان غالي شكري ومحمود أمين العالم وصادق جلال العظم وجابر عصفور ونذير العظمة... كنتم الجيل الذي علمنا أن الأدب والفكر قادران على تغيير العالم، قادران على تغيير الإنسان، بكتاباتكم تغيرنا، وآمنا بالتنوير، وبكتاباتكم دخلنا معركة ضد الظلامية وضد أعداء الحرية على المستوى الثقافي والفكري والسياسي والإبداعي.

كنتم الجيل الواضح، جيل يكتب باجتهاد و بإيمان في ما يكتب، وكنتم الجيل الذي فتح الجامعة على سؤال المجتمع، وأقحمها في خضم الحراك المجتمعي، ليخفق قلبها لما يخفق به قلب المجتمع ، كنتم الجيل الذي فتح النقد الأدبي على سؤال مستقبل المعرفة التي تدافع عن الجمال والإنسان الحرية. كنتم استمرارا ثقافيا و أدبيا للعقل في التراث العربي وفي الوقت نفسه شكلتم قطيعة هادئة في اتجاه تغيير هادئ أيضا.

وكنتم أيضا الجيل الذي سجل حضوره المتميز في الإعلام الثقافي والأدبي الفاعل، لم تكن خطاباتكم نخبوية ولم تكن تبسيطية، كانت عميقة وحذرة، فكان القارئ الجامعي كما العام في انتظار ما تكتبون، لقد حققتم «لحظة الانتظار» في الوسط القارئ. بكتاباتكم ثقفتم المنابر الإعلامية ومنحتموها احتراما وهيبة وجعلتم قراءتها ضرورة ثقافية وسياسية بخطاب راق وعالم وهادئ وعميق.

كانت شهادة الواحد من جيلكم الناقد في حق روائي أو قصاص أو شاعر، في حق رواية أو مجموعة قصصية أو شعرية، شهادة لها وزنها ولها الأذن التي تسمعها ولها أيضا صداها في توجيه الكتابة وفي ترميم الخلل وتعميق البحث والسؤال، كنتم تكتبون نقدا دون أبوية أو أنانية بل باحترام التجارب على اختلاف مستوياتها من النضج.

كنا وقتها أقلاما إبداعية قصصية وروائية ناشئة تتأسس بهدوء واحترام وتردد تحت عينكم الناقدة، المتابعة بعمق ودون تجبر وبعيدا عن البطريركية الثقافية القاتلة، كنا نكتب ويدنا على قلوبنا في انتظار رأي منكم.

ما الذي يحدث بعدكم ؟

أستاذي خلدون الشمعة، بعدكم جاء جيل من «النقاد» أو ما أطلق عليهم اسم نقاد «الحداثة العربية» فأغرقوا السوق الثقافي والجامعة والمنابر الإعلامية ومعها أغرقوا اللغة في خطاب غامض، يدعي وهما «المفهمة كاملة» و«التمفهم المطلق»، ينحت خارجيا من متن فلسفي لا يفهمه ولا يحاوره، يريد عسراً أن يتلبسه كي يقال عنه إنه في «الحداثة».

نصر وردر

أستاذي خلدون الشمعة، هكذا مع الجيل الذي بعدكم، دخل النقد في فراغات لغوية، وفي متاهات و جداول و أسهم لا تشبه في غموضها سوى «رقية» الراقي الدجال، و ابتعد النقد عن الثقافة وأصبح صناعة وترديدا ببغاويا لأسماء كبيرة عالمية أسست خطابها ضمن منطق حضاري وبنية فلسفية خاصة، واختلط الحابل بالنابل، مصطلحات لا أنزل الله بها من سلطان، وترجمات لمفهومات فلسفية بطريقة «مضحكة»، ودخلت الثقافة العربية في نفق، وتنازل الخطاب النقدي عن حسه الفكري والحضاري والسياسي وانزوى في مربع «التقنوية» و«البذخ الخطابي»، ومع تموقع هذا الجيل في الجامعة وبخطابه «المتعلمن» انفصلت الجامعة عن المجتمع، وانفصل الناقد عن ومنابر الإعلام، وحتى إن حضر لا أثر لكتاباته، ولا صدى لها في وسط المبدعين.

نعم أستاذي خلدون الشمعة، اليوم أردت أن أحييك ومن خلالك أن نعترف لجيلكم بقيمة التأسيس و بقيمة السلطة الفكرية الرمزية التي تغير دون أنانية أو أبوية. فتحية لجيلكم.

كاتب من الجزائر

ثقافة الانحطاط من الهامش إلى المركز

حسن حماد في «دوائر التحريم»

محمد الحمامصي

يؤكد حسن حماد أستاذ ورئيس قسم الفلسفة والعميد السابق لكلية الآداب جامعة الزقازيق أن دوائر التحريم في حياتنا كثيرة ومتعددة ومتنوعة ومتحركة، تتسع تارة وتضيق تارة أخرى، تتقاطع وتتداخل وتتماسّ مع بعضها بصورة دائمة وربما تتطابق أحيانا، وأن الاقتراب منها هو اقتحام لمناطق فكرية محظورة، والكتابة عنها مغامرة خطرة بقدر خطورة وحساسية الموضوع.

يسعى حماد في كتابه «دوائر التحريم» إلى تفكيك وتحليل ونقد ثلاث دوائر هي: دائرة السلطة ودائرة الجسد ودائرة المقدس. والدوائر الثلاث متشابكة فيما بينها بصورة تصعب مناقشة أيّ منها بمعزل عن الآخر، فهناك علاقات سرية وخفيّة ومبهمة وغامضة تتم فيما بينها. فالدائرة الأولى وهي السلطة (خاصة السلطة بمعناها السياسي) إذا ما كانت سلطة دنيوية ستبدو سلطة مدنسة من وجهة نظر لاهوتية، أما إذا امتزجت بالدين ستصبح سلطة مقدسة ومطهرة لأنها ستحكم حينئذ باسم الإله. أما الجسد بشكل عام فينتمي إلى دائرة المدنّس إلا أنه قد يكتسب صفات المقدس بالوضوء والصلاة والنظافة والغسل في حالة الموت، أما الدائرة الأخيرة وهي المقدس فظاهريا تبدو مبرّأة تماما من كل ما ينتمي إلى دائرة المدنسات سواء شملت هذه الدائرة الأخيرة ما هو إنساني أو ما هو نجس.

ويشير حماد إلى أن المحرّم هو دائرة التقاء المقدس بالمدنس، ويقول «من الأشياء الغريبة التي تمكن ملاحظتها في الثقافات القديمة أن الخطر الذي ينجم عن ملامسة الكائنات المقدسة هو نفس الخطر الذي ينشأ عن ملامسة الأشياء النجسة أو المدنسة، فالمحظورات التي تقي من النّجاسة هي نفسها التي تعزل القداسة وتصونها من خطر الاختلاط بما هو مدنّس، فمن الأسباب التي تسبب النجاسة في معظم الديانات الدم وخاصة دم الطمث أو الحيض، وكافة الأشياء التي تخرج من الجسم مثل المنيّ والبول والبارز والصديد.. إلخ، وأيضا يمثل روث الحيوانات واحدا من مصادر النجاسة. وثمة أحكام دقيقة تحدد أنواع التماس اللامباشر التي يمكن أن تنقل عدوى النجاسة بمجرّد لمس أشياء معينة، فالنجاسة تظل عالقة بالملابس القطنية وأواني الطبخ المعدنية والأطعمة المطبوخة ولكن من حسن الحظ أن الماء والأرض لا يقومان بنقل النجاسة».

ويضيف أن مصادر النجاسة تتعدد في الثقافات المختلفة بحيث يصعب إحصاؤها، فهي تختلف باختلاف الشعوب والمجتمعات، ومنها ما يحظى بواسع انتشار، ولكنها جميعا تنفق في خطورة الاقتراب منها أو ملامستها، ومن الأمثلة الصارخة على الاحتياطات الرهيبة التي تمارس لدى بعض القبائل لتجنّب النجاسة، ذلك المثال الذي يذكره روجيه كايو والمتعلق بطريقة التعامل مع المرأة أثناء فترة الحيض، ففي بعض القبائل يتم نفي الفتيات عند بلوغهن، ويتم نفيهن عند حيضهن إلى كوخ بعيد أقيم خصيصا لهذه الغاية ثم يمنعن من مغادرته مادمن على هذه الحالة، وما لم يخضعن لعملية تطهير طقسية تذهب بكل أثر لما كان. وفي هذه الأثناء تتولى النساء المتقدمات في السن -بحكم أنهن يتمتعن بالمناعة المطلوبة - بعملية إعداد الطعام وحمله إليهن، ثم يتم التخلص من الأواني التي أكلت فيها السجينات فتكسر وتدفن بعناية في التراب، أما مسكنهن فيكون محكم الإغلاق إلى درجة أن بعضهن يموت اختناقا بسبب انعدام النور والهواء، وذلك تلافيا لإصابة أشعة الشمس بالدنس في حال سقوطها عليهن، وإن كان يكتفى في بعض الحالات بأن يطلب منهن طلاء وجوههن باللون الأسود تحقيقا لهذه الغاية. وغالبا ما يتم وضع الكوخ الذي يقمن فيه على منصة عالية منعا لإصابة الأرض بعدوى النجاسة، وكان من الأفضل أن ترفع المرأة الحائض على أرجوحة طيلة فترة حيضها، باعتبار أن هذه الطريقة تحقق شروط عزلة شبه كاملة ومطلقة.

ويوضح حماد إن المحظورات التي تقي من النجاسة هي نفسها التي تحمي القداسة، فالثقافات التي تضفي على الملوك صفات إلهية تقوم بعزل القداسة التي يتمتع بها الملك الإله بعيدا عن المس واللمس، فالملوك في الحضارة المصرية القديمة كانوا في مرتبة الملك الإله بوصفهم من سلالة الإله الأعظم «رع»، ولذلك كان شخص الفرعون الإلهي أقدس من أن يخاطبه أحد بصورة مباشرة فمن كان بشرا عاديا لا يستطيع التكلم مع الملك، إنما يتكلم في حضرة الملك، وعلى المرء أن يلجأ لأساليب ملتوية ومراوغة ليتجنب الإشارة المباشرة للملك مثل «فلتسمع جلالتك» بدلا من «فلتسمع» أو «يصدر أحد الأمر» بدلا من «يصدر هو الأمر».

ومن الطبيعي أن يتوازى تجنب التماس اللفظي مع جلالة الملك بالتماس الجسمي بشخصه، فلا يجرؤ أحد على الدنوّ من شخص الملك أو حتى من الأشياء التي يستخدمها، فويل لمن مسّ حتى صولجان الملك. فكل ما هو جزء من شخص الملك، كظله مثلا مترع بالقداسة؛ لذلك كان جسد الملك خطرا على البشر العاديين فيما عدا الخدم والكهان الذين يعملون في خدمة الملك، فهم في مأمن من الأذى الماحق الذي ينجم عن اتصالهم بالإله.

ولم تكن عقيدة عزلة الملك المقدس قاصرة فقط على الفرعون المصري فالملك الإله من نوع «الميكادو» (لقب إمبراطور اليابان) كالمرأة الحائض لا تجوز له ملامسة الأرض أو التعرض لضوء الشمس. وعندما كان الميكادو يلتفت بشيء من التركيز إلى جهة معينة كان يعتقد أنه سوف ينزل أبشع الكوارث بالمناطق التي خصّها بدفق نظراته الجارف. وليس هذا فحسب بل إن الأشياء التي يستخدمها والتي يتم إعداد طعامه فيها يتعين تكسيرها ودفنها حتى لا يستعملها في أثره غافل فيصاب فمه وحلقه بالتورم والتقرحات.

ويقول حماد إن أمر كلمة محرّم في اللغة العربية لا يختلف عن اللغات الأجنبية الأخرى، فهي أيضا كلمة ذات دلالة مزدوجة تشير إلى كلّ من المقدس والمدنس أو الطاهر والنجس معا، فلسان العرب لابن منظور يذكر أن كلمة الحرام نقيض الحلال، «والحرام: ما حرم الله» «والحريم: ما حرم فلم يمس. والحريم ما كان المحرمون يلقونه من الثياب فلا يلبسونه». وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا حجوا لبيت الله يخلعون ثيابهم التي عليهم ولا يلبسونها ما داموا في الحرم، وكانت المرأة تطوف عارية أيضا إلا من سيور لا تستر عريها وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف بالبيت في ثياب قد أذنبنا فيها».

ويرى أن الحرام في الإسلام هو تلك القوة الخطرة التي تكمن في المقدس والمدنس معا برغم العزلة المفروضة على كل من الجانبين في القرآن، وبذلك فإن الإسلام يمضي في نفس النهج الذي مضى فيه أصحاب العقائد القديمة في تعبيرهم عن المقدّس والملعون بكلمة واحدة هي الحرام، ولئن كان البعض يخلط بين المحرّم والمقدّس، إلا أن مجال المحرّم أكثر اتساعا من مجال المقدّس لأن مجال المحرّم يشمل الطاهر والنجس معا، فيما يقتصر

الدين عادة على محور الطهارة أو القداسة.

ويضيف إن الله في الإسلام هو فقط المنوط به تحديد دائرة الحلال والحرام، لكن واقع الممارسة الدينية يؤكد أن الفقهاء وأتباعهم على مدار التاريخ الإسلامي وحتى كتابة هذه السطور قد اغتصبوا هذه السلطة المطلقة لله ونسبوها لأنفسهم فيما يعرف بالفتاوى التي اتخذت لدى المسلمين المعاصرين طابعا فوضويا وعبثيا فأصبح بوسع أيّ أحد أن يمارس وظيفة الإفتاء بمجرد أن ينضم إلى أحد الجماعات الإسلامية أو ينتسب إلى مؤسسة الأزهر، وبذلك اتسعت دوائر التحريم لتنال كافة التفاصيل الصغيرة في حياة المسلم بدءا من الأفكار والأخيلة ومرورا بالكلمات والألفاظ ووصولا إلى الأفعال والسلوكيات التي يمارسها في حياته اليومية، ومن ثم فقد أضيفت محرمات جديدة إلى المحرمات المذكورة في القرآن بعضها مستمد من السنة النبوية وبعضها مستمد من سير الصحابة والتابعين ومعظمها من صنع شيوخ الفتاوى والتحريم ومن ابتكار خيالاتهم المريضة، فمن هذه الفتاوى تحريم الأغاني والأفلام والمسرحيات وكافة أنواع الفنون التشكيلية بوصفها وسائل تحرّض على الفحشاء وأدوات للإلهاء والانشغال عن الأمور الدينية. ومن التحريمات المألوفة لدى المتشدّدين ظهور المرأة في المجال العام، ذلك أنهم يحرّمون كل ما يمتّ للمرأة بصلة: صوتها، رائحتها، وجهها، جسدها، ولذلك ينبغي توخّي الدقة في عزلها وحجبها وتصميتها بوصفها عورة ينبغي سترها. أيضا من التحريمات الجديدة تحريم الديمقراطية والعلمانية والاشتراكية بوصفها بدعا صليبية كافرة، ولكن لأن الضرورات تبيح المحظورات لذلك لا مانع لدى الأصولي من أن يستخدم المسلمون الديمقراطية كمطية للوصول إلى السلطة ثم بعد ذلك يتم التخلص منها إلى الأبد.

ويشدد حماد على أن دوائر التحريم ليست قاصرة فحسب على السلطة الدينية، ربما تكون السلطة الدينية هي أكثر السلطات قدرة على تعزيز المشاعر التحريمية، لأن المعتقدات الدينية إذ تنفذ إلى قلب وأعماق الإنسان تتحول إلى سلطة باطنية مطلقة لا تجب مناقشتها لا يجوز فهمها. أما السلطات الأخرى التي تنافس السلطة الدينية في فرض تحريماتها ومحظوراتها، فتأتي في مقدمتها السلطة السياسية بكل مؤسساتها وأجهزتها وأدواتها إلى جانب السلطة الاجتماعية الممثلة في العرف والتقاليد وسلطة الرأي العام والسائد والمألوف.

إن هذه السلطات كثيرا ما تدخل في منافسة وصراع مع السلطة الدينية من أجل فرض نموذجها ومثالها التحريمي على الأفراد والجماعات، ولكن عندما تكون السلطة السياسية والسلطات الثقافية والتربوية التابعة لها في حالة من الضعف والهشاشة والرخاوة، هنا تصبح المؤسسة الدينية لها الكلمة العليا في حياة الإنسان، فهناك علاقة طردية ما بين القمع السياسي والتشدّد الديني، فكلما تقلصت مساحة الحرية اتسعت دائرة الإرهاب والتطرف الديني، وبالتالي تتسع دوائر التحريم بحيث يصبح التفكير جريمة تساوي التكفير، ويصبح كل جديد أو تجديد بدعة وضلالة ينبغي قذفها في النار.

في دراسته الأولى «اللغة والسلطة» كشف حماد عن ذلك التواطؤ الخفي بين ثقافة المهمشين والثقافة الأصولية، وبرغم أن الأولى تنتمي إلى دائرة المحرمات المدنسة والثانية تدّعي الانتساب إلى المحرمات المقدسة، إلا أن الدراسة تؤكد أنهما يلتقيان على أرض واحدة هي ثقافة الانحطاط وهي ثقافة تتشكل من مفردات تبدو ظاهريا غير متجانسة مثل الهوس الديني، الابتذال اللغوي، الهوس الكروي والإسفاف الفني. وهي ثقافة لم تعد قاصرة على المهمشين فقط، بل امتدت إلى الطبقة الوسطى وإلى فئات الطبقات الأعلى، بمعنى آخر فإن ثقافة الانحطاط تحولت من ثقافة هامش إلى ثقافة سلطة وأصبحت تمارس تأثيرا موازيا لسلطة الدولة وربما تتفوق عليها.

إن ثقافة الانحطاط لا تتناقض بأيّ صورة مع الثقافة الأصولية لأن كليهما ينبع من مصدر واحد هو «البعد الهمجي في الإنسان»، وكلاهما يمكن أن يؤدي إلى الآخر، فالانحطاط الثقافي والأصولية وجهان لعملة واحدة هي الطغيان أو الاستبداد بكل أطيافه الدينية والسياسية والثقافية.

ويؤكد حماد أنه برغم الوعي بجدلية السلطة وتداخلها وتنوعها إلا أن أخطر أنواع السلطة التي يمكن أن تمارس قهرها على الإنسان هي السلطة اللاهوتية السياسية. هذه السلطة تمارس نوعا من القمع الرهيب الذي يستند إلى سلطة الإلهي أو المقدس، وهي في نظرنا أعتى وأصعب أنواع السلطة لأنها تستند إلى كلمات وجبروت وإرادة الرب، ومن ثم فإنها تصبح سلطة أبوية مطلقة لا تكتفي فقط بالسيطرة على المؤسسات السياسية والاجتماعية، بل تمتد سلطتها القاهرة لتفتش في الضمائر والسرائر وتسيطر على العقول والأنفس والأبدان.

وجاءت الدارسة الثانية في القسم الأول من الكتاب لتؤكد أن قتل الأب بدلالاته الرمزية المتعددة هو المقدمة الضرورية للتمرّد والتحرر الإنسانيين. وهكذا فإن الدارسات التي يتضمّنها كتاب دوائر التحريم تشكل محاولة لانتهاك دوائر القمع الجهنمية التي تحاصر الإنسان العربي وتسلبه حقه في الحياة، ومن ثم فإنه كتاب يدافع عن الحرية بوصفها القيمة النهائية للإنسان وبوصفها السبيل الأوحد أمام الإنسان للتحرر من كافة أوهامه اللاهوتية والسياسية.

كاتب من مصر

أحمد المرخي

المؤرخ أحمد بن أبي الضياف
مصلحا مناهضا للاستبداد الشرقي

حسونة المصباحي

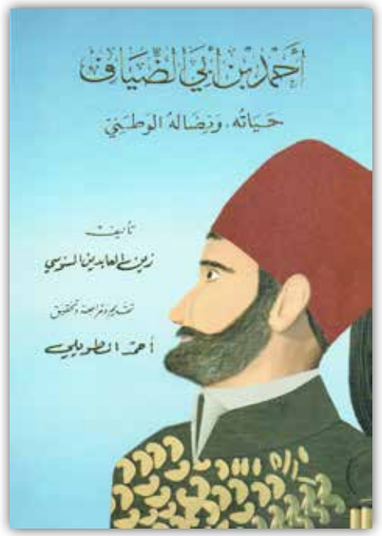

في هذه الفترة التي يكثر فيها الحديث والجدل في تونس حول الهويّة، والتاريخ الوطني، يأتي كتاب: «أحمد بن أبي الضياف-حياته ونضاله الوطني» ضمن الكتب التي تعيد الاعتبار لشخصيات كبيرة سياسية، وفكرية، لعبت دورا هاما، وأساسيًا في بلورة المشروع الإصلاحي الحداثي الذي بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتبنته النخب التونسية خلال فترة النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وقام الزعيم الحبيب بورقيبة بترسيخ دعائمه وأسسه من خلال إصلاحات وإنجازات في المجال الاجتماعي، والسياسي، والتربوي

مؤلف الكتاب هو زين العابدين السنوسي (1898-1965) الذي يُعرّفه محمد الهادي بن صالح قائلا بإنه كان "رافضا للفكر السلفي، رافعا لشعارات التحديث، داعيا إلى ثقافة جديدة قوامها الانفتاح، والتحرر، ونبذ التزمت». وينتسب زين العابدين السنوسي إلى عائلة عرفت بحبها للعلم. وكان والده من رواد الحركة الإصلاحية في تونس. وانطلاقا من مطلع الثلاثينات من القرن الماضي، دأب زين العابدين السنوسي على مساندة الحركات الطلائعية في مجال الثقافة والأدب. فكان يكتب النقد، والقصة القصيرة، وكان من أول المدافعين عن جماعة «تحت السور» الذين يعتبرون راهنا من رواد التحديث في القصة والشعر، وحتى في الموسيقى والمسرح. كما أنه انتصر للشابي في معركته المريرة ضد الشيوخ المتزمتين والمحافظين الذين اتهموه بالكفر والإلحاد.

وعندما ألقى صاحب «أغاني الحياة» محاضرته الشهيرة: «الخيال الشعري عند العرب» في المدرسة الخلدونية التي أسّسها المصلح الكبير البشير صفر عام 1896، نوه بها زين العابدين السنوسي، واعتبرها» ثورة في مجال النقد الأدبي» عند العرب المعاصرين. بالإضافة إلى ذلك، كان زين العابدين السنوسي من المساندين الكبار للطاهر الحداد في محنته بعد صدور كتابه «إمرأتنا في الشريعة والمجتمع» الذي أثار سخط شيوخ جامع الزيتونة وغضبهم فاتهموه بالكفر والزندقة، وطالبوا بمحاكمته بتهمة «الخروج عن الإسلام». وليقرن القول بالفعل، بادر زين العابدين السنوسي ببعث دار للنشر سماها «دار العرب» ليصدر العديد من الكتب المنتصرة للإصلاح والحداثة. كما بعث للوجود مجلة «العالم الأدبي» راغبا في أن تكون شبيهة بالمجلات المشرقية الشهيرة في ذلك الوقت. وفي الخمسينات من القرن الماضي أصدر جريدة «تونس» لتكون ناطقة باسم زعماء الحركة الوطنية وأنصارها. وكان الزعيم بورقيبة من بين هؤلاء.

أمّا الذي قدّم للكتاب فهو الدكتور أحمد الطويلي الذي دأب منذ ما يزيد على الثلاثين عاما على التعريف برواد الحركة الإصلاحية والحداثية في تونس، مُضدرا في شأنهم كتبا عديدة يستعرض فيها مواقفهم وأفكارهم بخصوص القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية.

وأحمد بن أبي الضياف هو أشهر مؤرخ عرفته تونس بعد مرور خمسة قرون على وفاة ابن خلدون. وهو من مواليد العاصمة التونسية عام 1804. وكان والده الحاج محمد بالضياف من شيوخ العلم المرموقين الذين اعتمد عليهم الوزير صاحب الطابع في مهمته كمسؤول أول عن مالية المملكة التونسية، وعن استخلاص الضرائب. إلاّ أن تقلبات الحكم والدسائس الكثيرة التي كانت تدبر في الخفاء سرعان ما عصفت بالوزير صاحب الطابع ليجد نفسه بن عشية وضحاها مُجَرّدا من كل مناصبه، ومن دون محاكمة عادلة، قتل شر قتلة من قبل خصومه.

وكان من الطبيعي أن يُسَاق الحاج محمد بالضياف إلى السجن مع جميع أنصار الوزير المقتول ليمكث فيه سنوات طويلة عرفت خلالها عائلته المذلة والهوان والفقر. ورغم هذه المحنة الشديدة التي ألمت به وبعائلته، فإن الفتى أحمد لم ينقطع عن الدراسة في الكتاتيب، مُكثرا من التردد على المكتبات ليقرأ كتب الأقدمين في التاريخ والأدب والفقه، ساعياً إلى أن يعثر في تلك الكتب على ما يساعده على فهم أساب الإستبداد والظلم في الممالك الإسلامية قديماً وحديثاً. وبعد إطلاق سراح والده، انتسب الفتى أحمد بن أبي الضياف إلى جامع الزيتونة ليكون من ضمن طلبة الشيخ ابراهيم الرياحي المعروف بأفكاره الإصلاحية، وبنفوره من كل أشكال التزمت والإنغلاق.

وكان هذا الشيخ الجليل يكنّ المودة والتقدير للوزير المقتول صاحب الطابع لأن هذا الأخير أخذ بيده في فترة ضاقت عليه فيها سبل العيش، حتى أنه شرع يفكر في الهجرة إلى مصر. وخلال سنوات الدراسة في جامع الزيتونة، إزداد الفتى أحمد معرفة وإلماما بظروف الحكم في العالم الإسلامي، وقرأ تاريخ الخلفاء والملوك الأمويين والعباسيين والعثمانيين ليتخرج بشهادة تاريخ وهو في الثامنة عشرة من عمره.

وفي عام 1827، وبعد أن رفعت المظلمة عن والده الذي كاد «يقتل كما تقتل الدجاجة» في المؤامرة التي دبرت ضد الوزير صاحب الطابع، اختص الباي الشاب أحمد بن أبي الضياف بكتابة سره، ليكون بفضل تلك الوظيفة الخطيرة والسامية قريبا من مراكز القرارا ت الكبرى، وشاهدا على كل ما يدور في الكواليس، وفي المجالس السرية والعلنية.

ومستغلا وضعه هذا، شرع سراً في تأليف كتابه الشهير «أتحاف أهل الزمان في أخبار تونس وعهد الأمان» ليكون من أبرز الكتب التي اعتنت بأهم المراحل في تاريخ تونس، مركزا خصوصاً على تاريخ الدولة الحسينية منذ بدايتها في منتصف القرن الثامن عشر، وحتى القرن التاسع عشر. وفي هذا الشأن، كتب زين العابدين السنوسي يقول: «كان ابن أبي الضياف يكتب تاريخه العظيم دون أن يغفل لحظة عن سياسة دولته واعتبارات ساعتها، فيما يذكره وفيما ينسى ذكره». وبعد أن كسب ثقة الباي، كلف أحمد بن أبي الضياف بالعديد من المهمات الدبلوماسية ليتعرف عن كثب على أصول الحكم في العديد من البلدان. كما أنه رافق أحمد باي في الزيارة الشهيرة الني أداها إلى فرنسا عام 1846، ليسجل كل وقائعها بفطنة المؤرخ، وأسلوب الراوي الشرقي المشوق والمثير.

قبل تلك الزيارة التاريخية، كان أحمد بن أبي الضياف قد تخلى عن اللباس التونسي التقليدي الشائع في زمنه ليرتدي الزي الأوروبي. وقد كتب زين العادين السنوسي في هذا الشأن يقول: «فحسبنا هنا أن نسجل أن ابن أبي الضياف، كان أول تونسي بلديّ متخرج من جامع الزيتونة لبس اللبوس الأوروبي في موكب من قومه، نابذا فيهم العمامة، مثقبعا بينهم الطربوش الرومي».

وكان أحمد بن أبي الضياف من أكبر المساندين لحركة الوزير خير الدين باشا التونسي الإصلاحية التي بدأت في النصف الثاني من القرن العشرين. وكان مساهما بشكل فعال في سنّ أول دستور تونسي، وذلك عام 1861. بل أنه كان عماد ذلك الدستور كما يؤكد على ذلك زين العابدين السنوسي.

وكان أحمد بن أبي الضياف دؤوبا على مناصرة قضايا العدل والحرية، مُنتقدا بشدة كل مظاهر الإستبداد والتسلط التي تتميز بها أنظمة الحكم في بلدان الشرق العربية الإسلامية. ويشير زين العابدين السنوسي إلى أن أحمد بن أبي الضياف «كان في طليعة الشباب التونسي الأول الذي ظهر بفكرة الوطنية». والوطنية عنده كانت تقوم لديه مقام «الرابطة الدينية» التي كانت شائعة في ذلك الوقت في العالم الإسلامي بوحي من الخلافة العثمانية التي كانت باسطة نفوذها وهيمنتها على جل البلدان العربية مشرقا ومغربا.

وقد دفع الحس الوطني أحمد بن أبي الضياف للدفاع عن الأقليات المسيحية واليهودية في تونس. كما دفعه حبه للحرية، ونبذه للطغيان إلى مناصرة المظلومين والمضطهدين في المملكة التونسية. وهذا ما ينعكس بشكل واضح وجليّ في «الإتحاف».

ولا يغفل أحمد بن أبي الضياف عن ذكر تفاصيل مؤامرات الدول الأوروبية التي كانت تخطط لبسط نفوذها على البلاد التونسية، مستغلة أوضاعها الاقتصادية، والمالية المتردية، وفساد حكامها، وجهل رعاياها. ورغم وظيفته السامية، لم يمنع أحمد بن أبي الضياف نفسه من توجيه انتقادات شديدة اللهجة إلى فساد البايات ووزرائهم. وفي هذا الشأن، كتب يقول: «إن وزراء هذا الصنف من الملك المطلق القهري، هم في الحقيقة وزراء تنفيذ لأغراض ملوكهم، لا قدرة لهم على معارضته معارضة تقتضي إغماد سيف الشهوة، لأنهم بين ناب الليث وظفره، يراهم دواجن بيته المعلوفين لطُغمته، ويرى ما بأيديهم مالا من ماله، وكلهم من صنائعه ومواليه، فحالهم معه كالوتد يشجّ فلا يرثي له أحد».

وعندما قارب سن السبعين، بدأت علامات الهرم تظهر على أحمد بن أبي الضياف، فانقطع عن ممارسة وظيفته السامية، ولم يعد يظهر للناس إلاّ في بعض المناسبات الرسمية الكبيرة. وفي سبتمبر من سنة 1874 أسلم الروح، متماً بذلك السبعين من عمره.

كاتب من تونس

شاكر لعيبي يقدم مقاربة عربية لشعرية الأمثال الصينية

عبدالله مكسور

يدخل الشاعر والأكاديمي العراقي المقيم في تونس شاكر لعيبي عالم الأمثال الصينية من مدخل تشكيلي يقودُه نحو التعرف على قوانين الجمال البصري مقارناً إياها بقانون الجمال الإغريقي، ليسير بعد ذلك نحو الفكر الذي يحرك الفن التشكيلي في بلد عريق مثل الصين، هذه الخطوات يدفعها الفضول لمعرفة تجليات أخرى لهذه الجماليات في الشعر والنثر وبالتالي الوقوع في قلب الأمثال التي تشكّل في جوهرها صياغة بسيطة للفكر الصيني من الناحية الشكلية وهي في ذات الوقت الأقرب إلى الفهم ظاهرياً من تعاليم الفكر الطاوي والكونفوشيوسي والبوذي.

في كتابه الأحدث «معجم الأمثال الصينية، مقاربة عربية للشعريات الصينية»، الصادر عن دار الفيصل الثقافية، يرى لعيبي أن الأمثال الصينية تعبّر عن نظام من القيم الأخلاقية والاجتماعية والمطبخية والاقتصادية، وتبدو ظاهرياً كأنها تقرّر حقيقة بديهية لا تستوجب العناء، لكن البداهة هي جوهر وجودي يُجبر العقل على التعرّف إليه بصفته حقيقياً أو واقعاً من دون الحاجة إلى برهان، وبالتالي فإن الأمثال الصينية لا تتساوى في قيمتها، بعضها براغماتي وبعضها عالٍ رفيع وبعضها عادي مألوف، وما بينهما فسحة للتصورات المحلية الصينية عن الأشياء والاجتماع البشري من مثل «الذهب ليس بخيلاً، لكن البخيل يمتلك الذهب»، «لا تنتظر من الآخرين ما لست قادراً على وعدهم به»، «يصعب الحصول على صديق في عام، يسهل فقدانه في ساعة واحدة».

التوقف عند العنوان

قبل الولوج في عالم الكتاب لا بدّ من التنويه أنّنا أمام عمل يبدو في ظاهره إعادة إنتاج وتجميع للمقولات التي استخدمتها الثقافة الصينية كأمثال، إلا أننا وبمجرد الإبحار في هذا العالم الواسع سنلمس الجهد المبذول في عملية بناء الكتاب الذي امتد ما يقارب 200 صفحة، وضع فيها لعيبي خلاصة المقاربات العربية للشعريات الصينية.

في التوقف عند العنوان فإنّ المترجم يؤسّس لفلسفة شعرية للأمثال الشعبية التي حدثت ضمن مناسبات محدّدة أو نتيجة ارتكازات تاريخية أو إثنية أو اجتماعية فيعمل على خلق مقاربات أسّس لها في المقدمة التي أثار فيها خلال أربعين صفحة جملة من الأسئلة التي تشكّل في جوهرها أساساً لأبحاث عديدة.

عن سؤال لماذا معجم الأمثال الصينية؟ يجيب لعيبي في مقدمته «لأنّ الأمثال الصينية تتضمن كثيراً من الاستعارة والحكمة في آن واحد»، من الطبيعة والصناعة «بالمعنى العميق للصناعة»، تحتوي بالأحرى على كتاب الصناعتين «الشعر والنثر» فربطُ الأمثال بالشعرية عند المترجم ينطلق من فهمه للشعريات بمعنى الخلق الفني والجمالي إلى جانب دراسة الأشكال الأدبية والأسلوبية السردية ومجازات الخطاب وعلم الخلق اللفظي، فالتعرف إلى تقاليد جمالية غير الجماليات اليونانية في الفن التشكيلي وفي الشعر يأخذ شكلاً اكتشافياً جديداً فحواهُ وضع إطار عام لتعلُّق حدود المعرفة بالشعر العربي بأساسات الشعر الآسيوي.

التمهيد النظري

في سبيل هذه الغاية يشتغل شاكر لعيبي على «التمهيد النظري لقانون القصائد» أو «الكتاب المقدس للشعر في الصين»، ف«الشيجنغ» كما يُعرَف صينياً هو أقدم مجموعة من القصائد المعروفة في الأدب الصيني، وهو جزء من خمسة أجزاء تشكل الكتب القانونية أو المعيارية عالية القيمة والمقدسة بعيداً عن المفهوم الديني خلال حقبة عائلة هان الغربية التي اعتمدت الكونفوشيوسية أيديولوجية رسمية، لتصبح هذه النصوص فيما بعد جزءاً من المناهج الدراسية التي ترعاها الدولة، فالصينيون اعتبروا النص الشعري في ثقافتهم قضية معيارية أقرب إلى مقدّسهم وتصوّفهم، لهذا -وفق متخصصين أوروبيين- فإن اللغة الصينية هي لغة شعرية تتضمن تلقائياً الأشكال الشعرية من حيث دلالة الإيقاع والتعبير الشعري الذي يلعب دوراً جوهرياً في مجمل الأدب الصيني.

من هذه النقطة يبني لعيبي في مقدمته جسور الربط بين الشعرية الصينية والشعرية العربية، وفق مسارات متعددة تمنح القارئ فضاءات معرفية غير محدودة، ليصل إلى نتيجة أنّ النوع الشعري العربي تطوّر كالشعر الصيني عن أغنية وقصيدة وصولاً إلى مراحله المتنوعة من الناحية الشكلية على الأقل.

ولأن الصين جزء من الشرق البعيد وتحضر في الذهنية العربية أو الشرق أوسطية على أنها مرتبطة بشكل أو بآخر بالثقافة اليابانية، لجأ المترجم إلى إيضاح الفرق بين الأمثال الصينية وطبيعة شعر الهايكو الياباني، وهنا يأخذنا الكاتب نحو بحث جديد يطرح فيه رؤى مختلفة حول الهايكو ومبادئه وتطوره وارتباط الفن بمفهوم تثمين الطبيعة في اليابان، وأقتبس من الكتاب «عندما يكتب شاعر الهايكو شعراً يمس ثنائية الوابي-سابي، فإنه يحاول غالباً القبض، في آن

واحد، على الجمال الزائل والخصائص المقيمة فيه، ينتج الهايكو الرفيع وضوحاً في الإدراك ويري القارئ الموضوع المعالج بدقة كأننا أمام رغبة في إصلاح أو إيقاف آثار الزمن أو الخبرة أو السن».

تطابق الحكمة

بتفصيل مبنيّ على المعرفة يناقش شاكر لعيبي فكرة الزائل والمؤقت في الهايكو الياباني وعدم وجودها في الأمثال الصينية، فرغم اشتراك الصين واليابان في الفلسفة البوذية على نطاق واسع، فإن الوعي الذي يحكم المثل الصيني لا ينطلق بالضرورة من مبدأ المؤقت والزائل، بل من حكمة تاريخية وشعبية تتضمن قيَماً يعتقد أنها «مُطلَقة» و«أبدية» في أحيان كثيرة.

صينيون وعرب

في التقاط مثير للانتباه يشير لعيبي إلى شكل من أشكال التطابق بين حكمة الصين الوثنية وحكمة الإسلام التوحيدي الذي يتحدث عن «النبي والله»، «الخير والقدر»، يقارب هذا بتساؤل عن مدى معرفة أهل الشام واليمن والحجاز في القرنين الخامس والسادس الميلاديين لرائد الحكمة الصينية «لاو تسيو» المولود عام 604 قبل الميلاد تقريباً، يستحضر هنا عبارات واحدة مشتركة مثل «مَن يأت إلينا ولم نستدعه هو القدر»، «كلما منَح الحكيم الآخرين، امتلك»، «الكائن الذي يمكن أن يسمَّى ليس الكائن الأسمى» في تعبير مجازي عن الحكيم الربّ كما يرد في النص القرآني الكريم «ولم يكن له كفواً أحد».

أمثال الصين وصلت إلى العرب عن الطريق الفارسي كما يرى لعيبي، وإن كانت خضعت في كثير من الأحيان إلى التحوير والتغيير بطريقة تستجيب لمزاج ومنطق وأعراف المنطقة العربية بعد نسبها من قبَل العرب إلى الفرس أو الإغريق، لهذا يؤكد المترجم في عمله على التناسب بين الأمثال الصينية والعربية، هذا التناسب كما يراه قد يُفسِّر المزاوجة التي تشترك بها الثقافتان بين «الاستعارة والحكمة»، وقول الحكمة بوسيلة مجازية أقرب للشعر منها إلى روح المنطق النثري العقلاني، وبذلك التعبير عن مشكلات الوجود الكبرى والحياة اليومية الصغرى بأسلوب يراوح بين الشعر والنثر وبين التهجم والطرفة.

يضعنا شاكر لعيبي أمام نسخة عربية لأمثال صينية قام بترجمتها عبر لغتين

قراءة المعجم بما قدَّم له شاكر لعيبي، تضعنا في تصور عام وفي إطار حقيقي لمحاولة فهم الذهنية الصينية من خلال الأمثال التي استخدمتها تلك الثقافة، كما يفتح هذا المعجم الباب واسعاً أمام البحث الثقافي والتاريخي المتعدد حول وصول هذه المعاني إلى العربية

وسيطتين هما، الفرنسية والإنكليزية، فالصينيون استخدموا وفرة من التعابير الإيديوماتيكية التي لا يضعها المترجم تحت مصطلح الأمثال بل يذهب إلى تقسيمات مختلفة بين التعابير الجاهزة، التعابير المعتادة، الأمثال والأقوال، تعابير مشوَّقة.

يطرح المترجم سؤالاً جوهرياً، هل يصح ترجمة أمثال الصين بتعابير وأمثال عربية معروفة مشابهة؟ خاصة أن للأمثال الصينية ما يشبهها في لغة العرب، وأتحدث هنا عن مقاربات لفظية تعتمد على المعنى الواحد، فأن يقول المثل الصيني «نستطيع الاستعانة بقلبنا لقياس قلب صديق» هو ذاته «القلوب عند بعضها»، بينما يضعنا المترجم مثلاً أمام مواجهة حقيقية مع ترجمة تنفي ما يحمله المثل الأصلي من قيمة، وأستحضر هنا ما يُقال في الصينية «في عيون العشاق ثمة خيشي وحدها»، يشير لعيبي أن خيشي هي واحدة من أربع جميلات في تاريخ الصين، بينما يرد التعبير العربي عن ذاك المثل بالقول «القرد في عين أمه غزال»!

بين الترجمة والتعريب يقدِّم لعيبي ملخصاً لما كتبه بالإنكليزية الباحث الصيني فينغ خويوين تحت عنوان «حول ترجمة الأمثال والتعابير الصينية ضمن منظور التثاقف»، حيث ثمة استراتيجيتان لترجمة التعابير الصينية، الأولى هي التدجين التي تشدد على لغة الغرض القياسية المنقول إليها من خلال محاولة تحديد التعابير المماثلة، والثانية هي التغريب «التي لجأ إليها لعيبي»، هذه الاستراتيجية تشدد على الترجمة الحرفية والحفاظ على الشكل الأصلي وعناصره الثقافية.

إن قراءة المعجم بما قدَّم له شاكر لعيبي، تضعنا في تصور عام وفي إطار حقيقي لمحاولة فهم الذهنية الصينية من خلال الأمثال التي استخدمتها تلك الثقافة، كما يفتح هذا المعجم الباب واسعاً أمام البحث الثقافي والتاريخي المتعدد حول وصول هذه المعاني إلى العربية في وقت سابق أو تلاقيها مع معاني مشابهة.

كاتب من سوريا مقيم في بروكسل

نصر ورور

المختصر

كمال بستاني

تعرية الفكر الداعشي

«الدولة الإسلامية بلسانها» كتاب لمريم بن رعد، الباحثة في معهد البحوث والدراسات عن العالم العربي الإسلامي، وعضو مؤسسة البحث الاستراتيجي بباريس، تجرد فيه بروباغندا الدولة الإسلامية من خلال تحليل خطابها المبثوث بلغات عديدة وبطريقة متطورة عبر مختلف قنوات الاتصال، من مجلات ومحطات إذاعية وتلفزيونية ووكالات أخبار، ليس لتفكيكه فحسب، وإنما أيضا لمعرفة أفضل السبل لمكافحته. وتقترح الباحثة شبكة قراءة ذكية تسلط عن طريقها الضوء على الفكر الداعشي بتعرية الثنائيات البارزة التي يقوم عليه ذلك الفكر بوصفها عناصر أساسية في مواجهة الغرب كالشرق ضد الغرب والخلافة لمواجهة الديمقراطية والإسلام للتصدي للكفر، وكلها نابعة من تمثل للعالم ينمّ عن بنى ذهنية قبل كل شيء تعكس أزمة راديكالية للحداثة أكثر من كونها تجليا لصدام الحضارات.

العزاء بين الصدق والتصنع

يثير كتاب الفيلسوف ميكائيل فوسيل، الأستاذ المحاضر بجامعة بورغونيا، مسألة ترجع بالنظر إلى الدين وعلم النفس وهي العزاء والسلوى، ولكنه يتناولها من زاوية فلسفية ليبين أن الفلسفة يمكن أن تكون بلسما للجراح الإنسانية لا سيما في عصرنا هذا الذي يصفه الكاتب بـ«زمن العزاء» نظرا لفقدان نماذج الجماعات البشرية ما يبرّر وجودها أمام الأخطار المحدقة والنهايات المحتومة. ويرى أن العزاء مراس صعب يقتضي التحدث عن ألم لا نشاطر غيرنا فيه، بل نحاول فقط أن نأخذ منه بنصيب، فإذا كل كلمة يلفظها المعزّي قد تحتمل إثارة الشك حول صدق قائلها أو تصنّعه لغايات قد لا تتعدى الامتثال للعادة. ومن ثَمّ يدعونا الكاتب إلى التخلي عن العزاء لأن في ذلك تجنبا لاستعادة تلك الأمثلة القديمة.

مسلمو فرنسا والأمل في غد أفضل

«كل هذا يفترض أن يخلق فرنسيين ممتازين» كتاب حواريّ بين نعيمة مفضل المنشطة في بعض المدن الفرنسية ذات النسيج الاجتماعي المهمش، وأوليفيي روا المتخصص في الإسلام السياسي، ويدور حول مسلمي فرنسا في علاقتهم بالوعد بقيام «إسلام فرنسي» مندمج كان طرح في سبعينات القرن الماضي، ثم آل إلى أحياء مهمشة ضيّعتها الجمهورية. تثير مفضل الواقع البائس اجتماعيا وثقافيا ومدينيًا وتدعو إلى اتخاذ سياسة مغايرة في تلك الأحياء المنسية، فيما يرى روا أن ثمة خطوات تسير في المسار الصحيح تجاه مسلمي فرنسا وأن الفرنسيين المسلمين يتجهون نحو خلق طبقة وسطى حقيقية، وأن شجرة الأعمال الجهادية الإسلامية لا يمكن أن تغطّي غابة النجاحات. الحوار صريح طرح مشاكل مسلمي فرنسا من جميع النواحي، وانتهى بأمل الطرفين في أن تؤدي الجهود إلى خلق فرنسيين من أصول عربية متميزين وممتازين.

التعويض الأكبر الحق

في كتابه «تصنيع المسلمين: مقالة في جعل المسألة الاجتماعية طائفية وراديكالية» ينتقد الباحث نجيب سيدي موسى المتخصص في العلوم السياسية تركيز الفرنسيين على «المسلمين» فيصفونهم مرة بكونهم تهديدا للنظام العام ومرة بكونهم ضحايا المنظومة، وأحيانا بهذا وذاك، وفي رأيه أن ذلك يدخل في إطار إعادة تنظيم المجتمع الفرنسي لأن «التعويض الأكبر» الحق هو تعويض صورة العربي بصورة المسلم والعامل المهاجر بالمنحرف المتشدد والشاب العربي الملتزم بذي جنسيتين تنزع منه جنسيته الفرنسية. وبالعودة إلى مسار هذا التحول يركز الباحث على دور السياسيين من شتّى الاتجاهات في نشر حمّى الهوية التي تشوش الحدود الاقتصادية والاجتماعية، وميل بعض اليساريين إلى التحالف مع التيارات الرجعية الإسلاموية التي تزعم تمثيل الأحياء الشعبية، وتضافر نشاط العنصريين والمناهضين للعنصرية ونشطاء الجاليات بشكل يخلق طبقة جديدة تشغلها الهموم الدينية أو العرقية.

نهاية ثنائية اليمين واليسار

الفيلسوف ألان بونوا هو أول من تنبأ بزوال ثنائية اليمين واليسار، رغم أن كتابه «يمين-يسار، انتهى!: اللحظة الشعبوية» صدر قبيل الانتخابات الرئاسية الفرنسية الأخيرة، وجاء استنتاجه انطلاقا من قراءة واعية للتحولات السياسية والمجتمعية التي سادت دول أوروبا والولايات المتحدة، واتسمت بصعود الشعبوية في كل مكان صعودا كان من نتائجه البريكسيت ثم انتخاب دونالد ترامب رئيسا لأعظم دولة في العالم. والسبب في رأيه أزمة تمثيل نيابي أكثر منها مسألة أيديولوجية، فالشعوب ما عادت تثق في الأحزاب التقليدية ولا في حكام يريدون ممارسة السلطة دون الرجوع إلى من يفترض أنهم يمثلونه، أي الشعب، فكان التصويت لوجوه من خارج «الاستبليشمنت» تحدّيا صارخا للمنظومة الكلاسيكية القائمة. ويتساءل هل الشعبوية لحظة عرضية عابرة أم أنها مدعوة إلى التجذّر والديمومة كوجه جديد من الممارسة الديمقراطية؟

مفارقات الديمقراطية

في الجزء الرابع من كتابه «ظهور الديمقراطية» يتساءل مارسيل غوشي عن الأسباب التي أدت إلى بروز عالم جديد بعد أزمة السبعينات من القرن الماضي، وعن جدة هذا العالم الذي يشهد انتصارا غير مسبوق لمبدأ الديمقراطية، ولكنه يجعل تطبيق هذا المبدأ إشكاليا. ويبيّن أننا نشهد اليوم المرحلة الأخيرة من «الخروج من الدينيّ»، ليس بمعنى الإيمان الفردي بل بمعنى المبدأ الذي كان ينظم حياة المجتمعات قبلنا. مثلما نشهد الدخول بعنف إلى الحداثة وهو ما يغير كل شيء في حياتنا من ظروف التعايش الكوني إلى هوية كل فرد منا. ويشرح أيضا كيف أن التنظيم السياسي الذي كان يحافظ في شكله على بصمة الخضوع للقوى المسلطة من فوق تبخّر، ونابت عنه وظيفة الدولة-الأمة التي اتخذته حجر الأساس للعالم المعولم. ويضيف أننا كنا نسكن تاريخا نظنّه متجها نحو المستقبل، فإذا هو مشدود إلى الماضي. أما بخصوص الحريات الفردية فهي لم تغادر الانتماء الاجتماعي ما ولّد مجتمعا منفلتا عن أعضائه وديمقراطيات عاجزة عن الحكم. فالفرق واضح بين أن تملك الأدوات التي تتيح لك السيطرة على مصيرك وبين أن تحسن التصرف فيها.

تعمّد تكرار الأخطاء

جديد عالم الاجتماع كريستيان موريل كتاب بعنوان «القرارات العبثية. سوسيولوجيا الأخطاء الراديكالية الثابتة» يحاول فيه فهم القرارات التي يتخذها الأفراد والجماعات بإصرار وثبات وهم يدركون أنها تخالف الغاية المنشودة. وتتولّد عنها في الغالب أخطاء راديكالية لا تتغيّر. ويضرب على ذلك أمثلة عديدة من الحياة اليومية في البيت والمصانع والطائرات والشركات التجارية والمؤسسات المالية، لا يتعظ فيها الناس بأخطائهم السابقة بل يتشبثون بقراراتهم وإن باءت النتيجة دائما بالفشل. ويتساءل: ما هو الاستقراء الذي ينتج مثل تلك القرارات؟ هل تبنيها الآليات المشتركة؟ هل يبررها رهان الغايات؟ ما مصير تلك القرارات؟ وكيف يمكن أن نخطئ بهذا القدر ونعيد الكرّة؟ ثم يجيب عنها عبر تحليل سوسيولوجي متعدد الأوجه كالتأويل المعرفي لإبراز قوة الأخطاء البسيطة للاستقراء والاستدلال والتفسير المشترك الذي يسمح بالوقوف على أمثلة التسلسل نحو العبث والتحليل الغائيّ الذي يفحص الطريقة التي يتصرف بها الناس في نياتهم. وكلها تقودنا إلى تأمل شامل في القرار ومعنى الفعل الإنساني.

أبناء العصر المتوحشون

«أطفال القرن الجدد: جهاديون، هوويون، رجعيون: بحث حول جيل مكسور» عنوان كتاب للصحافي ألكسندر ديفيكيو يتحدث فيه عن جهاديين وسياديين وقوميين ومحافظين وكاثوليكيين لا تتجاوز أعمارهم العشرين يختلفون في كل شيء، ولكنهم يلتقون ضد العولمة والليبرالية ونهاية التاريخ. فهم في نظر الكاتب، بثورتهم وتصدعهم، مرآة فرنسا اليوم وغدا. من أقبية الأحياء الشعبية إلى أروقة معهد العلوم السياسية ومن مواقع الدعاية إلى الائتلاف المناضل ومن أعمال الشغب إلى المظاهرات يقودنا الكاتب إلى مِرجل جيل يغتلي ويعطي الكلمة للمعروف منهم والمغمور ليعرف رأيهم من المطارحات

الثقافية والنظريات الأيديولوجية التي يعتنقونها أو يعارضونها، ويتساءل الكاتب إلى أيّ مدى يمكن أن تقودهم رغباتهم المتناقضة في إعادة تشكيل العالم الذي تفكك في عهد آبائهم. هل ينذرون بمستقبل يسوده نزاع عرقي أو إثني بين الجاليات، أم يبشّرون بغد موسوم باستفاقة سياسية وروحية.

الصراع الفرنسي البريطاني في الشرق الأوسط

صدرت مؤخرا الترجمة الفرنسية لكتاب المؤرخ الإنكليزي جيمس بار «خط على الرمل» مع عنوان فرعي «التنافس الفرنسي البريطاني، رحم النزاعات في الشرق الأوسط»، يعود فيه إلى اتفاقيات سايكس-بيكو عام 1916 كنقطة انطلاق للشرارة التي ستلهب المنطقة، بدءا بسوريا حتى السيطرةِ على قناة السويس مرورا بوضعية القدس، كمفجرات هزت تباعا هذه الأنحاء أو تلك، دون أن تعرف المنطقة الهدوء، لا سيما بعد ظهور المسألة اليهودية، حيث لجأ الإنكليز إلى الصهاينة للحدّ من طموح فرنسا في الشرق الأوسط، فيما ساهم الفرنسيون بقدر كبير في خلق دولة إسرائيل من خلال تنظيم عمليات هجرة واسعة ليهود أوروبا، وزرع الفوضى والعنف بشكل عجّل بإنهاء الانتداب البريطاني عام 1948. والكاتب يركز على المنافسة المسمومة التي لم يتوقف عندها المؤرخون كثيرا بين القوتين المحتلتين، مستندا إلى شهادات سياسيين ودبلوماسيين وجواسيس وجنود، في إضاءة المشاكل الماضية والراهنة للشرق الأوسط.

حواجز الشرق الأوسط الذهنية والجغرافية

«عتبات الشرق الأوسط: تاريخ الحدود والأراضي من العصور القديمة إلى الآن» عنوان كتاب محلّى بنحو مئة وخمسين خارطة للمؤرخ أوليفيي هان الأستاذ بمدرسة سان سير الحربية، يصوّر فيه الحدود الهشة الموروثة عن القرن العشرين ويبين أن المشكل قديم قدم التاريخ وأن هذه المنطقة فسيفساء إثنية ودينية معقدة ذات تاريخ يمسح آلاف السنين، ترك السومريون والإسكندر الأكبر والإمبراطوريات الفارسية والعربية والعثمانية فيه أثرهم. ورغم انقساماته المتكررة وحدوده المتحركة وحروبه المستمرة يظل الشرق الأوسط فضاء لبناء دول ومنظومات سياسية قوية حيث الحدود ليست مجرّد خطوط على خارطة بل هي تَحدّ لأراض ومجموعات وهويات متغيرة. وفي رأي الكاتب أن دراسة هذا التاريخ الطويل تتيح فهم التصدعات الثقافية والجيوسياسية المعاصرة. والعتبات هنا هي الحواجز الذهنية والجغرافية على حدّ السواء.

سوريا ليست للأسد

يعتبر جان بيير فيليو أستاذ التاريخ المعاصر للشرق الأوسط في معهد العلوم السياسية بباريس من المتابعين للأحداث في سوريا منذ اندلاعها، وهو أيضا ممّن نبّهوا منذ البداية إلى جرائم بشار وقواته ضد الشعب السوري. في كتابه الجديد «مرآة دمشق» يتحسر على تخاذل الغرب عن نصرة سوريا وشعبها وتركهما لفظائع لا تخطر على بال. ويذكّر بالتاريخ الإنساني الذي يربط الغرب وخاصة فرنسا بتلك البقاع التي شهدت مرور القديس بولس وصلاح الدين والأمير عبدالقادر، ويكشف عن وجوه أخرى كان لها حضور بارز من «طريق دمشق» إلى «الشرق المعقد» ليستخلص أنّ ما حاق بسوريا لا يخص العرب وحدهم ولا هو تصفية خلافات لا تنسى، بل هي أحداث راهنة بجلادين مرعبين، جهاديين كانوا أم أزلام بشار، لا يذكرون ماضيا مشرقا إلا من زاوية مشروعهم الشمولي. يقول فيليو «كلنا لنا نصيب من سوريا. في مرآة دمشق، نفهم بطريقة أفضل ما يجري لعالمنا».

الموقعون بالدم

«بشار الأسد، بأحرف من الدم» بورتريه عن جلاد سوريا والمرأتين اللتين تملكان نفوذا عليه، أمه وزوجته، يحاول كاتبه أن يفهم كيف استطاع شخص قيل إنه متعلم خجول كاره للسلطة لا يحسن الكلام بسبب لثغة أن يتحول من أسد إلى ضبع ينهش شعبه ويسعد بحكم بلد ممزقٍ شطرَه ميت أو معوق وشطره الآخر تائه في المنافي ومستعمَر من الصديق الإيراني والعمّ الروسي وابن العم الشيعي حزب الله وسائر الأسرة الكيمياوية. إلى جانب زوجته أسماء التي تعلمت في أوروبا هي أيضا ولم تأخذ من الأنوار أيّ قيمة إنسانية، فهي لا تتردد عن التبضع على الإنترنت من كبرى المحلات الفرنسية بعلم السلطات الفرنسية الحاكمة، في وقت تتهاوى فيه البراميل على السوريين والتي لا تستثني الشيوخ والنساء والأطفال، ويبيد زوجها وأسياده المواطنين العزل بالأسلحة الكيمياوية. الكتاب بقلم المراسل الصحافي لعدة وسائل إعلامية مكتوبة ومسموعة ومرئية جان ماري كيمينير الذي قضى سبع سنوات في سوريا منذ اندلاع الثورة.

كاتب من لبنان مقيم في ليدز/بريطانيا

جذور الإرهاب في الشرق الأوسط

نقاط الائتلاف والاختلاف

أبو بكر العيادي

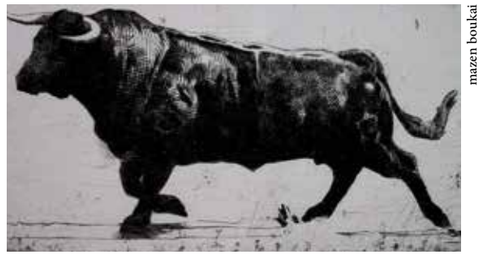

mazen boukai

ما انفك المحلّلون في فرنسا يبحثون عن دوافع الإرهاب الذي استشرى في الشرق الأوسط وطال البلدان الأوروبية نفسها، بفعل شبان نشؤوا على أرضها وتعلّموا في مدارسها. بعضهم عزا جذور الإرهاب إلى التصدعات الاجتماعية في البلدان المتقدمة التي أنتجت يأسا اجتماعيا وقع التعبير عنه عبر الجهادية العنيفة، وهو ما لخّصه الباحث المتخصص في التيارات الإسلامية أوليفيي روا بأسلمة الراديكالية. فيما ذهب آخرون إلى القول إن الإسلاموية هي نتاج انحراف للإسلام الأصولي دفع ببعض أنصاره إلى العنف، كما أكد متخصص آخر هو جيل كيبل.

وظل

الجدل بين الفريقين قائما، مركزا في الغالب على أنماط تجنيد الشباب عبر المواقع الإرهابية على الشبكة، على غرار تنظيم داعش، وسبل تفكيك خطاب تلك المواقع، دون البحث عن العوامل العميقة التي تفسّر نشوء ذلك التنظيم، مثل غيره من التنظيمات التي سبقته، نشوءا لا يجد جذوره في الصراع الاجتماعي الغربي، بوصفه عاملا ثانويًا، بل في التحولات العنيفة التي هزّت منطقة الشرق الأوسط منذ سنين طويلة.

تلك الثغرة، كما يقول المتابعون، نهض لسدّها في الآونة الأخيرة مؤرخ من جامعة أكسفورد هو البريطاني جيمس بار في كتاب بعنوان «خط في الرمل»، وأكاديميان فرنسيان متخصصان في الحقل الجيوسياسي هما بيير بلان من جامعة بوردو وجان لوي شانيولّو مدير معهد البحوث والدراسات الخاصة بمنطقتي البحر المتوسط والشرق الأوسط، في كتاب مشترك عنوانه «الاختراع التراجيدي للشرق الأوسط». والكتابان يعودان بنا إلى بدايات القرن الماضي حين اتفق الإنكليز والفرنسيون على اقتسام الولايات العثمانية القديمة بعد تهاوي سلطة الباب العالي، وتوالي هزائم جيوشها، فيما عرف باتفاقية سايكس-بيكو، ما يوهم بوجود انسجام بين بريطانيا وفرنسا، لا سيما أنهما كانتا تخوضان حربا ضروسا ضد ألمانيا وحليفاتها، والحال أن كلتيهما كانت في الواقع تمارس دبلوماسية مزدوجة. فبريطانيا، في سعيها لإضعاف ألمانيا من خلال النيل من حليفتها في المشرق، أي الإمبراطورية العثمانية المتداعية، شجعت مطالب التحرر في العالم العربي، لا سيما ثورة 1916 التي قادها الحسين بن علي شريف مكة، عبر عملائها في المنطقة، وأدهاهم توماس إدوارد لورانس (1888-1935) الشهير بلورانس العرب، ولكنها كانت في الوقت ذاته تتفاوض سرّا مع الفرنسيين لتقاسم نفس المنطقة، وتتنكّر لحركات التحرر العربية. أما فرنسا فكانت لا تدخر جهدا، كما سنرى، لعرقلة التوسع البريطاني، وفي الأقل تقليص نفوذه.

والغريب أن تلك الاتفاقية التي تقرر بموجبها مصير شعوب الشرق الأوسط قاطبة، والتي لا يعرفها الأوروبيون كثيرا، حرّرها موظفان من درجة دنيا، فالبريطاني مارك سايكس (1879-1919) هو دبلوماسي رقيع يزعم أنه خبير بالشرق الأوسط والحال أنه لا يتقن العربية ولا التركية، وما كتبه عن الإمبراطورية العثمانية عديم القيمة التاريخية والعلمية. أما الفرنسي فرانسوا جورج بيكو (1870-1951) فقد كان عضوا في الحزب الكولونيالي الفرنسي، ومجرد قنصل في بيروت عند اندلاع الحرب، واعتاد أن

يتخذ قراراته دون الرجوع إلى حكومته. وقد بدأت الاتفاقية عام 1916 برسم خط مائل على خارطة يبدأ من عكا على ساحل المتوسط وينتهي إلى كركوك على الحدود الفارسية، ويحدّد مجالي نفوذ كل طرف: ما يقع شمال الخط باللون الأزرق من نصيب فرنسا، ويشمل لبنان وسوريا. وما يقع جنوبه باللون الأحمر من نصيب بريطانيا، ويشمل فلسطين وبلاد الرافدين. ثم دخلت الاتفاقية حيّز التنفيذ عام 1920، فحصلت فرنسا على الجزء الأكبر من الجناح الغربي من الهلال الخصيب، سوريا ولبنان، ومنطقة الموصل في العراق. أما بريطانيا فامتدت مناطق سيطرتها من حدود بلاد الشام الجنوبي لتضم بغداد والبصرة وجميع المناطق الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة الفرنسية في سوريا. كما تقرّر أن تقع فلسطين تحت إدارة دولية يتم الاتفاق عليها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا، إضافة إلى روسيا، التي كانت أول من فضح تلك الاتفاقية السرية عند اندلاع الثورة البلشفية.

كل ذلك يوحي بأن البلدين المتحدين منذ 1804 بـ«وفاق حميم» هما صديقان وفيان، ولكن الواقع، كما يبيّن جيمس بار، كان عكس ذلك، إذ ما فتئ كل طرف يخوض حربا سرية ضد الطرف الآخر لاقتسام الشرق الأوسط، بطريقة لا تزال آثارها السياسية والنفسية بادية حتى الآن، من حلب إلى القدس. فالبريطانيون كانوا يؤلّبون العرب على فرنسا ويشجّعون مقاومتهم إياها، ويقفون مع الدروز في حربهم ضدها. أما الفرنسيون فكانوا يدعمون الإرهابيين اليهود بالأسلحة ويشجّعونهم على اغتيال الإنكليز في فلسطين. وظلّ الوضع كذلك حتى عندما تدخل الإنكليز لتحرير فرنسا المحتلة إبان الحرب العالمية الثانية. واستنادا إلى عدد هام من الوثائق، يكشف بار عن ملمح لم يسبق أن تناوله المؤرخون على حدّ علمنا، وهو أن فرنسا، كي تنتقم لنفسها من الأعمال العدائية التي أصابتها من بريطانيا، شجعت بقوة الحركة الصهيونية منذ عام 1945 ودعمتها بالمال والسلاح، وسهلت هجرة اليهود إلى فلسطين، وأقامت علاقات وطيدة مع المنظمات الإرهابية الصهيونية التي تغتال البريطانيين. بل إن فرنسا، حسب بار، مورّطة في اغتيال اللورد والتر موين (1880-1944) المندوب السامي في مصر، بعلم من الجنرال ديغول، الذي سيدين لاحقا السياسة التوسعية لإسرائيل، بعد أن ساعدتها فرنسا سنين في تجاربها لامتلاك القنبلة النووية.

تلك الاتفاقية، التي لم توضع إلا لخدمة مصالح القوى الاستعمارية، رفضتها شعوب

كانت عشرينات القرن الماضي بداية مراحل التراجيديا التي نشهدها حاليا، حيث انفجرت النعرات الطائفية والمذهبية خلف حدود مصطنعة رسمها الاستعمار في منطقة رزحت طويلا تحت نير الحكم العثماني، وكأن تلك المجتمعات لا حق لها في تحقيق استقلالها، إلا بالرضوخ لشروط المنتصرين

المنطقة بعد أن أنهكتها سنوات من العنف السياسي والاجتماعي. ولئن سمحت بخلق دول بشكل اعتباطي كسوريا والعراق والأردن ولبنان، فإنها استبعدت الشعبين الكردي والفلسطيني، إذ تمّ تهميش مطالبهما في رسم الخارطة الإقليمية. وبدل أن تحقق تلك الاتفاقية الاستقرار والتعاون لشعوب المنطقة، زرعت الفوضى وولدت الحرمان والحقد في النفوس، وكانت عشرينات القرن الماضي بداية مراحل التراجيديا التي نشهدها حاليا، حيث انفجرت النعرات الطائفية والمذهبية خلف حدود مصطنعة رسمها الاستعمار في منطقة رزحت طويلا تحت نير الحكم العثماني، وكأن تلك المجتمعات لا حق لها في تحقيق استقلالها، إلا بالرضوخ لشروط المنتصرين في الحرب العالمية الأولى، الذين كانوا يَعِدون كل الأطراف بالشيء نفسه، كما هي الحال مع بريطانيا التي وعدت الحركة الصهيونية عام 1917، على لسان وزير خارجيتها اللورد آرثر بلفور (1848-1930) بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكانت قبلها قد وعدت العرب أيضا باستعادة أوطانهم وتقرير مصيرهم، فصار توطين اليهود منذ ذلك الوعد أحد محرّكات السياسة البريطانية في المنطقة. أو على غرار فرنسا التي لم تر حرجا في التمييز بين الشعوب على أساس المصلحة، فقد تم تهميش وفدي العرب والأكراد اللذين يمثلان شعوبا ذات أغلبية ديمغرافية، خلال مؤتمر السلام الذي انعقد في باريس عام 1919، واحتفت بمن يمثل أقليات، كالمارونيين والصهاينة الذين احتلوا صدارة المفاوضات، وحصلوا عقب المشاورات الدبلوماسية على نتائج هامة. أما شريف باشا عن الأكراد، والأمير فيصل عن العرب، فلم يحصلا على شيء يذكر. كذلك الأرمن، إذ قوبلت مطالبهم بالتجاهل، رغم الإبادة الجماعية التي ألحقها بهم الأتراك عام 1915. والكتاب يخصص فصلا لتلك الشعوب، مع التأكيد على معاناة الشعبين الكردي الممزق بين أكثر من دولة، والفلسطيني الذي جاوزت معاناته القرن دون أمل في حلّ، بل إن قضيته تكاد تختفي من المشهد إعلاميا وسياسيا،

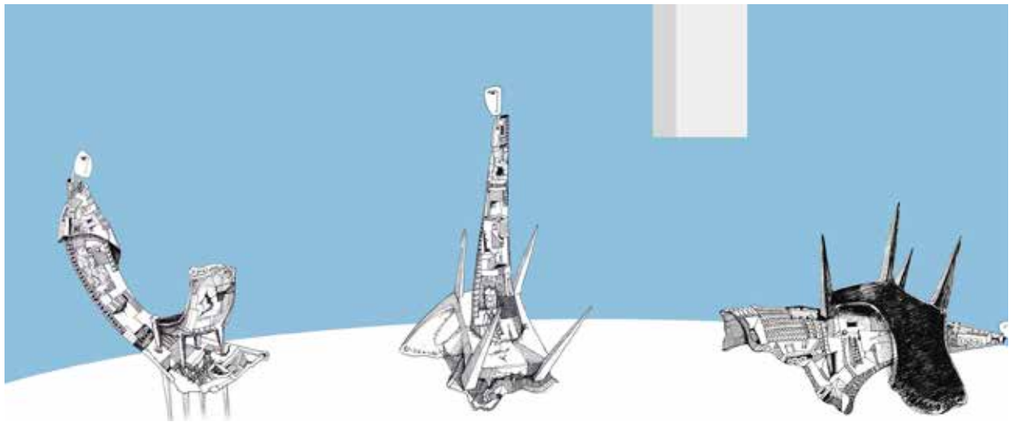

محمد خياطة

بسبب النزاع في العراق وسوريا، بعد أن أشبعته «الشرعية الدولية» وعودا زائفة.

الكتاب الثاني، الذي وضعه بيير بلان وجان بول شانيولّو، يعالج هو أيضا المسائل نفسها، ويركّز على حصول القوتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا، بعد الانتصار في الحرب العالمية الأولى، على تفويض من عصبة الأمم تفرضان بموجبه هيمنتهما على الشرق الأوسط. وبذلك أُهملت مطالب العرب، فمثّل ذلك الإهمال بداية سلسلة من الإذلال غذت حقد النخبة العربية على الغرب، ثم عقبتها كراهية الشعوب العربية قاطبة لهذا الغرب الذي نكث العهد. ولما تهاوى النظام الكولونيالي بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت القومية العربية واستقرت داخل الحدود المصطنعة التي رسمها سايكس وبيكو، حيث صار لكل شعب دولة إلى جانب الدول التي كانت قد حازت استقلالها كلبنان وتركيا وإيران، وكذلك إسرائيل التي فرضت على أرض فلسطين كدولة قائمة الذات، ما ولّد نقمة عارمة لدى الفلسطينيين تجسمت في نزاعات عسكرية ودبلوماسية لا تنتهي.

ويتوقف الكاتبان عند القومية العربية التي كانت مبعث أمل في البداية، قبل أن تتهاوى تحت هيمنة أنظمة عنيفة وفاسدة. واختارت أحزاب الاستقلال القومية الاشتراكية كأيديولوجيا، قبل أن تحلّ محلها أصولية دينية رأت فيها الشعوب تأكيدا لهويتها العربية الإسلامية، ولكنها سرعان ما جنحت للتشدد، فمهدت لظهور تنظيمات إرهابية كالقاعدة وداعش، وهي تنظيمات يعتبرها الكاتبان مسخا داميا واستباديا للمطالب التي نادى بها العرب أيام لورانس. ولم تنتقل تلك الدعوات العنيفة إلى الجاليات المسلمة المهمّشة في الغرب إلا في مرحلة لاحقة. وفي رأيهما أن ثمة سببا أول، هو تاريخ الشرق الأوسط، حيث لعب الغرب الدور الأسوأ؛ وسببا ثانيا، هو تهميش الجاليات المسلمة في بلاد الغرب. يقول الكاتبان «إن أهملنا السبب الأول، فذلك معناه أننا نحكم على أنفسنا بعدم فهم الإرهاب الذي يصيبنا».

من نافلة القول إن الشرق الأوسط لا يزال يستقطب التوترات الدولية. فتجميد الملف الفلسطيني والإرهاب الجهادي والحروب الأهلية في العراق وسوريا والهزات المستمرة في لبنان وهشاشة الأردن، إضافة إلى تدخل القوى العظمى التي من النادر أن تترك الفرقاء المحليين يعالجون قضاياهم بأنفسهم.. كلها مظاهر تتواصل منذ أعوام، بل منذ عشرات السنين، ما يضع الشرق الأوسط في قائمة المناطق التي تتميز بأكبر قدر من العوامل الاستراتيجية المجهولة وأكثرها تعقيدا في رأي الكاتبين. وفضل الكِتابين أولا أنهما يشكلان تذكيرا دقيقا بالمنعرج الاستراتيجي لعشرينات القرن الماضي لفهم توالي الأزمات والمآسي التي ما انفك الشرق الأوسط يروح ضحيتها منذ ذلك التاريخ. فالثورات الشعبية سحقتها القوى الاستعمارية ما بين الحربين. ولما حازت بعض الدول استقلالها شابت مسيرتها سلسلة من الانحرافات كالاستقطاب الطائفي المتنامي ومنطق الوثوب على السلطة وتوزيع الثروات بحسب الانتماء القبلي وهيمنة العنف والانقلابات العسكرية واضطهاد الشعوب... وفضلهما ثانيا أنهما ينزّلان الفوضى المرعبة التي يشهدها الشرق الأوسط في المدى الطويل للتاريخ، ويذكّران بمسؤولية كل طرف، إذ يوجه المؤلفون الثلاثة إصبع الاتهام إلى تدخلات القوى العظمى التي غالبا ما أدت إلى تقويض دول بحالها. فبعد بريطانيا وفرنسا جاءت الحقبة الأميركية السوفييتية بويلاتها، ثم عقبتها التدخلات التركية والإيرانية وبعض دول الخليج ما زاد الأوضاع تأزما والأوطان تحللا. كما يؤكد الكتابان على مركزية الحدود كرهان هام في تلك البقعة من العالم، فلا يمكن، في نظر المؤلفين، أن تحظى المنطقة بمؤشرات مشجعة ما دامت تلك المسألة مطروحة.

كاتب من تونس مقيم في باريس

هل نملك غير الثقافة ردّا على العنف؟

هيثم الزبيدي

العنف يرتبط بالمخلوقات. أنظر أشواك الزهور أو منظومة الحماية الفائقة لنبتة الصبار. أترك نخلة من دون صاعود ينظفها من أشواكها أو من دون تكريب وسترى شجرة مختلفة أشبه بقلعة دفاع. الأكباش تقضي ساعاتها الأخيرة قبل الذبح بالتناطح فيما بينها.

العنف في الطبيعة مسبب. الأشجار "تلجأ" إلى العنف حماية لثمارها. الحيوانات تتصارع للسيطرة والحصول على الغذاء أو حماية لصغارها. لا تمدّ يدك إلى الزهرة لتقطفها فلا يخزك شوكها. الأشجار تصعد عاليا قبل أن تبدأ بالإثمار لتمارس نوعا من العنف بتصعيب مهمة الطامع بثمارها وقد يسقط من جذوعها مسببا الأذى لنفسه.

العنف في الطبيعة أيضا منظّم. الحيوانات تفترس بأسنان حادة وتقطع بمخالب وترفس بحوافر صلبة وتنطح بقرون أشبه بالعظام المسننة. لكنها في النهاية تحتاج إلى الكثير من الجهد العضلي والتركيز والمطاردة والهرب لكي تمارس هذا العنف.

أدوات الطبيعة التي تمارس العنف محدودة نسبيا. في أستراليا مثلا تقتل أسماك القرش ثلاثة أو أربعة أفراد بالسنة لأن لا شيء لديها غير فكوكها وأسنانها، في حين يقتل الإنسان ما يزيد عن 50 ألف سمكة قرش. العنف في الطبيعة هو جزء من آليات التوازن والبقاء.

العنف عند الإنسان شيء آخر. الإنسان نادرا ما يستخدم قوته العضلية في القتل، بل يلجأ إلى آلة وأدوات. ثمة اعتقاد متزايد الآن لدى علماء الأنثروبولوجيا أن البشر المعاصرين هم الفائزون في صراعات مع أنواع أخرى من الإنسان، مثل إنسان نياندرتال، وأنهم ليسوا النسخة المتطورة عنهم. العصيّ والرماح والفؤوس والحجارة كانت أدوات لممارسة العنف في الصيد وفي الحرب.

تطوّرت الأدوات فتطوّر العنف. القتل بالسيف يحتاج جهدا عضليا وتدريبا، وأيضا اقترابا خطرا من الضحية. أسلحة الرمي الميكانيكية مثل الأقواس والسهام والمنجنيق، أو النارية التي تطورت مع ظهور البارود سهلت المهمة عمليا ونفسيا. القاتل يطلق النار من بعيد ولا يحتاج أن يرى عين الضحية وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. القنابل صارت سلاحا سرعان ما طوره الإنسان بإلقائه على خصمه غير المنظور باستخدام مدفعية أو طائرة. وصلنا إلى عصر سلاح الدمار التام مع دخول العصر النووي.

مشكلة العنف الإنساني أنه بدأ واستمر غرائزيا، لكنه ظل يبحث عن الإطار الأيديولوجي لتبرير حدوثه. سنجد في كتب التاريخ كل أنواع المبررات لممارسة العنف، خيالية أو مقدسة أو فكرية. العنف جزء أصيل من ممارسات الأديان. دعوة السيد المسيح (ع) إلى إدارة الخدّ الأيسر لمن ضربك على خدك الأيمن لم تمنع حدوث الحروب الصليبية التي تعدّ أطول حملة عسكرية في تاريخ البشرية.

بوجود الأدوات الحديثة، صار العنف نمطا حياتيا. الحركات المسلحة المعاصرة، مثلها مثل الجيوش، هي وظيفة بدوام كامل. التقنيات الإلكترونية وسّعت دائرة العنف بشكل غير مسبوق، وصار العنف مشهدا دائما على الفضائيات ورسالة متواصلة على مواقع الإنترنت والشبكات الاجتماعية. العنف، خلال السنوات العشرين الأخيرة، فقد صفته المنظمة واكتسب صفة الإرهاب. القاعدة والنصرة وداعش وحزب الله وميليشيات إيران كلها ظواهر عنف قديمة بأدوات حديثة. ما كان لهذه الظواهر أن تبلغ مداها اليوم لولا توفّر التقنيات وسهولتها من جهة وتعثر الردّ بحكم ارتباط العنف بالدين من جهة ثانية.

التقنيات جاءت لتبقى. كل حديث عن حرمان العنف الإرهابي من تقنيات التواصل الاجتماعي أو التحويلات المالية أو منابر الإعلام لا يمكن أن يتحقق. هي سلسلة معارك تقنية أشبه بتلك التي تخوضها الشركات والحكومات مع القراصنة المعلوماتيين. يتم سد الثغرات لتظهر ثغرات أخرى. تحارب منبرا على فيسبوك ليظهر شبيهه على تويتر. تغلق موقعا على الإنترنت، فيتناسل ويظهر في مكان آخر. الردّ التقني تعطيلي ولكنه ليس شافيا.

الردّ الأهم هو الرد الثقافي. لو تتبّعنا مسيرة العنف في التاريخ سنجد أن ما هذّب سلوك الإنسان أو أشعل الغرائز هو صعود وهبوط مؤشر الثقافة في رقيّ الحياة البشرية. من دون ردّ ثقافي لا علاج لدينا إلا عنف مضاد قد تمارسه الدول أو الجماعات. وإذا كان ثمة حكمة تعلّمها البشر فهي أن العنف يولّد العنف المضاد.

الثقافة هي الوسيلة للخروج من الحلقة المفرغة. الثقافة الفاعلة هي البديل المجرّب في مواجهة الغرائز وتبريراتها الفكرية والدينية، وهي الثقافة بمعناها الأشمل وليس ثقافة الشعر والفنون فقط. هي ثقافة العيش وقبول الآخر مثلما هي ثقافة مشاهدة مباراة كرة القدم والاستمتاع بها ■

كاتب من العراق مقيم في لندن

إبراهيم أبويه
أبو بكر العيادي
إسماعيل غزالي
إسماعيل نوري الربيعي
أمين الزاوي
أمينة شيخ
أنيس الرافعي
بنميمون أحمد
حسونة المصباحي
حميد ركاطة
الخير شوار
زهرة زيراوي
سعيد منتسب
السيد نجم
عامر عبدزيد الوائلي
عبد الرحمن بسيسو
عبدالرزاق بادي
عبدالرزاق بوكبة
عبداللطيف النيلة
عبدالله مكسور
عبدالهادي الفحيلي
علوان الجيلاني
عيسى بن محمود
غادة الأغزاوي
فاتحة مرشيد
فاروق يوسف
فاطمة الزهراء الرغيوي
فدوى البشتيري
فريدة العاطفي
كمال بستاني
لحسن باكور
مبارك حسني
محمد الحمامصي
محمد الشايب
محمد الفخراني
محمد سيد عيد
مريم الساعدي
مصطفى لغتيري
مفيد نجم
منى برنس
موسى برهومة
ناجح العبيدي
نوري الجراح
هشام الماحوزي
هيام الفرشيشي
هيثم الزبيدي
يوسف بوذن

فكر حر وإبداع جديد

www.aljadeedmagazine.com